

OLIN
DS
99
S8
A91

CORNELL UNIVERSITY
LIBRARIES
ITHACA, N. Y. 14853



JOHN M. OLIN
LIBRARY

Cornell University Library
DS 99.S8A91

Tarif bi-Muhafazat Jabal al-Arab /



3 1924 028 523 656 USA

JAR-8871

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة



Philae - Egypt - Temple of Isis

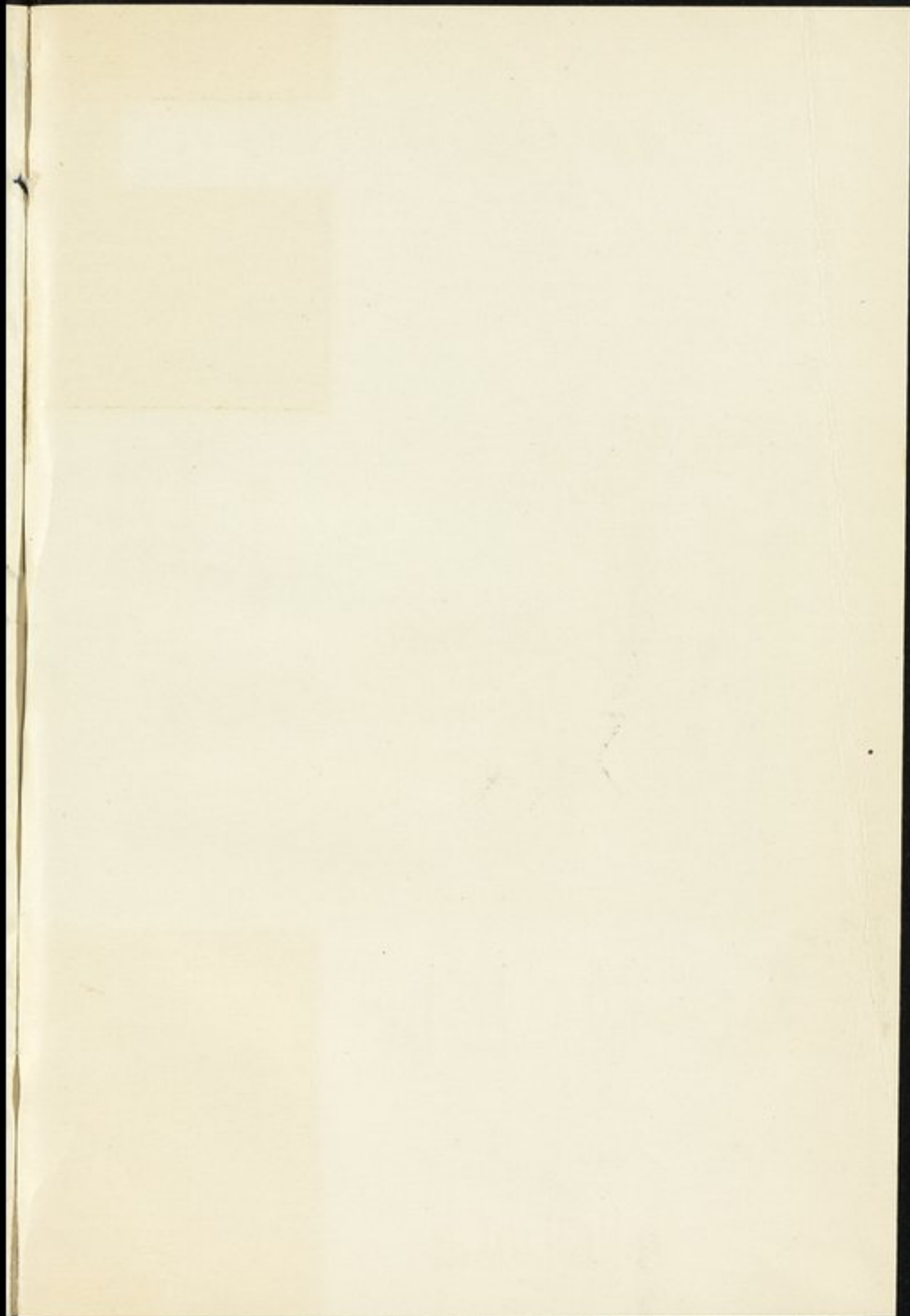
محافظة السويس

تأليف

شفي العيسوي داوود نمر صمود السوي

- ٢ -

سلسلة بلادنا



وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

التعريف بمحاولة جيل العرب

تأليف

راوند عمر

عماد السوفي

عبدالحق العيسوي

مراجعة
الاستاذ عازف النكدئي

سلسلة بلادنا ٢

١٩٦٢

درعشق



al - Aysami, Shibli

al - Tarif bi - Muhafazat - -



4

المقدمة

عندما أعلنت وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق عن رغبتها في أن يسهم القادرون على الكتابة بتأليف بعض الكتب حول موضوعات مختلفة ومن بينها التعريف بمحافظة جبل العرب ، وافقنا على الكتابة بهذا الموضوع لسببين اثنين : الأول لأن فكرة تدوين تاريخ شامل للجبل كانت تراودنا منذ أكثر من عامين بل كنا على وشك الشروع بتنفيذها . والثاني لأن انجاز عمل كهذا قد يسد فراغاً ويبي حاجة طالما شعرت بها وزارة الثقافة والارشاد القومي .

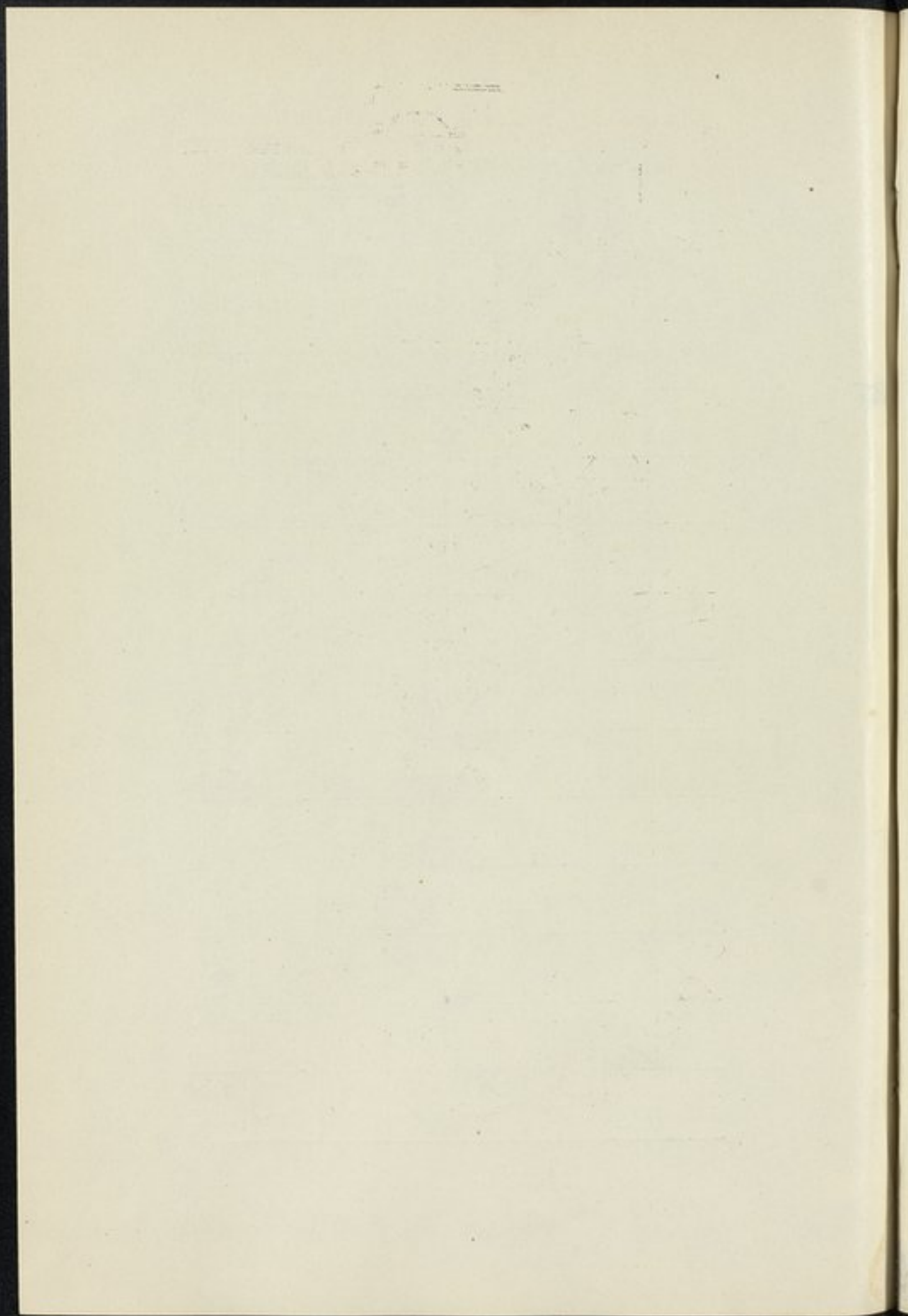
وبعد : فقد كتب الاستاذ شبلي العيسمي لمحة عن تاريخ جبل العرب قبل ان يسكنه بنو معروف ، وعن كيفية نزوحهم اليه ، وعن حروبهم في زمن الاتراك العثمانيين ، واشتراكهم في الثورة العربية الكبرى ، وثوراتهم الداخلية ضد الزعامة المستبدة والتحكم الاقطاعي في القرن التاسع عشر ، ثم كتب عن عروبتهم وحياتهم الاجتماعية .

وكتب الاستاذ داود النمر لمحة عامة عن جغرافية الجبل وسكانه وحياته الاقتصادية والادبية والفنية ، وعن اوضاع التعليم فيه .

أما الاستاذ حمود الشوفي فقد كتب لمحة عن مذهب
بني معروف وعن الثورة السورية الكبرى وما بعدها حتى
الوقت الحاضر .

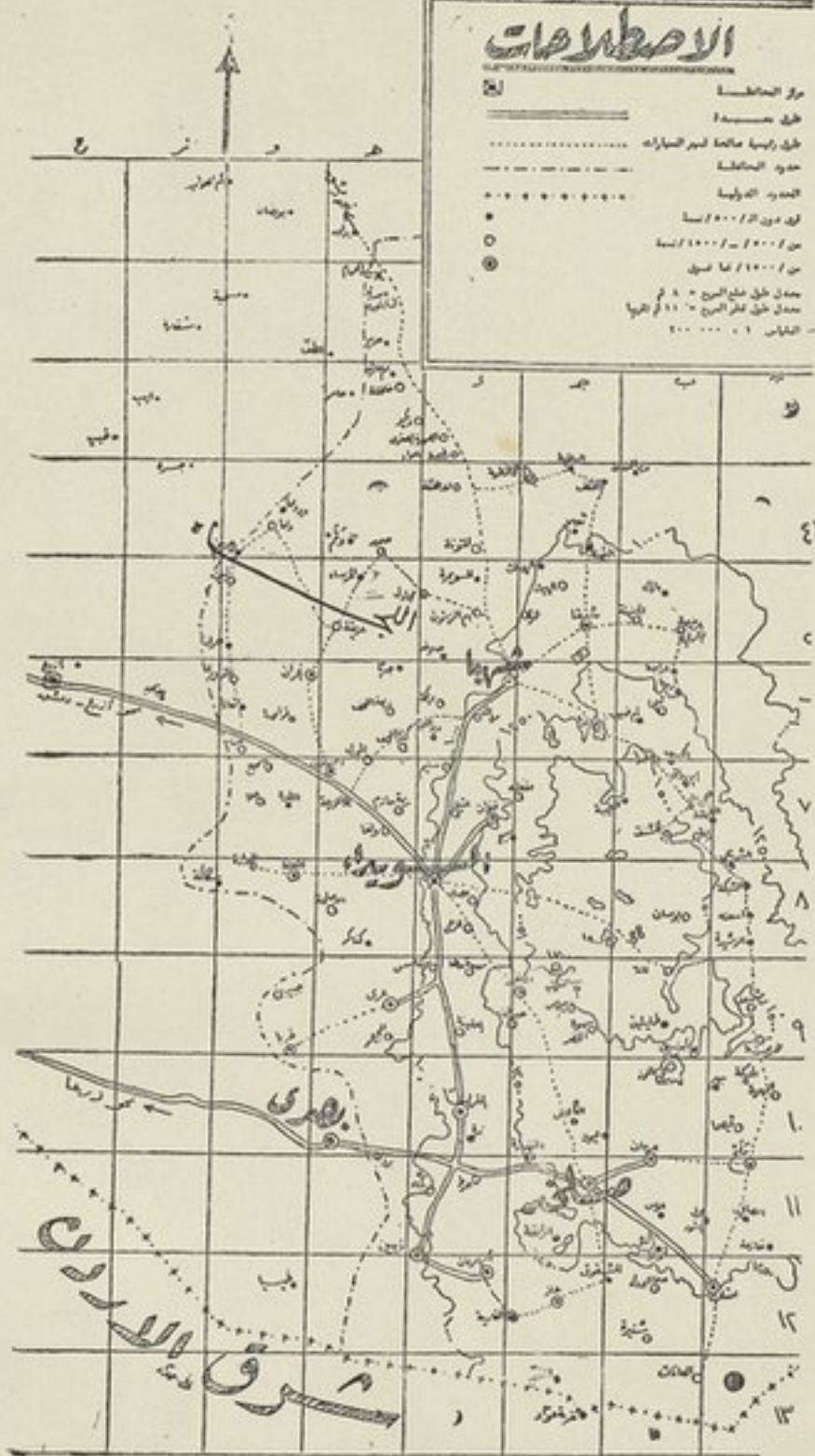
ونحن اذ نقدم للقراء هذا الكتاب عن جبل العرب
نشكر وزارة الثقافة والارشاد القومي على جهدها واهتمامها
بنشره ، ونعتذر عن أي تقصير في اعطاء بعض الموضوعات
الواردة فيه حقها في الدقة والاستقصاء بسبب ضيق الوقت ،
ولكن حسبنا اننا نرجو ان يكون فيه بعض الفائدة .

(المؤلفون)



الاصطلاحات

- | | |
|-----------|------------------------------|
| ⊠ | مركز المحافظة |
| ————— | خط حديد |
| | خط رئيسية مائتة لير الترابية |
| - - - - - | حدود المحافظة |
| | الحدود البلدية |
| ● | قرية من 100-200 نسمة |
| ○ | من 200-1000 نسمة |
| ⊙ | من 1000 نسمة فما فوق |
| ⊠ | معدل خط على السطح = 1 |
| ⊠ | معدل خط على السطح = 2 |
| ⊠ | القياس 1 : 200,000 |



جبل العرب
قبل أن يسكنه بنو معروف

Handwritten text, possibly a date or page number, written vertically along the left margin.

Handwritten text, possibly a signature or name, written in the center of the page.

من المفيد ان نذكر لمحة خاطفة عن تاريخ جبل العرب قبل ان يهاجر اليه بنو معروف ويقطنوا فيه . ففي كثير من بقاعه وخاصة بالقرب من الينابيع وجدت ادوات صوانية منحوتة تشير الى ان انسان ما قبل التاريخ كان يستخدمها ويفيد منها . ويبدو ان تاريخ حوران السهل والجبل ، في الزمن الذي سبق عهد الانباط العرب والسلوقيين اليونان في سورية ، لا يزال غامضاً الى حد كبير ومن المعروف ان الصفويين العرب سكنوا في المنحدر الشرقي من الجبل منذ القرن الاول للميلاد ، وكانت لغتهم على قول المستشرق « هاليقي » وسطا بين اللغة الفينيقية وعربية القرآن ، وتركوا رسوما وكتابات كثيرة اشهرها تلك التي وجدت في قصر النار بالصفاء شرق الجبل .

اما الانباط (١) العرب فقد دخلوا الجبل على اثر موقعة (موتانا) - وهي اليوم قرية امتان الواقعة شرق صلخد - حيث انتصروا فيها على السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني عام ٨٨ ق.م وقتلوا ملكهم انطيوخوس الثالث عشر . ثم اصبحت (قانا) اي قنوات والسويداء و صلخد من المراكز التجارية المشهورة في عهدهم .

وفي هذه البلدة الاخيرة كتابة نبطية دينية موجهة الى (اللات) الهة الحصب . وفي السفح الغربي لتل القليب عثر على هيكل نبطي للاله ذي الشراة وفي سبع بالقرب من قنوات ، والى الجنوب الشرقي منها وجد مذبح

(١) الانباط من العرب الذين سكنوا في شرق الاردن منذ القرن السادس قبل الميلاد ، واشتهرت عاصمتهم البتراء بأثارها الجميلة المحفورة في الصخر قرب خليج العقبة. وامتدت سلطتهم حتى دمشق وسهل البقاع .

لهذا الاله كما وجد له معبد آخر في السويداء ، والجدير بالذكر ان هذه الآلهة النبطية كانت معروفة عند عرب الجاهلية في شبه الجزيرة العربية .

كتب الانباط بالآرامية واصبحت هذه في القرن الثالث للميلاد كتابة عرب الشمال ، ثم تحولت الى الخط العربي النسخي ذي الشكل المستدير ، واقدم كتابة عربية من هذا النوع هي تلك التي وجدت في قصر النار الآنف الذكر ، وترجع الى عام ٣٢٨ م وهي تؤرخ قبر امرئ القيس احد ملوك العرب .

وعندما احتل الرومان سورية عام ٦٤ ق.م لم يتمكنوا من السيطرة على بلاد الانباط اول الأمر فأخذوا يتوددون لهم « وعقد سكورس الحاكم الروماني اتفاقية مع الحارث حسبا للنزاع ومنعاً لتحريشات العرب بحدود الامبراطورية ، وافق بموجبها ملك العرب اي النبط على المحافظة على الأمن وعلى التعاون مع الرومان في هذا الشأن^(١) . وفي مطلع القرن الثاني للميلاد اغتتم الرومان فرصة وفاة الملك رثبال الثاني وضعف الانباط فهاجموا بلادهم واعلنوا الحاقها بامبراطوريتهم الرومانية عام ١٠٦ م واطلقوا عليها اسم الولاية العربية وجعلوا عاصمتها بصرى ، مما ادى الى حدوث اضطرابات واسعة ، حتى اذا ما استتب الامر للرومان بعد جهد ومشقة بنوا فيها الحصون والمراكز العسكرية وشقوا الطرقات الكثيرة وعبدوها لكي يسهل عليهم السيطرة عليها وتأمين التجارة والأمن فيها . ومن هذه الطرق التي انشاوها ، الطريق الآتية من دمشق فشيها عبر اللجاء ومنها الى قنوات فالسويداء فعري . ثم طريق بصرى فصاخذ فامتان فالعراق .. وطريق السويداء فساله شرقاً .

ومما هو جدير بالذكر ان الانباط لم يتخلو عن لغتهم و كتابتهم في ظل الرومان بدليل العثور على حجر ذكرت عليه المسافة بين بصرى والمفرق (بالأردن) بحروف نبطية . ويقول الدكتور فيليب حتي « يعد بدو الحويطات .

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام - الدكتور جواد علي ص ٣٨٤ ج ٢ .

اليوم من سلالة الأنباط (١) . هذا ويجب ان نذكر ان في كثير من قرى
الجليل آثار الابراج والمسارح والحمامات والفنادق والقصور والمقابر والمعابد
الدينية التي بنيت في عهد الرومان ، ومنها المعبد الشمالي في قرية عيتل (شمالي
السويداء) ، بناه الامبراطور « كاراكالا » ذي الأصل القرطاجي العربي ،
تكريماً للاله النبطي « تياندريس » الذي يقابل الاله ذا الشراة ، الامر الذي
يدل على ان آلهة سكان البلاد الاصليين ومعتقداتهم بقيت على ما كانت عليه .
ولم يسع الرومان لمحاربتها والقضاء عليها . ومن الملحوظ ان آثار السدود والبرك
الكبيرة لجمع الامطار عند هطولها ، ثم الأقنية الفخارية التي تجر فيها المياه الى
المدن والقرى من اما كن بعيدة ، لا تزال ظاهرة حتى الآن . وتجدر الاشارة
في هذه المناسبة الى ان أشهر آثار الجبل تشاهد في قنوات وشها ، ففي الأولى
معبد الاله الشمس وكان له (٣١) عاموداً تفتي بتيجان كورنتية . ومعبد
الاله زوس سيد السماوات بالقرب من خزان المياه ، ثم « الاوديون » وهو
نوع من المسارح تقام فيه الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية . وعلى النصف
الاول من درجاته كتابة يونانية . ثم هنالك كنيسة قنوات المدينة حيث كانت
مكاناً يقام فيه العدل للاجتماعات العامة ، وبابها الرئيسي الوسطي يزدان بالنقوش
الجميلة على شكل اثمار وازهار واغصان تشكل احدى الروائع الأثرية ، وفي
هذه البلدة ايضاً اسوار وخزانات للمياه وحمامات وفنادق ونوافذ من حجر
البازلت منحوتة باسلوب نبطي ومزينة بعناقيد العنب ، وبصورة عامة « ان
آثار قنوات تؤلف متحفاً اثرياً قائماً بذاته لما لهذه الآثار من اهمية تاريخية لانه
تجمع بين مختلف آثار العصور الرومانية المتعاقبة » . اما آثار شها فأشهرها
المعبد الذي بناه الامبراطور فيليب العربي في القرن الثالث الميلادي ، وتشهد
على عظمة اعمدته الاربعة الباقية منه ذات التيجان الكورنتية الجميلة . وهنالك
ايضاً ابنية دينية كانت اصلاً للكنائس المسيحية البيزنطية او اصلاً لقبابها على

(١) تاريخ العرب المطول - الدكتور فيليب حتى ج ٦ ص ٩٠ .

الأقل اما مسرح شها فانه يعطي نموذجاً واضحاً للمسارح الرومانية وكانت له طابق علوي ، وكانت حماماته تحتوي على غرف للثياب والمطالعة والمحادثات والرياضة واللهو الى جانب المطاعم والمنزهات ، ومدينة شها طرق واسعة مبلطة منذ عهد الرومان وسور ضخمة لاتزال بعض ابوابه الجميلة قائمة حتى الآن . وفي عام ٢٤٤ م توصل فيليب العربي من سكان هذه المدينة الى عرش روما وكان ابوه من رؤساء القبائل العربية خرج الى اللجاء ليعيش فيها مدة من الزمن ويمارس حياة البداوة ، ثم التحق بالجيش الروماني وبرهن عن ذكاء ومقدرة ، مكنتاه من الوصول الى عرش الامبراطورية الرومانية ، ولاسيما بعد ان تغلب على الفرس .

وفي القرن الرابع للميلاد شعر الروم البيزنطيون بأن تعليمات حكاهم لم تعد نافذة ، واصبحت تقابل بالاستنكار فتروكوا الحكم للأمراء العرب من الغساسنة ، بعد ان نظمت علاقاتهم بالقناصل الرومان^(١) .

ويقول المستشرق الافرنسي دوسو الذي ارتاد جبال حوران واللجاء . والصفاء ان الغساسنة « أقاموا خط دفاع في اطراف حوران (الجبل) يفصل بينها وبين البادية ، ويتألف من عدة حصون ، منها القصر الأبيض والنارة ، ودير الكهف والقلعة الزرقاء (وكلها تقع شرق جنوب الجبل) . وفي القصر الابيض مثلاً نقوش جميلة فيها صور طيور وخيول وفهود واسود وبقر وافيال حتى السمك^(٢) ، أضف الى ذلك ما بنوه من قصور في السويداء والقربا بلدة سلطان الاطرش اليوم .

هذا ويقول الدكتور فيليب حتي « أما القضاء الذي نراه اليوم فقرا موحشاً فقد كان في زمن غسان عامراً بالقرى والداكر ، وفيها المنازل التي

(١) حوران - سليمان عبد الله المقداد - ص ٢٣ .

(٢) العرب قبل الاسلام - جرجي زيدان ج ١ ص ١٨٤ .

شيدت من الرخام الاسود ، والقصور واقواس النصر ، والحمامات العمومية والاقنية الارضية والمسارح والبيوع ، ولا تزال انقاض قصورهم ظاهرة في بصرى وفي انحاء الشرق والجنوب من جبال حوران . وبلغ الغساسنة درجة كبيرة من الرقي والنفوذ في عهد الحارث بن جبلة الذي أعطي لقب « فيلارك » اي رئيس قبيلة وشيخها ، وهي مرتبة تلي الامبراطور . ثم عين رئيساً على جميع عرب سورية بعد انتصاره العظيم على الفرس عام ٥٢٨ م وخلفه ابنه المنذر الذي نازع البيزنطيين سلطتهم وثار عليهم ، ولكنهم قبضوا عليه ونفوه الى صقلية ، ثم هاجم الفرس حوران الجبل السهل عام ٦٠٨ م وخرج الأمر من أيدي البيزنطيين ، ولم يستعيدوا هذه المنطقة إلا بعد ان انتصر هرقل ملك الروم على الفرس عام ٦٢٩ م فنصب جبلة بن الايم ملكاً عليها . وفي هذه الفترة حدث كثير من التهديم والتخريب من جراء الفوضى السياسية والحروب المتواصلة بين الفرس والروم حيث كانت حوران السهل والجبل مسرحاً لهذه الحروب . وفي نهاية هذه الفترة كانت جيوش العرب المسلمين تضغط على حوران وتتحفز لاحتلالها ، وكان هؤلاء الغساسنة القحطانيون همزة وصل بين عرب الجزيرة وبين سكان سورية الشمالية والبيزنطيين ايضاً . وقد انضم كثير منهم الى اخوانهم العرب المسلمين الذي فتحوا بلاد الشام في القرن السابع للميلاد . « وفي عام ٦٣٦ م أقر عمر بن الخطاب مالكا بن الحارث (من الشهابيين) اميراً بحوران لنجدة العساكر التي تجيء من صوب الحجاز فاتخذ له الشهابي احدى قرى حوران موطناً له ولعشيرته ، وقام هنالك بالمرصاد للنصارى من بني غسان ومنع عنهم حوران بعد ان جرت له معهم مواقع عديدة (١) » .

ويرى بعض المؤرخين ان اسم الشهابيين مشتق من « شهابا التي سكنوها خمسة قرون منذ الهجرة (٢) » ثم خضع الجبل للدول التي تعاقبت على الحكم في

(١) ذخائر لبنان ص ٢٤٣ عزتلو ابراهيم بك الاسود .

(٢) الدرود - الكابتى بورون ص ٩١ .

سورية منذ عهد الامويين والعباسيين. وفي عام ٧٣٧ م جهز الامير قاسم الشهابي اخاه وقاحاً بثلاثة الاف فارس ليحاربوا مع مسيلمة بن عبد الملك الروم بالقسطنطينية ، وخلف الامير قاسم ولده شهاب ، وفي سنة ٧٨٠ م وجه شهاب اخاه سليمان مع الرشيد بن المهدي لقتال الروم عند خليج القسطنطينية. وتوفي قيس (الشهابي) فخلفه عامر الملقب بالاذرعي نسبة الى قرية يقال لها اذرعات المعروفة اليوم باذرع ، استوطنها بعد ان دحر العساكر التي جهزها احمد بن طولون صاحب الشام لقتال من سمع بقدمهم من عرب الحجاز الى حوران ، ثم توفي عامر فخلفه ولده سعيد ، وفي سنة ٨٩٥ م قاتل الامير سعيد القرامطة وهم يبعثون الاستيلاء على حوران ومنعها عليهم (١). ذلك لان القرامطة عندما قصدوا الشام دفعهم عنها اهلها فارتدوا الى حوران وبصرى واذرعات والبيشة من اعمال جبل الدروز ينشرون دعوتهم في يد ويسلطون السيف في اخرى (٢).

وعندما بدأت الحملات الصليبية استطاع سكان الجبل ان يصدوها عنه وكان الايوبيون قد تمركزوا فيه وبنوا الحصون والقلاع كما في صلخد حيث زادوا في تحصين قلعتها النبطية الاصل . وفي أعلى مئذنة صلخد الحالية اسم اول سلاطين المماليك عز الدين ايبك . وربما اضيفت هذه الكتابة بعد بناء المسجد الايوبي ومئذنته عندما انتقل الحكم الى المماليك . وكان لصلخد شأن في الاسلام ولاسيما في زمن صلاح الدين اذ كانت قاعدة ملك عز الدين بن اسامة ، واقوش الاقرم أحد امراء بني ايوب ، كما كانت قاعدة « جبل بني هلال » نسبة الى سكانه (٣).

هذا ومن الجدير بالذكر ان الامير منقذ الشهابي واقرباء الامراء مالوا الى صلاح الدين ، ولما اضرهم هذا الحرب على الافرنج اعانوه كثيراً عليهم وكان يوليهم طليعة جيوشه ، ولما تصافى نور الدين وصلاح الدين ورجع هذا الى الديار المصرية ووقعت النفرة بينها مرة اخرى اوجس الامير منقذ من نور الدين

(١) ذخائر لبنان - الاسود ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

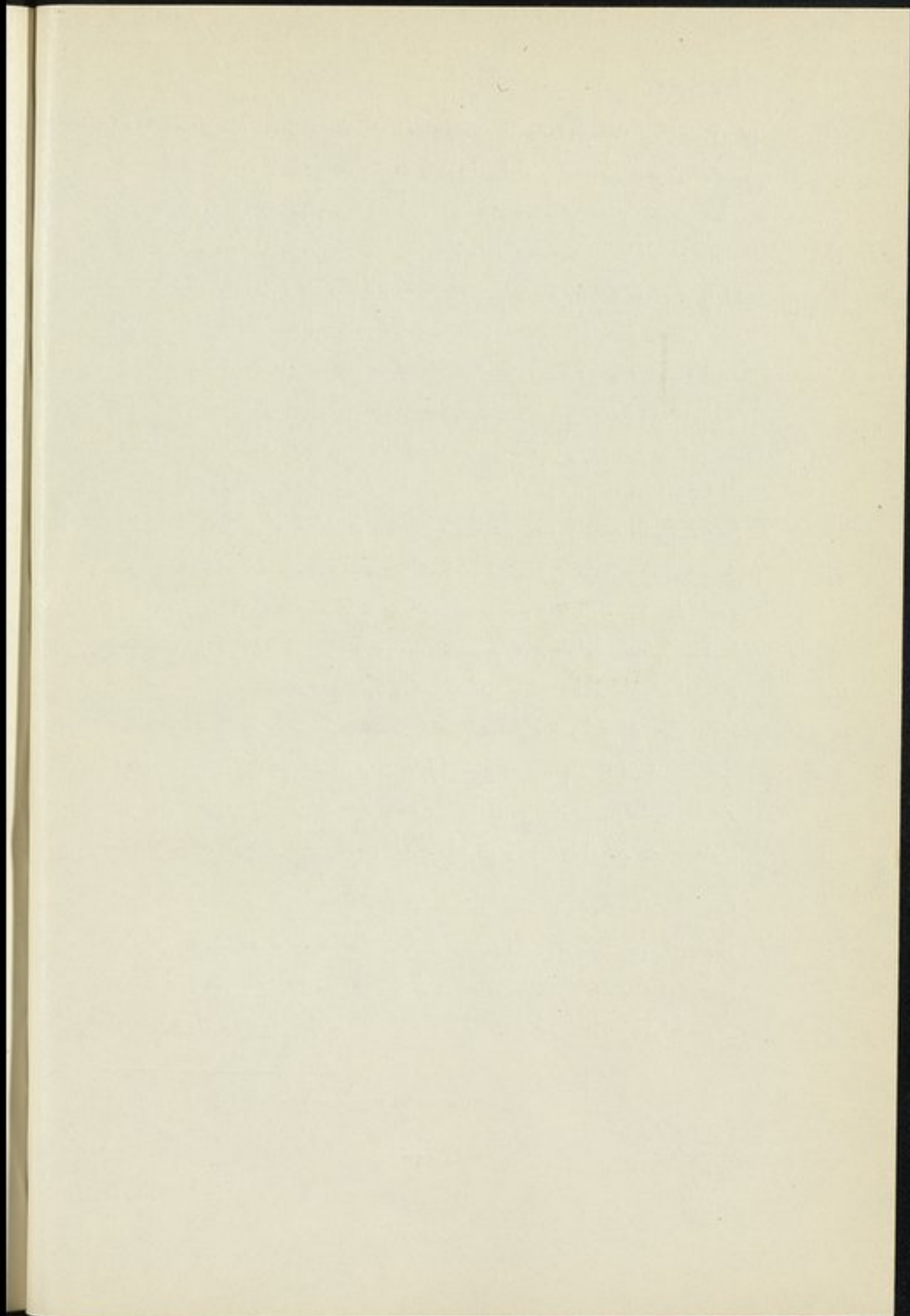
(٢) الدروز - ابو اسمايل ص ١٩٣ .

(٣) بنو معروف في حوران - التجار ص ٧١ .

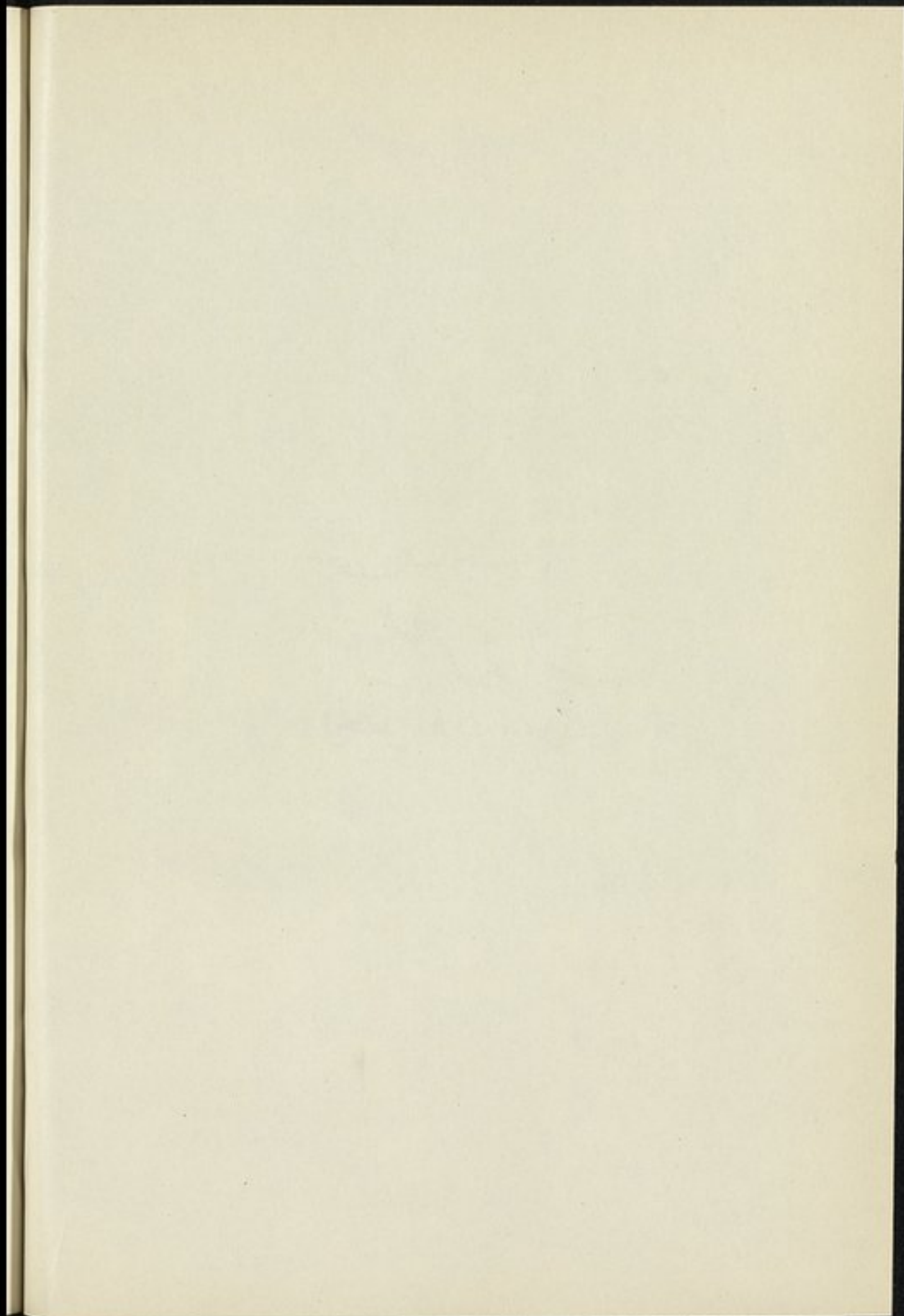
خيفة فجمع لديه الامراء ابناء اعمامه ووجوه عشيرته والعقلاء فيها وشاورهم في الرحيل من حوران فوافقوه ، فانتزحوا الى الجسر اليعقوبي يبغون الذهب الى الديار المصرية وكنوا عشرة امراء .. وبلغت عشائرهم خمسة عشر ألفاً . ولما علم نور الدين انهم راحلون ارسل يلاطفهم ومنحهم المنح (١) ، ثم نزلوا وادي التيم في لبنان وحاربوا الافرنج . ويبدو ان كثيرا من القرى والقصور التي كانت عامرة مزدهرة في جبل العرب عهد الانباط والرومان و صدر الاسلام قد افقرت من السكان وجفت فيها الحضارة والعمران بين القرنين العاشر والتاسع عشر حيث لم يتجاوز عدد سكان الجبل عشرة آلاف نسمة حسب تقدير الاستاذ محمد كرد علي ، وتقدير الرحالة جون لويس بر كهاردت الذي زاره عام ١٨١٠ م . ولو رحنا نتساءل عن الاسباب الحقيقية المؤدية الى ذلك لما استطعنا ان نعرفها بدقة ، فهل اصبحت هذه المنطقة بسنوات قحط متوالية ادت الى مغادرة قسم من السكان القرى التي كانوا يعيشون فيها على الزراعة ؟ ربما كان هذا صحيحاً ، ولكننا نرجح ان يكون تسلط البدو وهجرتهم على هذه القرى القريبة من حدود الصحراء في فترات الفوضى السياسية من العوامل الاساسية لنزوح السكان نحو الداخل حيث الحياة الحضرية الآمنة . هذا وقد ذكر الرحالة بر كهاردت ان بعض الأهلين تركوا قرانم تحت وطأة الهجوم الوهابي على اطراف حوران والجبل سنة ١٨١١ م . كما ان صاحب كتاب ذخائر لبنان اشار الى هذا الهجوم الوهابي على حوران بقيادة الامير عبد الله بن مسعود الوهابي التيمي الامر الذي يؤيد هذا الرأي ويرجحه .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت السويداء احدى الاقضية الستة التي كانت تابعة لمتصرفية مركزها المزيريب وتشمل يومذاك حوران وجبل العرب وجزءاً كبيراً من شرق الاردن ، وسيمربنا في الابحاث القادمة بعض التفاصيل عن اوضاع جبل العرب منذ ان حكم الاتراك العثمانيون حتى الوقت الحاضر .

(١) ذخائر لبنان - الأسود ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .



متى هاجر
بنو معروف
الى جبل العرب... ولماذا ؟



في القرن السابع عشر للميلاد كان يسكن في قرى الجبل الغربية المجاورة
لحوران عدد قليل من سكانه الاصليين المسيحيين الذين اعتمدوا في معاشهم على
الزراعة البدائية وتربية المواشي ، وعاشوا حياة حافلة بالفقر والقلق والاضطراب
بسبب الغزوات والتعديات المتكررة من القبائل البدوية الضاربة في بقية انحاء
الجبل ، حيث كانت قبيلة الفواعرة تبسط نفوذها على المنطقة الغربية حتى حدود
اللباه ، وقبيلة الجوايرة اتخذت منطقة اللباه موطناً لها ومرعى لمواشيها . وقبيلة
الشنابلة تقيم في المنطقة الوسطى من الجبل ، وقبيلة الحسن تمد نفوذها على المنطقة
الواقعة شمال شهابا ، بالاضافة الى القبائل الاخرى مثل عنزة التي كانت تتخذ من
جنوب جبل العرب مرحلة تمريرها اثناء ذهابها الى الحماد شتاء وعودتها منه ربيعاً (١) .

في عام ١٦٨٥ هاجر من لبنان الى الجبل مئتا رجل مع عيالهم بقيادة
احد الامراء المعنيين (وفي رواية اخرى من آل علم الدين) هربا من جور
الحكام الاتراك ومن ظلم الامراء الشهابيين زعماء القيسية . وظل هذا الامير
يحكم جماعته مدة ثلاثين عاما في قرية نجران (شمال غرب السويداء) التي حل
بها ، وعندما رغب في العودة الى لبنان استدعى احد الامراء الحمدانيين ليقوم
مقامه في حكم عشيرته وتمكن رئيسهم حمدان الحمدان الذي اتخذ لنفسه مقراً
في نجران من فرض احترامه وهيئته على الدرروز (٢) ولكن الشيء الذي يتفق
عليه المؤرخون هو ان عدداً كبيراً من بني معروف هاجر من لبنان الى جبل
العرب على اثر موقعة عين دارا الشهيرة التي تغلب فيها القيسيون على اليمينيين عام

(١) جبل الدرروز في العهد العثماني - الرغبي ص ٣٢ .

(٢) هجرة الدرروز الى الجبل - الجهم ص ٩ .

١٧١١ م . ونزل المهاجرون ضيوفا على اخوانهم في الجبل ثم مالبتوا ان ينتشروا في القرى الشمالية منه بعد صراع دام سنوات مع البدو . وعقب هذه المعركة لم تنقطع الهجرة من لبنان الى الجبل . وفي مطلع القرن التاسع عشر هاجر اليه عدد كبير من الذين كانوا يقطنون منطقة الجبل الاعلى غرب حلب وذلك على اثر فتنة نشبت بينهم وبين السكان الآخرين في هذه المنطقة كما هاجر اليه عدد من دروز فلسطين هربا من جور الحكام وخاصة في عهد احمد باشا الجزائر . ويقول المستشرق جون لويس بر كهاردت الذي مر في قرية عري بتاريخ ٢٦ نيسان عام ١٨١١ « وفي اثناء اقامتي في عري وصلت الاخبار الى هناك ان جماعة مؤلفة من مئة وعشرين درزيا قد تركوا الجبال الدرزية وجاؤوا يستقرون في حوران^(١) » . ويبدو ان هجرة بني معروف من لبنان الى حوران استمرت طوال حكم الامير بشير الشهابي الذي قا مهم وقسا عليهم . ولكنها اشتدت اثناء حكم ابراهيم باشا في سورية حيث فرض السخرة والضرائب الجديدة والجنديّة الاجبارية ، واراد جمع السلاح ، وتعاون مع خصمهم الامير بشير ، حتى اذا ما خرج ابراهيم باشا من سورية نشطت الدولة العثمانية والدول الاوربية الاستعمارية في تغذية الخلافات الطائفية واثارتها ، واصبحت المنازعات الطائفية بين عامي ١٨٤٢ - ١٨٦٠ طاغية على المنازعات الاقطاعية والقبلية ، وبلغت ذروتها في حوادث الستين المشؤومة بين المسيحيين والمسلمين من دروز سنة . وكان من نتيجتها ان « هاجر نحو ثلاثة آلاف رجل الى حوران حاملين معهم ما غلا قيمة وخف محملا . فمروا بمجدل شمس ونحروا منها خائضين السهل الحوراني حتى اجتازوا اللجاء وبلغوا جبل الدروز^(٢) » . ثم عاد عدد قليل من هؤلاء بعد ان هدأت الاحوال « ويمكن القول ان هذه الموجة من المهاجرين اي موجة ١٨٦٠ م هي التي عمرت المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية من الجبل

(١) جبل حوران في القرن التاسع عشر - تعريب عبيد ص ٦٥ .

(٢) الحركات في لبنان - ابو شقرا ص ٦٣ .

لأنها رات ان تستقل في سكنها(١) ، وهكذا لم ينته القرن التاسع عشر حتى تجاوز سكان الجبل ٢٥ ألفاً بينما لم يتجاوز عدد المسيحيين فيه خمسة آلاف حسب بعض التقديرات في حين ان الرحالة بر كهاردت قدر سكان الجبل في مطلع هذا القرن اي عام ١٨١٠ م بعشرة آلاف نسمة بينهم حوالي ثلاثة آلاف مسيحي (٢) . ولنذكر اخيراً ان عدداً غير قليل من بني معروف هاجر من لبنان الى جبل حوران قبيل الحرب العالمية الاولى واثناءها ثم عاد بعضهم الى لبنان بعد الحرب في حين استقر فيه بعضهم الآخر .

ولو تساءلنا الآن عن الاسباب الاساسية للهجرات المذكورة لامكنا ان نجملها فيما يلي :

١ - العصبية القبلية كالقبسية واليمينية التي سبق لها الظهور بوضوح في معركة مرج راهط عام ٦٤ هـ في عهد مروان بن الحكم رابع خلفاء بني امية . واستمرت الى يومنا هذا حيث لا تزال نعاني من آثارها الوخيمة الشيء الكثير في المدن والارياق على وجه الخصوص .

٢ - الاضطهاد الديني والمنازعات الدينية التي غذاها الاتراك العثمانيون والدول الاستعمارية وادت الى هجرة بني معروف من المناطق السهلية في جهات حلب وانطاكية ودمشق وغوطتها الى جبل لبنان وجبل حوران .

٣ - فداحة الضرائب وظلم الحكام كموقف الامير بشير من خصومه حيث كان يقسو عليهم ويهدم بيوتهم وخاصة بيوت جماعة الشيخ بشير جنبلاط ومساكنهم في معظم البلاد والقرى وقطع مغروسات اراضيهم واودع كثيراً منهم السجن وحملهم على الاغلال والقيود الى غير ذلك من انواع العذاب والظلم والاستبداد التي الجأت جانباً عظيماً من دروز لبنان الى المهجرة

(١) الحركات في لبنان - ابو شقراس ٦٣ .

(٢) جبل حوران في القرن التاسع عشر - بر كهاردت وتعريب عبيد ص ٤٤ .

الى جبل حوران^(١) ، حيث توجد « الحربة المطلقة وجودة الهواء والمساكن
الرحبة في قرارة القديمة المهجورة تحيط بها الارض الواسعة الكثيرة الخصب^(٢) ،
وبما تجدر الاشارة اليه ان بني معروف الذين هاجروا الى الجبل لم يجدوا مقاومة
من سكانه المسيحيين بل من البدو الذين راحوا يشنون عليهم الغزوات المتلاحقة
ويريدون اخراجهم من منطقة يعتبرونها لهم ولمواشيهم ولكن بني معروف
استطاعوا بشجاعتهم ان يثبتوا اقدامهم في هذه المنطقة وان يتوسعوا فيها ،
وخاصة بعد ان توصلوا الى التحالف مع قبيلة الجواربة الضاربة اطنابها في اللجاء ،
ثم مع قبيلة الشنابلة جنوب شرق السويداء . وربما كانت الحياة القبلية التي
عاشها آل معروف والحروب الكثيرة التي خاضوها ضد خصومهم ، من العوامل
الاساسية التي ادت الى ظهور زعامة شديدة النفوذ بينهم ، تضمن لهم التماسك
والتعاون الفعال ، كزعامة آل الحمدان . وسكنوا اول الامر في قرى متجاورة
ليتمكنوا من الدفاع عن وجودهم ، فكانوا والحالة هذه يعتبرون الشجاعة
والعبر والحذر افضل ما يتحلى به الرجل ، ولم يكن سلاحهم يفارقهم طرفة
عين حيث لا توجد قوى أمن تحميهم وتدافع عنهم . وفي هذا يقول الشاعر
الشعبي شبلي الاطرش :

عالمين سيفك لا يفارق وسادتك	خليك فرز من الرجال حريص
ترى عدوك ما يخلي عداوته	بالليل بسري وبالنهاري نيس
القاف قلنا الصبر يشفي من العليل	هبونا كما تصبر سوادي العيس ^(٣)

وهكذا لم يمض طويلا وقت حتى سيطر بنو معروف على الجبل
وصاروا يأخذون الاتاة من البدو ، وذلك بدليل ما ذكره الرحالة « بورتر »

(١) الحركات في لبنان - ابو شقراس ١٥ .

(٢) ابراهيم باشا في سورية - سليمان ابو عز الدين ص ١٩٥ .

(٣) ديوان شبلي الاطرش - ص ٥٠ - ٥١ .

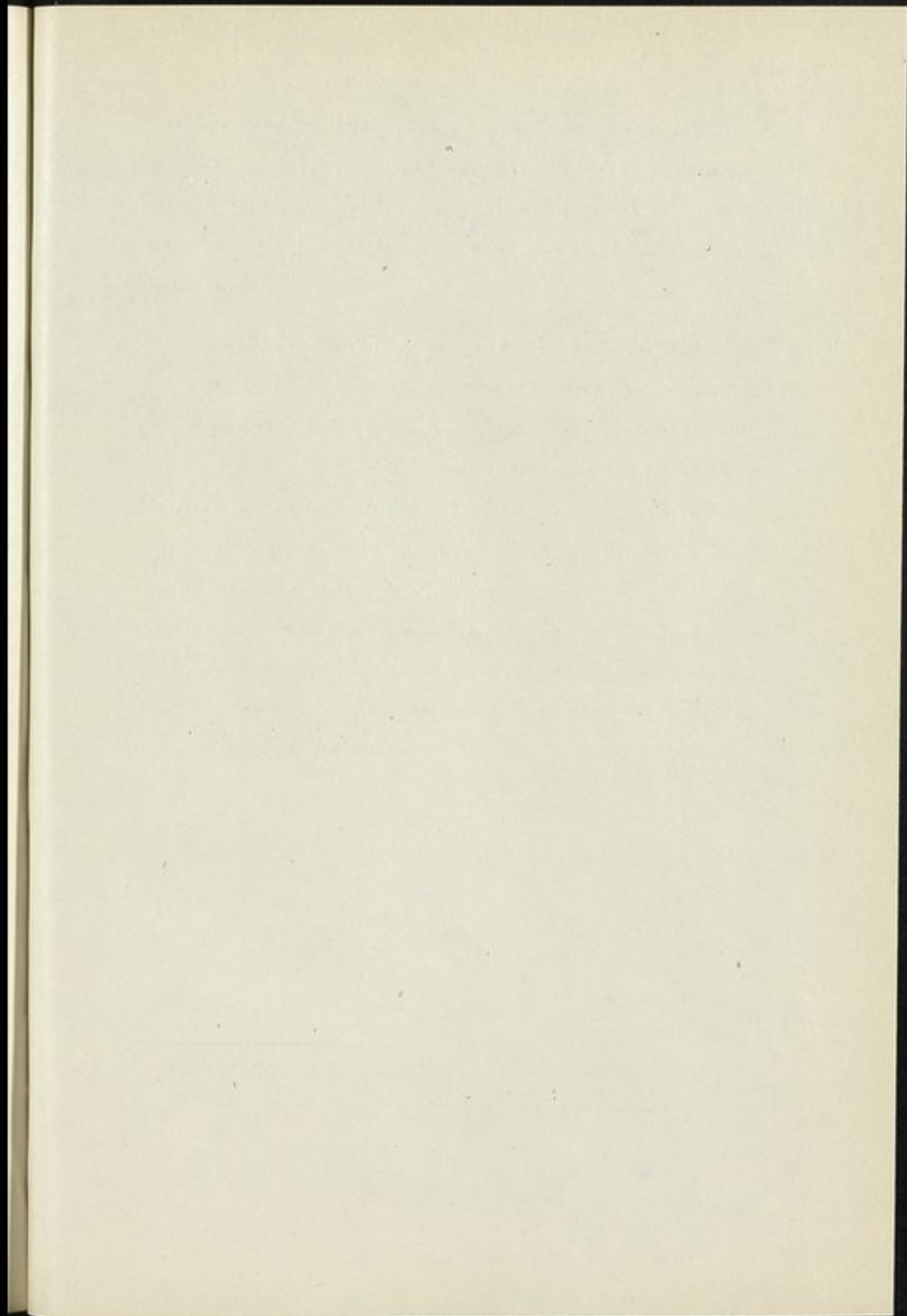
الفرز : الرجل الحر النبيه - ينيس : يخني ويهرب - العيس : الابل .

في مقابلة له مع الشيخ اسماعيل الاطرش عندما سأله عن العلاقات بينه وبين البدو الذين ينزلون في منطقته اثناء الربيع والحريف ، فأكد بأن التعدييات قليلة الوقوع وقال « ان كل قرى السهل تدفع اناوة ، الا الدروز فانهم هم الذين يأخذونها من البدو مقابل السماح لهم بسقاية مواشيهم من ينابيع القرى وخزاناتها(١) » .

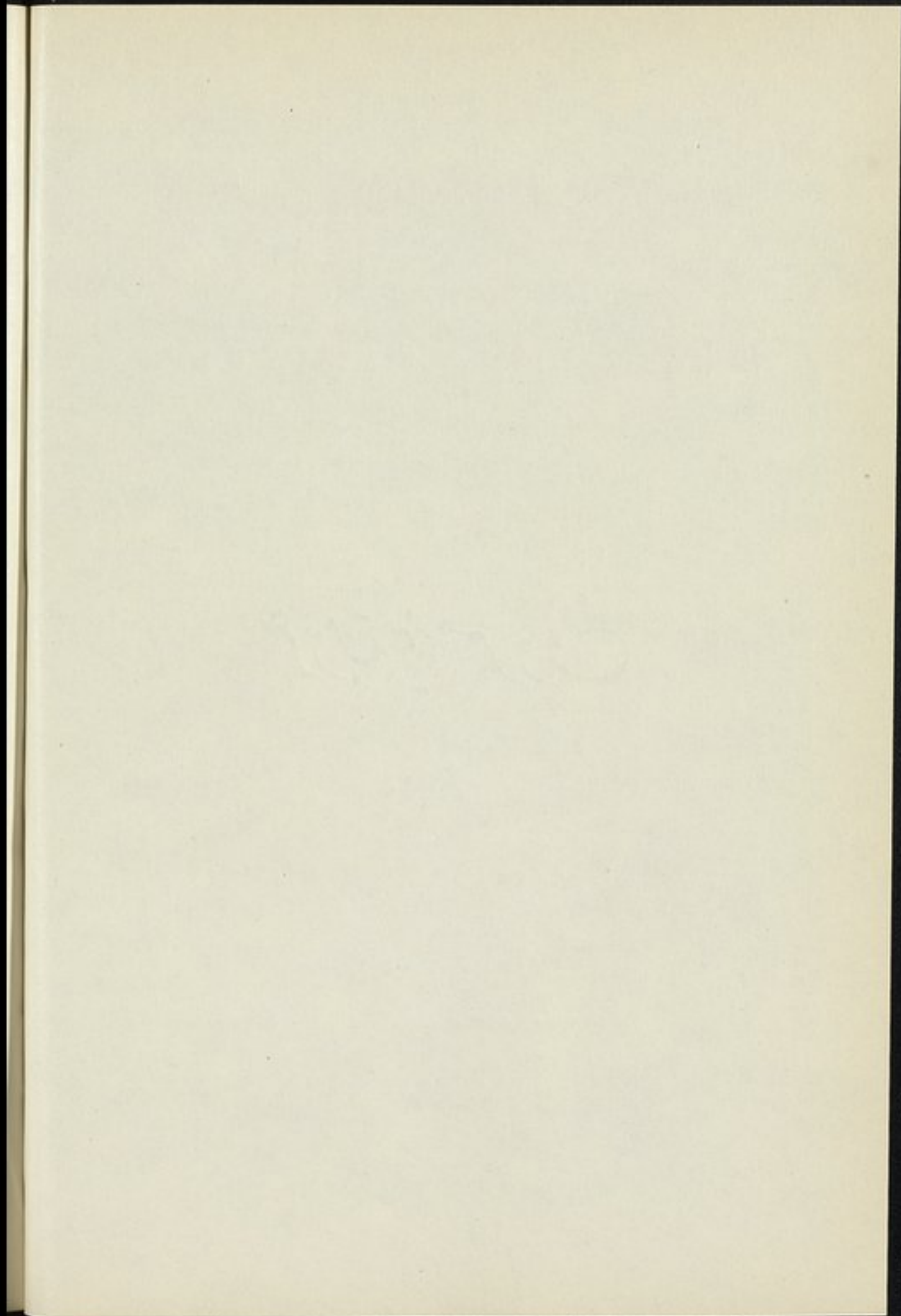
وعندما شعر البدو ان بني معروف في الجبل اصبحوا من القوة والسطوة بحيث لم يعد من الممكن زحزحتهم عنه ، عمدوا الى التعاون معهم والتودد اليهم ، وهذا ما يؤكد لنا الرحالة بر كهاردت الذي زار الجبل عام ١٨١٠ م فقال : « عندما كنت في عري اتيح لي أن اشهد حادثاً يدل على حسن التفاهم بين الدروز وعرب السردية ، وقد اشرت الى ان هؤلاء البدو كانوا في حالة حرب مع الباشا (العثماني) في الفترة التي زرت فيها حوران . فقد رأيت في احدى السهرات بعض البدو يلوذون بمجوش الشيخ (من آل حمدان) فسألت عنهم من يكونون ، فاجبت بانهم من عرب السردية جاؤوا يستنشقون الاخبار عما اذا كان سيوجه عليهم قوات عسكرية جديدة من دمشق(٢) . ومن هذا يتبين لنا ان العداء بين البدو وبني معروف في المرحلة الاولى من سكنى الجبل لم يكن طائفياً بل قليلاً واقتصادياً .

(١) جبل الدروز في العهد العثماني - زغي ص ٤٤ .

(٢) جبل حوران في القرن التاسع عشر - بر كهاردت وامريب عبيد ص ٦٦ .



عروبة بني معروف



بعد ان ذكرنا تاريخ نزوح بني معروف الى جبل العرب ، و كيف
استوطنوا فيه ، قد يخطر على بال القارئ ان يتساءل : لماذا اطلق عليهم اسماء
بني معروف والدروز والموحدين ؟

ان اطلاق لقب بني معروف على الدروز ربما يرجع الى انهم يكثرون
من عمل المعروف ، أو لأن أحد اجدادهم اسمه معروف كما يروي بعض العارفين
ولعله احد اجداد الارسلانيين التنوخيين ، ويقول الاستاذ محمد كرد علي
« اطلقت كلمة بني معروف على الدروز تحبباً وتعني انهم اشتهروا بعمل
المعروف » . هذا وكان اليمينيون الدروز ينتخون بقولهم « بالمعروف » بينما
اتخذ القيسيون شعاراً لهم « البار » وتعني هذه الكلمة الله تعالى . اما تسمية
الدروز فقد اطلقت على اتباع محمد بن اسماعيل المجوسي الباطني المشهور بنشتكين
الدرزي .. فقتله الموحدون (الدروز) عام ٤١١ هـ ورغم ذلك فقد اطلق
عليهم الجهال كنيته تشفياً منهم أو جهلاً بحقيقتهم (١) . اما السيد سليم ابو
اسماعيل فانه ينفي نسبة الدروز الى محمد بن اسماعيل الداعي الفاطمي المعروف
بنشتكين الدرزي ، ويرى ان نسبة الدروز أو تسميتهم بهذا الاسم هي تسمية
عسكرية وليست مذهبية دينية وذلك « لمحاربتهم تحت راية الامير اتوجور
ابي منصور المعروف باسم انوشتكين الدرزي المنسوب الى طراز خراسان
ربيب الحاكم وأسير الظاهر وقائد المستنصر وفتح الشام وقاهر المرداسيين
ومدوخ الروم (وهذا غير نشتكين الدرزي الآنف الذكر) - وعلى مقام
شعيب القائم في الاقحوانة ما بين طبريا وحطين عقدت المواثيق وتليت الاقسام

(١) الدروز : ظاهرم وباطنهم - محمد علي الزعي س ١٠ .

وعرفت الدرزية بأخوة سلاح^(١) . ويرى بعضهم ان الدروز سموا كذلك لانهم اندرزوا اي اندرجوا تحت تعاليم المذهب الفاطمي ودخلوا فيه ، ويقال أيضاً من كلمة درسي أي درس كتب حمزة بن علي المتعلقة بالمذهب . أما بالنسبة للقب الموحدين فيقول بعضهم « دعوا انفسهم موحدين لاعتقادهم ان الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ، ليس له بداية تعرف ولا نهاية توصف^(٢) » .

أما عروبة بني معروف فهي عريقة أصيلة تؤكدها أصولهم وعاداتهم العربية ثم نضالهم الطويل في سبيل العروبة . وهذا ما سنوضحه فيما يلي :

١ - من المعروف ان العائلات الدرزية تهتم بانسابها وأصولها . وان كثيراً منها يحتفظ بشجرة نسبه كما تفعل العائلات العربية العريقة ويفتخر بعض من بني معروف بانهم من أحفاد المناذرة كما يفخرون بمعركة ذي قار الشهيرة التي جرت بين العرب والفرس عام ٦١٣ م على أثر اختلاف النعمان مع كسرى ملك الفرس ، ويروي الكثيرون منهم ومن الذين يهتمون بالانساب انهم أتوا من اليمن ثم نزحوا الى العراق وانتقلوا الى شمال سورية واقاموا حول حلب واذاب والمرة وانطاكية ثم هاجر قسم منهم الى لبنان وفلسطين . ولو ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر تاريخ بعض عائلات بني معروف لتبين لنا بما لا يقبل الشك انهم عرب صراح . فقد ورد في دائرة معارف البستاني^(٣) ان التنوخين وعشيرتهم حضروا الى العراق والجزيرة والمرة الداخلية . . وفي صدر الاسلام جاء بعض الصحابة لفتوح الشام ، فأتى بعض التنوخين وعشيرتهم لنصرتهم . وفي سنة ٢٠٥ هـ قدموا بيروت وهم اول المجاهدين في فتوح بر الشام ، واقاموا شعائر الهدى وملكوا جبل بيروت (لبنان) وطردوا سكانه واقاموا به ، وانتسبت هذه الطائفة الى الملوك الفاطميين في مصر واصبحوا اعز رجالهم ولما ولي الحاكم عليهم الدرزي نسبوا اليه مع انهم يرفضون عقائده وقتله احد اكبرهم^(٤) .

(١) الدرروز - سليم ابو اسماعيل ص ٦٣ ، ٦٥ .

(٢) بنو معروف - الصغير ص ٢٣٦ .

(٣) دائرة معارف البستاني ص ٧٥ ، ٦٧١ .

وجاء في تاريخ فخر الدين المعني لاسكندر معلوف « اما التنوخيون في لبنان فقد مالوا والحلفاء العباسيين .. وكانوا اول قبيلة عربية تدبرت هذه الجهات وحكمت فيها وصدت غارات الروم ومنهم الامراء الارسلانيون والبحثريون وآل علم الدين ممن قبلوا الدعوة الدرزية » وكان لهم شأن في الحروب الصليبية ، فصلها كثير من المؤرخين ومن جملتهم صالح بن يحيى في كتابه « تاريخ بيروت واخبار الامراء البعثريين » وابن سباط من عاليه في تاريخه المخطوط الموجود في خزانة اسكندر معلوف المتصلة بمخزاة الجامعة الاميركية ببيروت . هذا ويفتخر الارسلانيون بانهم تنوخيون وآباء بني معروف جاءوا الى الشام مع ابي عبيدة الجراح .

ويرى الاستاذ محمد كرد علي « ان الدروز لم يفقدوا اصولهم العربية التي من شأنها الشم والاباء (١) » بينما يقول الاستاذ مارون عبود :

بمشي الدم العربي في اعراقهم صرفاً صراحاً والدليل المنطق

ولو اردنا استقصاء تاريخ عائلات بني معروف وتبع انسابها لاستطعنا ان نثبت ان اكثريتها الساحقة ترجع الى اصل عربي عريق (٢) ، وان بعضها ربما يعود الى اصل كردي ، كعائلة آل جنبلاط ، ولكنها تعربت مع مرور الزمن كما تعربت مثلاً العائلة الابوية التي ينتسب اليها صلاح الدين الايوبي البطل الذي طرد الصليبيين الاجانب من الوطن العربي وعزز بذلك شأن الامة العربية .

٢ - ثم ان تاريخ بني معروف الحافل بالانقسامات والمنازعات القبلية على اساس القيسية واليمينية ، ولهجتهم التي هي اقرب اللهجات العربية الى

(١) خطط الشام - ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) من اراد المزيد من الاطلاع على انساب بني معروف يمكنه الرجوع الى كتاب « الدروز » تأليف سليم ابو اسماعيل - طبع لبنان . وكتب ذخائر لبنان - تأليف عز نلو ابراهيم بك الاسود - المطبعة العثمانية - بعد ١٨٩٦ .

الفصحى ، ونضالهم العربي ثم تمسكهم الشديد بالتقاليد والعادات العربية ، كل هذه الوقائع الحية دليل على اصالة عروبتهم وعراقتها . وما دام واقعهم الحي الراهن هو هذا فلم يعد من الضروري ان نتوقف عند حدود النسب والحسب ، ولا يمكننا القول انهم تعربوا كما تعرب اسماعيل عليه السلام ، على ما تقول كتب التاريخ العربية ، وهو الذي تحدت فيه اعرق السلالات العربية واكثرها خدمة للعرب كقبيلة قريش التي ينتسب إليها بطل العروبة والاسلام محمد بن عبد الله .

ومن ذا الذي يستطيع ان يفرق اليوم بين العربي الدرزي او السني او المسيحي او الاسماعيلي من حيث اللغة والصفات والعادات العربية ، اما اذا وجدت الاختلافات المذهبية عند العرب واذا كانت هنالك فروق ومميزات لكل فرد تعطيه هويته ولونه الخاص به المميز له عن غيره من الافراد ، فليس من المنطق ولا من العلم في شيء ان تتخذ هذه الاختلافات المذهبية والمميزات الفردية دليلا على التمييز العرقي والاختلاف القومي ، ذلك لأن هذه الاختلافات والمميزات لا تنفرد بها الامة العربية بل تراها عند جميع الامم والشعوب وفي كل زمان ومكان .

٣ - ولعل المواقف والاعمال التي تقوم بها الاقوام والجماعات هي التي تعطى الطابع المميز لها ، وتشير الى حقيقتها ، كما ان النضال العملي من اجل فكرة معينة ، هو خير مفصح واقوى معبر عن الايمان بهذه الفكرة والاخلاص لها . وبلاستناد الى هذه الملاحظة لا بأس من الاشارة الى شيء مما ذكره بعض الكتاب والمؤرخين عن مواقف بسني معروف ونضالهم في سبيل العروبة :

آ - وبالنسبة لمقاومتهم الصليبيين يقول الاستاذ محمد كرد علي « اثبت الدروز عن شدة بأس وكثرة مضاء في مقاتلتهم الصليبيين في هذه الديار ، فكان قتالهم لهم اشد من مناجزة بعض الطوائف الاسلامية من سكان ارجاء

الساحل لهم» (١). وجاء في الغرر الحسان « لما سمعت الافرنج بنزول آل شهاب في وادي التيم (بعد مجيئهم من جبل حوران ١١٧٢ م) جمعوا عساكرهم من صيدا وصور وعكا الى حاصبيا وقدمت آل شهاب الى قتالهم .. وتعاركوا عراك الابل ، واول من قدم الى المعركة الامير منقذوا اولاده واخوته وبنو عمه .. وقد قتل من الافرنج نحو ثلاثة آلاف نفس ثم افترقا عن القتال . وعند الصباح رجعوا الى الحرب والكفاح ، وتضاربوا بالسيوف والرماح ، ولم يكن الا القليل حتى فرت الافرنج من تلك الأرض وتحصنوا في الجبال وترجلت آل شهاب واقتحموا تلك الصخور فازاحوا الافرنج من تلك الديار وحاصروا الباقين في قلعة حاصبيا» (٢) وبصورة عامة يمكن القول ان الشهابيين « اعانوا صلاح الدين كثيرا على الافرنج وكان يوليهم طليعة جيوشه » (٣).

ب - اما بالنسبة للاتراك العثمانيين الذين بلامهم العرب وابتلوا بهم مدة اربعة قرون ، فقد حاربهم بنو معروف كثيراً ، وسنفضل فيما بعد ، حروبهم ضد الدولة العثمانية في جبل العرب ، اما حروبهم لها في الشام فيروي محمد كرد علي كيف تحصن جيش باشا دمشق وحلفاؤه في المزة لصد الهجوم الذي قام به الدروز بقيادة الامير بشير في ١٤ أيار سنة ١٨٢١ م وكيف تمكن هؤلاء من نغر سور القرية ودخولها بعد معركة حامية استعمل فيها المحصورون المدافع ، وفرت عساكر الوالي درويش باشا .. وغنم الدروز وحلفاؤهم « خياماً وذخائر وخيلاً وسلاحاً .. ومضت عدة أيام وفي نهر بردى تطفو الغرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم ١٢٠٠ رجلاً بين قتيل وجريح» (٤) .

ج - وفي لبنان يقول الدكتور عمر فروخ « لا يستطيع أحد أن

(١) خطط الشام - محمد كرد علي ج ٣ ص ١٠٤ .

(٢) الغرر الحسان ج ١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٣) ذخائر لبنان - ابراهيم الاسود - ص ٢٤٤ .

(٤) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٣ ص ٣٦ .

ينكر ان التاريخ على الشاطئ الشرقي من البحر الابيض المتوسط في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان يدور في لبنان وأن تاريخ لبنان في ذينك القرنين كان تاريخ الدروز ثم انهم لم يتركوا مسرح التاريخ لا في القرن التاسع عشر ولا في القرن العشرين (١) .

د - وعندما ورث الاستعمار الغربي تركه « الرجل المريض » تركيا واصبحت سورية تحت النفوذ الفرنسي بموجب مؤامرة سايكس - بيكو الاستعمارية التي عقدت سرّاً بين فرنسا وانكلترا ، مالبث بني معروف ان شعروا بظلم الفرنسيين وهبوا للثورة ضدّهم عام ١٩٢٥ م بقيادة القائد العام للثورة السورية الكبرى سلطان الاطرش .

واستمرت الثورة سنتين فقد فيها بنو معروف آلاف الضحايا، وانتصروا في معارك عديدة ، وأظهروا بطولات عربية أعادت الى النفوس الثقة والايان بقدرة الشعب على التضحية والنضال في سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ، وسنأتي على ذكر هذه الثورة بالتفصيل فيما بعد ، وعلى الرغم من ان الفرنسيين سعوا لاسترضائهم بتشكيل دولة خاصة بهم في الجبل ، وأرادوا ان يغذوا فيهم روح الانفصال والطائفية ، فانهم أدركوا هذه المقاصد الاستعمارية وعملوا على إحباطها ونادوا بالوحدة بين الدويلات المصطنعة التي أقامها الاستعمار الفرنسي في سورية ، ثم يتابع الوعي القومي طريقه الطبيعي في النمو والاتساع حتى أصبح شعار الوحدة العربية والتحرر طاغياً بين أبناء جبل العرب ، هذا وسيتضح الجانب النضالي لبني معروف اكثر من ذلك عند الكلام عن الثورة العربية والثورة السورية الكبرى ، وعن اعمالهم ومواقفهم في العهد الوطني . كما ستتضح كذلك تقاليدهم وعاداتهم العريقة في العروبة عند الكلام عن الحياة الاجتماعية .

(١) عن « بني معروف » - الصغير ص ٦٩ .

هـ - ولم يقتصر نضال بني معروف في سبيل العروبة على الميدان الحربي بل تعداه الى ميادين السياسة والفكر ، ففي مؤتمر جنيف مثلا المنعقد عام ١٩٢١ م للمطالبة باستقلال سورية وفلسطين والغاء الانتداب ووعده بلفور اشترك فيه منهم الامير شكيب ارسلان وطعان عمار ونجيب شقير ...

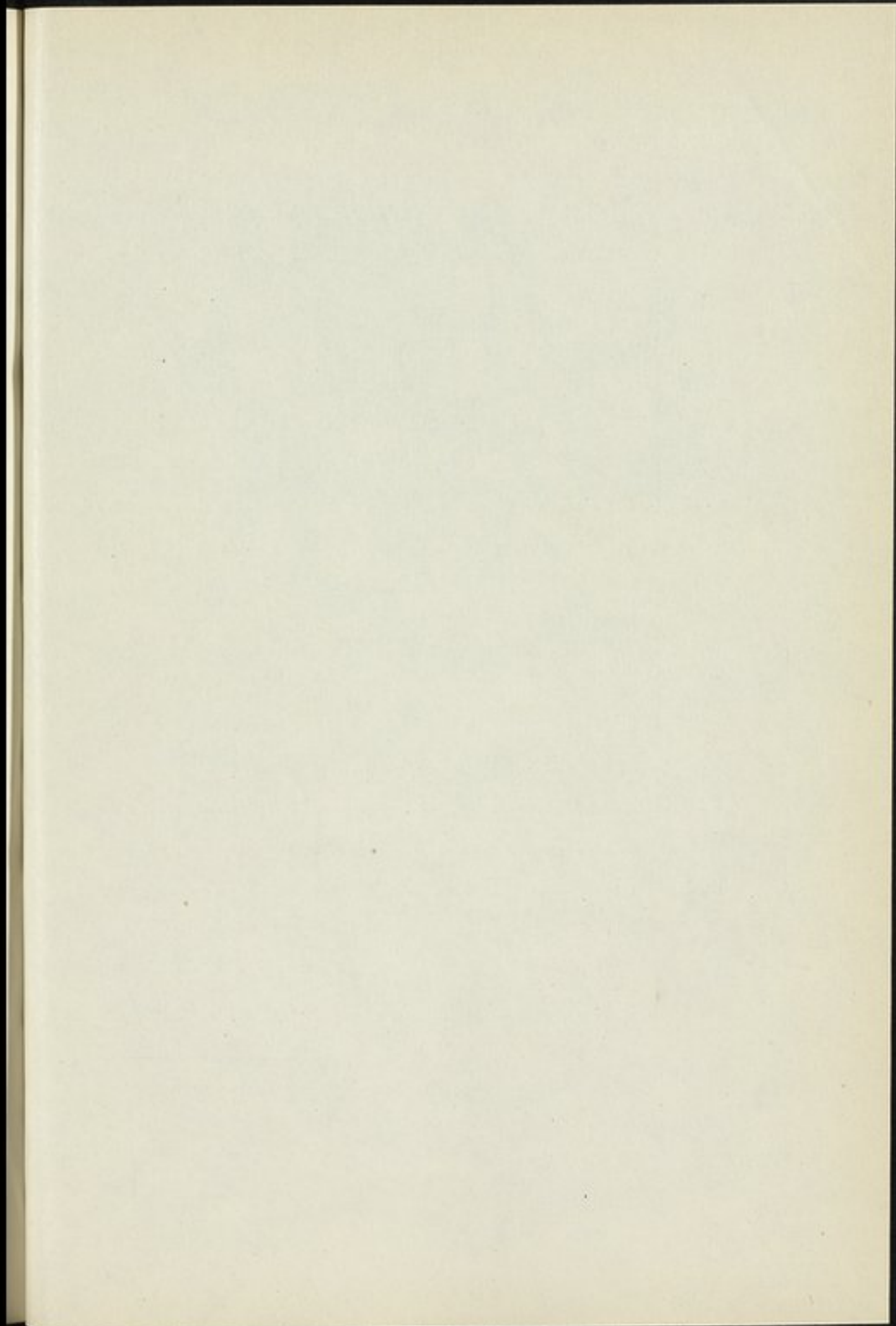
وكان عدد غير قليل منهم قد انتسب الى المنظمات الوطنية قبل الحرب العالمية الاولى كجمعية العهد والعربية الفتاة .. وقد ترك عادل ارسلان وعارف النكددي وفريد زين الدين وفؤاد حمزة ، وعلي ناصر الدين وغيرهم آثارا فكرية وسياسية قيمة . اما الامير شكيب ارسلان الذي كانت حياته الطويلة حافلة بالكفاح من اجل العروبة فقد قالت عنه مجلة المصور القاهرية « كانت للامير الفقيه جولات صادقة في السياسة والادب والشعر والتاريخ والتنقيب والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والنقد والترجمة والتصنيف والشرح والتفسير ، ولما نجد له مثيلا بين نوابغ العرب قديماً وحديثاً » .

وقال احد الكتاب الفرنسيين روبرت مونتائين في كتابه عن الوحدة العربية « منذ ١٩٢٠ وشيية افريقيا الشمالية عظيمة الشغف بكل ما يقوله ويكتبه الامير شكيب ارسلان الذي يلقبونه في الاوساط الوطنية برسول العروبة (١) » .

من كل ما تقدم نستطيع القول مع الدكتور فيليب حتي ان بني معروف « اظهروا في جميع مراحل تاريخهم عزيمة حربية بالاعجاب ، وكان لهم في الشؤون القومية العامة في لبنان وسورية النفوذ ما يفوق نسبتهم العددية (٢) » . وبعد : فما دامت هذه اعمال بني معروف ، وهذا تاريخهم الحافل بالنضال من اجل الحرية والقضية العربية ، فلم يعد ثمة مجال للمنطق المجرد والاستنتاجات المغرضة اذا وجدت ، لأن الوقائع الحية تبقى درماً اقوى من كل منطق مجرد بالغاً ما بلغ هذا المنطق من القوة والوضوح .

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ج ٢ الدكتور حتي ص ٢١٩ .

(٢) كتاب الوحدة العربية - مونتائين ص ٤٠ .



جبل العرب
في عهد العثمانيين

Handwritten text, possibly bleed-through from the reverse side of the page. The text is faint and illegible.

عندما استقر بنو معروف في جبل العرب وثبتوا اقدامهم فيه بالقوة ،
اعترفت لهم الدولة العثمانية ببعض الامتيازات كحمل السلاح والاعفاء من الخدمة
الاجبارية ، فراحوا يمارسون حياة مستقلة بعيدة على الاغلب ، عن ضغط
الحكام العثمانيين وظلمهم ، واصبح الجبل ملجأ يقصده كل من لا يطيق اذى
الحكام . وفي ذلك يقول الشاعر الشعبي شبلي الاطرش :

يالقو حوران عزوا وانفخوا يرتاح مطلوب الملوك ان جاءه^(١)

ولكن ابراهيم باشا المصري والحكام العثمانيين ارادوا إخضاع هذه
المنطقة ، ومنع المتمردين من اللجوء اليها والاحتفاء بها ، فوَقعت بسبب ذلك
حروب كثيرة نجملها فيما يلي :

آ - الثورة على ابراهيم باشا

حينما احتل ابراهيم باشا سورية وافق اول الامر على اعفاء سكان الجبل
من الخدمة العسكرية وابقاء اسلحتهم بأيديهم وتخفيف الضرائب عنهم والامتناع
عن بناء الحصون في جبلهم ، ولكنه اراد فيما بعد ان يبسط نفوذه عليه ليمنع
من اللجوء اليه كل متمرّد على أوامره او ناقم على حكمه او هارب من ضريبة
فادحة او فار من جندي اجبارية ، ولذلك بنى خطته على ان يجبي الاسلحة منهم
اولا ثم يعمد لبناء الابراج المحصنة قرب الينابيع الرئيسية المجاورة للجاه ويطلب
بالتالي تقديم المجندين منهم فاذا رفضوا مطالبهم يسرع الى ضربهم فوراً^(٢) .

(١) ديوان شبلي الاطرش ص ١٣٧ - بمعنى عندما يأتون الجبل يعتزون ويتنفسون الصعداء .

(٢) الدروز و ابراهيم باشا المصري - العمدي ص ٢٢ .

وبعد مفاوضات فاشلة بينهم وبين شريف باشا ارسل هذا حملة معها اربعمائة فارس بقيادة علي آغا البصلي ، تمركزت في قرية الثعلة غرب السويداء في تشرين الثاني من عام ١٨٣٧ م ولكن ما ان اسدل الليل ستاره حتى هاجموا هذه الفرقة واعملوا القتل في افرادها ولم ينج منهم سوى ثلاثين رجلا وقد اشار الشيخ ابو علي الحناوي في قصيدته الى هذه الواقعة فقال :

اول فتوح الشر ذبح البصلي اخذنا خمسمائة حصان فرد نهار

وغضب ابراهيم باشا لهذه النتيجة ، فارسل حملة من ثمانية آلاف مقاتل بقيادة محمد باشا والتقت بهم بالقرب من بصر الحرير حيث جرت معركة حامية في مطلع عام ١٨٣٨ م ، وانسحبوا على اثرها الى اللجاء متظاهرين بالانكسار ، فلحقهم محمد باشا « وسار مع اركان حربه في مقدمة الجيش ولما بلغوا مكاناً شديد الوعورة انقض عليه الدروز من مكانهم ففتكوا عند افتتاح المعركة بمحمد باشا قائد الحملة وامير اللواء ايوب بك^(١) » ، وتم لهم الانتصار الساحق واستولوا على كميات من الميرة والذخيرة والسلاح . وعلى اثر هذه المعركة اراد ابراهيم باشا أن يقود بنفسه حملة جديدة لاختضاعهم لولا ان الجيوش العثمانية بدأت تتقدم نحو سورية من الشمال ، فانشغل بها وطلب عندئذ من والده ان يرسل الحملة الى حوران بقيادة احمد فيلي باشا وزير الحربية فاصطحب هذا معه ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل وتوغل في اللجاء ثم عسكر بالقرب من قرية جدل - في اطراف اللجاء الغربية - حيث بدأت طلائع المحاربين تناوش جنوده ، ولكنها اخذت تتراجع الى الورا بقصد استدراجهم الى الاماكن الوعرة حتى اذا تم لها ذلك امطرتهم بوابل من رصاص محكم التصويب . وعندما « ادرك الدروز ان الجنود قد اعتراهم الكلال انقضوا عليهم وناجزوهم بالسيوف فهزموا الحملة وكبدوها خسائر جسيمة قدرت بنحو اربعة آلاف ما بين قتيل وجريح

(١) ابراهيم باشا في سورية - ابو عز الدين ص ٢٠٣ .

وأسير وكان في عداد الجرحى أحمد منيكلي باشا^(١) .

وعلى اثر هذا الانكسار ادرك ابراهيم باشا ان قمع ثورة بني معروف تتطلب الى جانب الجيوش النظامية عدداً من المحاربين غير النظاميين الذين تعودوا القتال في المناطق الجبلية ، فجهز الحملة المطلوبة من عشرين الف مقاتل ، وقادها بنفسه في اواسط نيسان من عام ١٨٣٨ م وكان يساعده في ذلك سليمان باشا الفرنساوي وكبار الضباط ، وقرروا محاصرة بني معروف في اللجاء والاستيلاء على ينابيع المياه واتلاف مازاد منها عن حاجة جيشه واشتد القتال حول هذه الينابيع وكثرت المعارك حتى بلغت الستين على حد قول الشيخ ابو علي الخناوي :

ستين كون نقابلو وما نهابو ونكسر جيوشه بقوة المختار^(٢)

ولكن عندما تمكن ابراهيم باشا من تدمير عدد كبير من برك المياه في صيف ذلك العام ، وشدد الحصار على الثائرين ، شعر هؤلاء بجرافة موقفهم فعمدوا للاستنجاد ببني معروف المقيمين في وادي التيم ، واشعال الثورة في هذه المنطقة جهات راشيا وحاصبيا واستطاع شبلي العريان ومعه مئتا رجل ان يحتلوا قلعة راشيا مع طلوع الفجر ، حتى اذا ما اتسع نطاق هذه الثورة واشتد اوارها اخطر ابراهيم باشا ان يترك اللجاء ويأتي بنفسه الى وادي التيم ليقمع الثورة الناشئة فيه . وكانت اشهر المعارك التي خاضها مع الثوار وهي معركة وادي بسكا ثم معركة جنعم - بالقرب من قرية شبعاء بين جبل الشيخ والجبل الوسطاني - في اواخر تموز من عام ١٨٣٨ م حيث انتصر ابراهيم باشا وقبل مصالحة الثائرين عندما ابدوا استعدادهم لذلك ، ثم عفا عنهم واستلم اسلحتهم ، وعاد لينهي الثورة في اللجاء بأي ثمن خوفاً من تدهور الموقف الداخلي وازدياد خطر التآمر الحارجي من الدولة العثمانية والدول الاوربية ، فأصدر أوامره

(١) ابراهيم باشا في سورية - ابو عز الدين ص ٢٠٦

(٢) الكون : المعركة - المختار : النبي المختار .

بالعفو عن بني معروف واكتفى منهم بتقديم بعض الاسلحة » وتعهدت الحكومة ان تعفوهم من التجنيد والسخرة والضرائب واذنت لهم بحمل سلاحهم وبأن يكون لهم حق انتخاب شيوخهم كما انها وعدت بعدم اقامة تحصينات في بلادهم (١) .

وهكذا لم يحصل ابراهيم باشا على النتائج التي كان يتوخاها من محاربة بني معروف في جبل العرب .

ب - ثورات بني معروف ضد الدولة العثمانية

عندما عاد العثمانيون الى حكم سورية بعد خروج ابراهيم باشا منها ، ارادوا اخضاع جبل العرب وبسط سلطتهم عليه ، واتبعوا من اجل ذلك طرقا فاسدة ملتوية كالاتارات الاقليمية والطائفية واحداث الواقعة بين ابناء الوطن الواحد بالاضافة الى استخدام القوة كلها وجدوا اليها سبيلا .

ففي عام ١٨٥٢ م ارسلت الدولة العثمانية جيشاً كبيراً الى الجبل بقيادة والي دمشق محمد باشا القبرصي لاختضاع بنيه وجباية الاموال الاميرية منهم . ولكنهم فاجأوه بالقرب من ازرع ودارت معركة « دام القتال فيها بضع ساعات فانهمزمو والي دمشق ووضع الدروز ايديهم على مهمات الجند والمدافع . وتعرف هذه الواقعة بوقعة صاري عسكر (٢) » . ولكن الاتراك العثمانيين عمدوا بعد هذه الهزيمة « لاثارة الحوارة واغرائهم بالمساعدة على استخلاص قرى الجبل الغربية » . كما ارسلوا بعض قواتهم لضرب بني معروف الذين تجمعوا في قرية امسبكي - في اطراف اللجاء الغربية - ودارت معركة حامية بين الفريقين عام ١٨٥٦ م انتهت بانتصار آل معروف وانتزاعهم قرى : تعاره - الطيره - صما

(١) ابراهيم باشا في سورية - ابو عز الدين ص ٢٢٠ .

(٢) خطط الشام - كرد علي - ٣٥ ص ٧٩ .

- الدارة - الدويرة - سميع - الثعلة - الاصلحة - الدور - خربا المجيمير - بكا
- انظر الخريطة - وبعد سنوات ارسلت الدولة العثمانية حملة جديدة الى الجبل
لمطالبة سكانه بارجاع القرى المذكورة وتقديم الاموال والاعشار الى الحكومة
وطرد كل دخيل يلتجئ الى جبلهم . ولكن الشيخ ابا علي قسام الحناوي من
قرية السهوة ، تكلم باسم الوفد الذي قابل العثمانيين فقال :

« اما الاموال الاميرية فانها تدفع بطيبة خاطر لأنها تدفع كزكاة
اموال وفرض واجب ، اما تسليم القرى لاصحابها فهذا امر لا تقبله العشائر ،
فكما أخذناها نحن بالسيف فليأخذوها هم بالسيف ايضا ، واذا اردتم ان تستلموها
بالقوة فسنسلمها بعد ان نروي ترابها بالدم . واذا مشيتم علينا فلانقلابكم
الا بالبارود واليوم المقرود (١) (المشؤوم) » .

وبعد ذلك دارت المعركة في ارض قراصة - غرب نجران - انتهت
بهزيمة الاتراك .

وعندما وقعت حوادث عام ١٨٦٠ م المشؤومة في لبنان لضعف الوعي
القومي وسوء تصرف الحكام وتحريض العثمانيين والاوروبيين ، استنجد بنو
معروف في لبنان باقاربهم في جبل حوران فانجدهم هؤلاء بما يقرب من الف
مقاتل على رأسهم اسماعيل الاطرش شيخ بلدة القريا ، وكان بينهم عدد من بدو
السردية والسلوط سكان اللجاء ، فاستركوا في حوادث زحلة ولكنهم لم يمشوا
في لبنان الا قليلا ثم عادوا الى الجبل .

وفي عام ١٨٧٨ م صادف ان لجأ الى ياسين الحريري شيخ قرية بصر
الحرير احد الاعراب من الجوف ، احدى مدن الشمال في المملكة السعودية ،
ومعه امرأة جميلة اسمها فهيدة ، فأحبها الشيخ ياسين واستأثر بها ، فشكا الاعرابي
أمره الى حمود نصر شيخ قرية الدويرة المجاورة ، حتى اذا لم تثر وساطته في

(١) جبل الدروز - حنا ابو راشد ص ٥٣ .

الموضوع ارسل مع الاعرابي خمسة اشخاص لاختطاف الزوجة في جنح الظلام ولكن اهالي بصر الحرير شعروا بوجودهم فلحقوا بهم وقتلوا اثنين منهم ثم تطورت القضية وقتل عشرة من اهل بصر ، وتمكن مدحت باشا والي سورية من حل المسألة صلحا . ولكن بعد اغفائه من ولاية سورية ارسلت الدولة العثمانية جيشاً كبيراً بقيادة جميل باشا ، فاشتبك مع بني معروف في معركة حامية بالقرب من قرية فراصة ، وفقد فيها هؤلاء ما يقرب من ستائة شخص . وقد وصف شبلي الاطرش هول هذه المعركة فقال :

اول فتوح الشر جازة فهيدة	وجرى عقبها عركات يابوالهمام
قام الحريري جردالترك والحضر	وجميل باشا قائد الجيش حازم
بنو علي خربة تعارة خيامهم	في يوم اسود مثل الظلام
جرى يوم فراصة الذي تخبرونه	بأما فقدنا كل قرم مخاصم (١)

وانتهى الامر اخيراً الى المصالحة بين اهالي بصر الحرير واهالي الدويرة من آل نصر الذين « انتقلوا الى نجران وسكن مكانهم آل عزام تفادياً لتجدد الحُصام (٢) » .

وفي عام ١٨٨٠ م افادت الدولة العثمانية من شجار عشائري بين اهل الجبل وجيرانهم ، فأرسلت على آل معروف حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا وتمكنت « من تأسيس قائمقامية جبل الدروز مؤلفة من ثمان نواح وتعيين القائمقام والمديرين منهم (٣) » .

وبعد سنوات هاجم بنو معروف قلعة المسبية في اطراف اللجاء منعاً لتمر كز القوات العثمانية فيها واتخاذها نقطة انطلاق لتطويع الجبل .

-
- (١) ديوان شبلي الاطرش ص ٨٥ .
 جازة : زواج - عركات : معارك - باما : كم وكم - فرم : شجاع قوي .
 (٢) جبل الدروز في العهد العثماني - الزغي ص ٦٦ .
 (٣) خطط الشام - كرد علي ج ٣ ص ١٠٥ .

وبعد عامين من هذا الهجوم نشبت ثورة شعبية داخل الجبل عرفت باسم « العامية » وسنتكلم عنها في فصل خاص لأهميتها .

وفي اواخر عام ١٨٩٢ م اعتقلت الدولة العثمانية شبلي الاطرش و ارادت نفيه من الجبل ، وقيل ان اخاه ابراهيم شيخ السويداء ، اتهمه بمحاولة تحريك العامية من جديد واثارة المشاكل بقصد الوصول الى الزعامة بدلا منه فحرض الدولة عليه حتى اعتقلته . وبينما هو في طريقه الى معتقلات دمشق هاجم عدد من آل معروف الجنود المرافقين له فأجبر هؤلاء على اللجوء الى قلعة المزرعة ، وعندما اشتد الحصار عليهم اضطرت الدولة العثمانية لاطلاق سراح شبلي بعد ان قبلت وضع ابنه محمود مكانه كرهينة في القلعة .

وبعد اربعة اعوام يقع شجار عشائري لأسباب مادية بين جماعة من اهل قرى صلخد ونجران و كحيل والحراك ، وتغتم الدولة العثمانية هذه الفرصة فتُرسل حملة الى الجبل لتطويع سكانه بقيادة ادهم باشا الذي اشتبك معهم في معارك عديدة : في قرصة ، والسجن ، ونجران ، وام العلق ، ثم تمكن بعدها من دخول السويداء والتمر كز في قلعتها ، ولكنه شعر بجماعة موقفه بعد ان تكررت هجماتهم على القلعة فارسلت اليه الدولة العثمانية نجدة بقيادة بمدوح باشا الذي جعلته حاكما عسكريا للمنطقة الجنوبية . وعندما لم يستطع اخضاعهم بالقوة تودد اليهم وامنهم ثم طلب المفاوضة معهم ، ولكنه عاد فغدر بهم والقي القبض على زعمائهم ونفى المئات منهم الى الاناضول واخذ يجمع السلاح من الباقين ويقسو في معاملتهم واضطهادهم . وقد وصف شبلي الاطرش غدر الاتراك بقوله :

اللي وثق بهم بلا شك مجنون من آمن الثعبان مالو سلامه

كما انه وصف ظلمهم بعد أن سيطروا على الجبل بالحيلة . فقال :

اول طلب قالوا علف للمواشي شعير وتبن شندي مع الصبح لازم
هاتوا حطب ، هاتوا فحم للعساكر برغل وآت وياغ جامد وعائم

ستين ليلة والمطالب قائمة	كلونا مثل خطو السنين الهشام
ولما وصلنا الحبس بالذل والشقا	بقا الدم من كل المهايبس عايم
من بعدها صارت على الناس ثقله	طلبوا اموال من السنين القدام
عدوا الخلال وطوبوا الارض كلها	وصرنا مثل اهل العجر للظلام
صار الخواله يسحب الجيد منا	ويقشطونا مثل قشط السوايم
يقلوا اللحم بالسمن والجاج مثله	من غير هذا فحشهم بالكلايم
سر كس وكرد وترك عليه محوجه	لامادعوا حوران للحشرنايم (١)

ويبدو أن ممدوح باشا قد ملأه الغرور ، وتمادى في الظلم والتنكيل
واشاعة الرعب والارهاب معتقداً ان هذا افضل اسلوب يتبعه مع سكان
الجليل ، ولكن الواقع ان الظلم الشديد الذي وصفه الشاعر الشعبي بدقة
ووضوح ، ولد ثورة جديدة عارمة عام ١٨٩٧ م ، وما يذكر في اسبابها
المباشرة ان احد نواطير حمى قرية عرمان تشاجر مع اعرابي اعتدى على هذا
الحمى ، وما أن شكى الاعرابي الى ممدوح باشا بالسويداء حتى ارسل هذا حواليا
ثلاثين جندياً الى عرمان بحجة القبض على النواطير وتأديبهم ، ولكنهم كانوا في
الحقيقة يريدون اعتقال وجوه هذه القرية الذين سبق لهم أن اجتمعوا سرأ مع
وجوه القرى المجاورة لمعالجة مظالم الاتراك وسوء معاملتهم للأهلين ، وعندما
هرب الناطور المذكور من قبضة الجنود اطلقوا عليه الرصاص ولكنه نجا ، ثم
خرج السيد محمود ابو خير ليستطلع الخبر ، حتى اذا ما صادف جندياً واحتج
على العنف المتبع اطلق الجنود النار عليه فأردوه قتيلاً . وكنتيجة لهذا الحادث
هاجم الاهلين الجنود وابدوهم باستثناء اثنين حيث تمكن احدهما من الهرب
واستجار الثاني بالنساء فحمينه . وعلى اثر ذلك ارسل ممدوح باشا اربعة
طواير مشاة وكتيبة من الحياالة لتأديب الثائرين ، وما ان بدأ القتال في مكان

(١) ديوان شبلي الاطرش - ص ٨٩ - ٩٠ .

شندي (بالتركي : حالا - آت : لحم - ياغ : سمن - الهشام : من حطم وهشم -
العجر : النور - الخواله : الجاني - قشط : ساق - عوجه : خليط - لاما : الى ان .

يدعى « عيون » شمال صلخد حتى توافدت النجدات من اهالي ملح وامتات وام الرمان وصلخد وجرت معركة حامية الوطيس اشترك فيها الجانبان بالسلاح الابيض كما اشتركت فيها النساء واشتد حماس بني معروف حتى قضوا على الحملة ولم ينج منها سوى افراد قلائل وبصف الشاعر الشعبي طرودي ابو حسون هذه المعركة فيقول :

اجوهن من هون ومن هون	كون جرى وسط عيون
تسمع سوق الحدادين	والنشاما شالوهن
وين نهرب وين نروح	خسرف بصيح ياممدوح
والضباط ملقحين (١)	القائد والعسكر مذبح

اما شبلي الاطرش فيقول :

بعيون ذبحوا من القروم العيالي	الفين من حمر الطرايش سقمان
وصار اللحم بالعون مثل الثلال (٢)	ضبع الكويرس عازموضبع حبران

وتابع المنتصرون زحفهم على السويداء وحاصروا قلعتها بضعة ايام . ولكن الدولة العثمانية حقدت على نتيجة هذه المعركة فارسلت قوة كبيرة جداً مؤلفة « من اربعة طواير وخمسين كتيبة بقيادة المشير طاهر باشا » (٣) وتمكنت من دخول السويداء وانقاذ الحامية المحاصرة فيها . وفي اليوم التالي لاحقت الثاثرين نحو الشرق ثم زحفت نحو قنوات ومنها الى شها حيث جرى حولها معركة حامية انتقل على اثرها آل معروف الى اللجاء لملج الاتراك على خوض المعارك فيها باعتبارها منطقة وعرة كثيرة الاشجار ، وكان على رأسهم ابوطلال

(١) اجوهن : انوم - هون : هنا - النشاما : الشجمان - شالوهن : ازاحوم -

خسرف : قائد الحملة - ممدوح : جاكم المنطقة الجنوبية - وين نهرب : اين نهرب ...

(٢) ديوان شبلي الاطرش ص ٧٤ - سقمان : اموات - القروم العيالي : شجمان

بني معروف - الكويرس وحبران : قرينتان قرينتان من مكان المعركة -

بالعون : عون الله

(٣) خطاط الشام ج ٣ ص ١١١ محمد كرد علي .

وهبه عامر الذي هرب من منفاه في الاناضول مع نفر من جماعته ، وراحوا يغزون فرق التموين الآتية الى الجيش من دمشق ويفاجئون المراكز العسكرية ويخربونها ، ولكن الاتراك العثمانيين اتبعوا معهم الخطة نفسها التي اتبعها ابراهيم باشا المصري من حيث محاصرتهم في اللجاء وحرمانهم من المياه . ومع ذلك كله لم يستطع ممدوح باشا ان يخضع الثائرين تماما ومال الى مصالحتهم ، وعقد الثائرون اجتماعات عديدة في عرمان وقنوات والسويداء وطالبوا الدولة بتحقيق المطالب التالية :

- ١ - اعادة جميع المنفيين الى الجبل ٢ - رفع التجنيد الاجباري عن بني معروف ٣ - تخفيف الضرائب ٤ - اخراج المساجين من دمشق
- ٥ - تقليل عدد الجنود وعدم بناء قلاع جديدة ٦ - عدم القاء السلاح قبل تنفيذ هذه المطالب .

وبما يروى في هذه الفترة عن المرحوم احمد المقوش انه اتكأ على سيفه وقال لرئيس الوفد العثماني المفارض : « يا افندينا . اكلنا كمش . وحكينا دفش ، وقرعة ما منحطش ، وقلاع ما نعرش ، واهل البلاد غائبين مسركلين (منفيين) الدوله لها بلاد وما لها عباد ، مانومي سلاحنا ، ومانرجع عن الثورة قبل ان يعود اهل البلاد (المنفيون) لها (١) .. »

قبلت الدولة العثمانية هذه المطالب وبدأت بتحقيقها . فأعادت المنفيين واطلقت سراح المعتقلين واعطتهم بعض الهبات والمساعدات وبذلك هدأت الثورة وخيم الهدوء على الجبل في الوقت الذي كانت فيه الدولة احوج ماتكون الى الهدوء بعد نشوب ثورة الارمن في الاناضول وثورات العشائر والعناصر الناقمة على استبداد السلطان عبدالحميد ورجعيته في مناطق مختلفة . وبقي الهدوء نحيماً على الجبل حتى عام ١٩١٠ م وقويت شوكة ابنائه في هذه الفترة ولم

(١) رواية السيد صلاح مزهر .

يتمكن الاتراك من ان يجر كوا ساكناً عندما التجأ سلطان بن رشيد امير نجد الى الجبل هرباً من ظلمهم عام ١٩٠٧ .

وفي عام ١٩٠٥ م اعتدت قبيلة المعجل على قافلة تجارية لبني معروف آتية من دمشق ثم تمكنت من قتل عدد من حماتها بالقرب من قرية محجة في حوران ، فراح شيخها دحام ينظم القصائد الشعبية مفتخراً بنفسه وبقبيلته ، هاجياً بني معروف معيراً لهم بالجن ، فثارت ثورتهم وزاد من رغبتهم بأخذ الثأر انهم عندما كانوا يذهبون الى دمشق كان أهلها يمازحونهم بقولهم : « اوعى دحام بالفجلة ، دحام بالثوب ... » ولهذا اجتمع بنو معروف بقيادة مصطفى الاطرش شيخ قرية امتان ، وانضم اليهم شيوخ السردية والسوالمه من بدو الجبل ، وهذا ما يؤكده ان طابع هذا القتال لم يكن طائفياً بل قبلياً ومصالحياً ، ولم يشأ آل بنو معروف ان يأخذوا دحاماً وقبيلته على حين غرة فأرسلوا اليه نذيراً يخبره بقدمهم لمنزلته ، ثم التقى الحُصان بالقرب من ضمير جنوب شرق دمشق عام ١٩٠٦ م وجرت معركة حامية انتصر فيها بنو معروف وحلفاؤهم من البدو انتصاراً حاسماً ولم يفقدوا منهم سوى رجاين ، بينما فقدت قبيلة المعجل ثمانئة رجل وفر الباقون ومعهم الشيخ دحام .

وبهذه المناسبة تجدر الاشارة الى ان بني معروف ، خاضوا منذ دخولهم ارض الجبل ، معارك قبلية عديدة مع جيرانهم البدو والحضر من أجل بسط السيطرة ومد النفوذ ، وكثيراً ما كانت تأخذ طابع الغزو القبلي المعروف بين العشائر العربية كغزو ابن مسعود ثم غزوهم له ... ولم نشأ التبسط بها لانها حدثت بدوافع العصبية القبلية ولا تنطوي على اهمية تاريخية .

وفي عام ١٩١٠ م قررت الدولة العثمانية اخضاع الجبل بعد ان كثرت لجوء المتمردين اليه ، فاغتتمت فرصة شجار وقع بين بعض الاهالي في قرى حوران والجبل ، وارسلت « حملة مؤلفة من ثلاثين الف جندي بقيادة سامي

باشا الفاروقي (١) ، الذي اعتمد أول الامر على الحيلة حيث استطاع القبض على يحيى الاطرش شيخ قرية عري وأودعه السجن ثم زحف على الجبل من درعا ووزع منشوراً وعد فيه بالعمو التام عن كل من يلقي سلاحه ، ولهذا وقعت البلبلة في صفوف بني معروف ، واجتمع بعضهم في قرية الكسفر بينما اجتمع بعضهم الآخر في قرية مفعلة فهاجمهم سامي باشا في هذين الموقعين ، غير انه هزم ولم يستطع السيطرة على الموقف إلا بعد ان تظاهر باللين وأغدق الوعود الجميلة للمسلمين الذين راحوا يؤدون السلاح ويعلنون الولاء للدولة ، وما ان اطمأن القائد التركي الى ضعف مقاومتهم حتى اعتقل المئات منهم وارسلهم الى سجون دمشق وعكا ونفذ حكم الاعدام شنقاً في كل من ذوقان والد سلطان الاطرش ، ويحيى ثم مزيد عامر وهزاع عز الدين ، ومحمد القلعاني ومحمد المغوش ... وبهذا الارهاب سيطر العثمانيون على الجبل وراحوا يحصون نفوسه ويسوقون شبابه الى الجندية ويستوفون الاعشار ورسوم الاغنام ... وفي هذه الفترة من الحكم الارهابي نشبت ثورة في الكرك بشرق الاردن ، وخشيت الدولة العثمانية من انتفاض بني معروف فمالت الى مسايرتهم واتباع اللين معهم واطلقت سراخ المعتقلين منهم واستمرت في سياستها هذه اثناء الحرب العالمية الاولى والثورة العربية الكبرى . وسندكر في الفصل التالي كيف اشترك بنو معروف في هذه الثورة واسهموا في مقاومة الاتراك واخراجهم من البلاد العربية .

جـ - موقف بني معروف من الثورة العربية الكبرى

عندما عين جمال باشا السفاح قائد الجيش الرابع التركي حاكماً على سورية في مطلع الحرب العالمية الاولى ، تودد الى العرب اول الامر وتظاهر بعطفه على امانهم القومية . ولكنه سرعان ما كشف عن نياته المبيتة ونفسيته الحاقدة فبطش باحرار العرب وحكم على ابشع ما يكون الظلم والاستبداد

(١) خطاط الشام ج ٣ كرد علي ص ١١٢ .

« ولم يسلم من يده الا دروز جبل حوران فانهم خدعوه بوعودهم ولم يتجندوا
 بحجة العمل في اراضيهم لاجراج الجيوب للجيش ، ولكن الغلات التي استغلوها
 لم يقدموا منها شيئاً للدولة على الرغم من الحاح القائد العام عليهم . . ولو خرجت
 دولته ظافرة لارسلوا حملة على هذا الجبل تهلكه وتخربه » (١) . وكان جمال باشا
 قد صرح بعد وصوله الى سورية فقال : « اذا كان هنالك ما اخشاه فهو لاء
 الدروز الذين اريد ان يظلوا بعيدين عن الافكار باضرام ثورة ضدنا » (٢) .
 وتحقيقاً لرغبته هذه زار الجبل وتودد لسكانه وقدم لزعمائيه الخلع والأوسمة
 والمنح المالية ، وسمح لهم بالتسلح ووافقهم على طلب اعفائهم من الخدمة العسكرية
 وبذلك انجرف معه عدد منهم ، ولكنه نشر الجواسيس بينهم غير ان غاياته
 لم تنطل عليهم وخاصة انه قد سبق لهم ان عرفوا الشيء الكثير من غدر الاتراك
 وخداعهم ولعل ما قاله الشاعر شبلي الاطرش عن صفات الاتراك هذه يعبر
 بوضوح عن نظرة بني معروف اليهم وذلك في قوله :

اللي نجين يلعن فرايا طوارهم وحكامهم ما يقضون امان
 لكن خصال الحون والعيب كارهم من يأمن النادوس والشعبان (٣)

والحق اننا لو اضعنا الى نظرة بني معروف هذه للدولة العثمانية ،
 ما قاسوه منها في حروبهم الطويلة ضدها ، وما اقدمت عليه من التنكيل بهم
 واعداد عدد من زعمائهم عام ١٩١٠ م ، واضعنا ايضاً ان بعضهم كفسيب
 الاطرش وسليم المقوش قد سبق لهم ان اشتركوا بجمعية العربية الفتاة وبالنشاط
 السياسي ضد الاتراك ، نقول لو اضعنا ذلك كله ولاحظناه لوجدنا الموقف
 الطبيعي لاكثر ابناء الجبل هو دعم الثورة العربية الكبرى والعمل على الخلاص

(١) خطط الشام ج ٣ - كرد علي ص ١٤٦ .

(٢) سورية ولبنان في الحرب العالمية ص ١١١ .

(٣) ديوان شبلي الاطرش ص ١٠٠ .

نجن : اختبر - النادوس : ناقل الفساد والتميمة - خصال : صفات .

من حكم العثمانيين الحافل بالظلم والفساد . ولهذا ما كاد الشريف حسين يطلق الرخصة الاولى ايذاناً باعلان الثورة على الاتراك^(١) حتى اصبح جبل العرب بمرأ للمناضلين ومقرراً للسياسيين الهاربين من ظلم الاتراك وملجأ للفقراء الذين منعتهم ظروف الحرب من الحصول على قوت يومهم . وقد اشار الى ذلك المجاهد فايز الغصين في مذكراته المنشورة في جريدة القبس . وبماقاله عن آل المقوش مثلاً :

« انهم آووا المرحومين عبدالغني العريس و عارف الشهاب وتوفيق البساط وعمر حمد و ابراهيم هاشم (رئيس حكومة الشرق العربي) ، مدة طويلة وخدموهم خدمات جلي وحافظوا عليهم طوال المدة التي وجدوا فيها بالجبل الى ان خرجوا منه برضاهم » كما ان الدكتور احمد قدري اشار في مذكراته عن الثورة العربية الكبرى المطبوعة عام ١٩٥٦ الى انتساب بعض رجال الجبل الى العربية الفتاة و اشار الى مروره من قرى هذا الجبل مع جماعة من المجاهدين وشعورهم بالاطمئنان عند وصولهم الى القرية بلدة سلطان باشا الاطرش .

اما الاستاذ محمد كرد علي فيقول « واخرى هي تعد من مآثر الدروز وهي انهم آووا في جبلهم نحو عشرين الف لاجيء من العرب على اختلاف مذاهبهم فراراً من الجندية او غيرها واطعموهم مدة الحرب بلا عوض فكانت مضافات الرؤساء منهم اشبه بفنادق ومطاعم مجانية ، خدامها اصحاب تلك البيوت من اعيان الجبل فمثلوا بعملهم القرى العربي والمروءة والشهامة^(٢) .

هذا وقد جرت مراسلات واتصالات عديدة بين فيصل بن الحسين و اعيان الجبل حول تهيئة الثورة العربية والاستعداد لها . وكان للسيد نسيب البكري من دمشق دور فعال في هذه الاتصالات بحكم صلته الوثقى مع ابناء الجبل . ففي عام ١٩١٧ م ارسل فيصل كتاباً الى سلطان الاطرش هذا نصه : « الجيش الحجازي طهر مكة المكرمة من الاتراك ، وجيش الحلفاء

(١) . خطط الشام جـ ٣ - كرد علي ص ١٤٧ .

(٢) . خطط الشام جـ ٣ - كرد علي ص ١٤٦ .

المنضم اليه الجيش السوري قد افتتح بئر السبع عن طريق غزة في ٣١ أكتوبر ١٩١٧ ويافا في ١٦ نوفمبر والقدس في ٩ ديسمبر ، وعليه كن على استعداد مع رجال حزبك وقريباً سندخل جبلكم المنيع بواسطتكم ، الله ينصر العرب » و كان الامير فيصل قد ارسل كتابين الى السيد خليل المقوش احد اعيان القضاء الشمالي وقد جاء في الكتاب الأول « بعد السلام عليكم ورحمة الله . ارسلنا لكم هذا الكتاب ونحن على ثقة من المولى عز شأنه ان بلاد معان والطفيلة والكرك ستقع بايدينا بهذين اليومين وعقبه متجهين الى دياركم لنكون نحن واياكم يداً واحدة على اعداء العرب والانسانية ، وقد سمعنا عن شجاعتكم وشيبتكم ماسرنا ، والأمل ان تكونوا جميعاً على اتم الاستعداد للقيام العام كما هو مأمول منكم . وقريباً انشاء الله تأتكم نجدة مدافع ورشاشات وخلافها والله الموفق (٢٥ ربيع الاول ١٣٣٦ - قائد الجيوش الشمالية - ختم فيصل بن الحسين) - صورة الرسالتين اللتين بعث بهما فيصل الى المجاهد خليل (شكل ١ و ٢) وكان السيد نسيب البكرية قد اتفق مع سلطان باشا الاطرش على دعم الثورة العربية والدعوة لها فحضر الى القرية وام الرمان بعد ان كان اعيان القضاء الجنوبي قد اجتمعوا سرا في قل بركات ، بين عنز والقارية - وقرروا تأييد الثورة ، ولهذا منعوا قائمقام السويداء وقواته العسكرية من ان تعتقل السيد البكري عندما كان في الرمان ، واضطر القائمقام الى العودة تفادياً للاضطدام ، ثم اتخذ السيد البكري مركز الاتصال بينه وبين ابناء الجبل في كلثة بلهان ، جنوب قرية الغارية (١) . وفي هذه الفترة كان الاتراك ينشطون مع بعض انصارهم في الجبل واستطاعوا ان يستميلوا اليهم الشيخ مصطفى الاطرش ، فارسل هذا كتابا الى فيصل ، عندما بعث قواته الى الازرق ، يطلب اليه مغادرة هذا المكان وعدم المرور من الجبل لئلا يضطر مع انصاره لمقاومته . ومهما يكن من امر فقد كان من نتيجة النشاط الذي قام به قادة الحركة العربية

(١) رواية السيد فرحان العبد الله احد الذين اشتركوا في تلك الاجتماعات .

ان « قام الدرور بتأليف عصابات لالقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي (١) » كما انهم اجتمعوا في بلدة القريا ، وارسلوا ثلاثمائة فارس ليلتحقوا بقوات الثورة في العقبة على ان ينضم الاخرون الى الجيش العربي عند وصوله الى سورية . وكان فرسان الجبل ينشدون يومذاك قصيدة من نظم الشاعر الشعبي معذى المقوش وان دلت ابياتها على شيء فانما تدل على ثقة بالنفس واطمئنان للنصر وتدل بوضوح على روح عربية صادقة بعيدة عن الاقليمية الضيقة .

قال الشاعر :

يا مير ما ودها سكوت	لازم ترور بلادنا
لا بد عاجلق تقوت	وتشوف عج طرادنا
عيال الجبل حي ثبوت	يعنى العدى ملكادنا
من مصر لساحل بيروت	لنجد لبغدادنا
لاجلها نحيا ونموت	ونحمي حما اجدادنا
رجال العرب اهل البخوت	بالسيف نبني اجدادنا (٢)

وعندما اقترب الجيش العربي من سورية عقد اجتماع في « كاف » بين الجبل والازرق حضره بعض قادة الثورة العربية الكبرى ومن بينهم حسين الاطرش كمنسوب عن الجبل ، وبعد فترة وجيزة « خف السيد نسيب البكري من الازرق بأمر الامير فيصل الى جبل الدرور ولقي صديقه سلطان الاطرش وجيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس وذهبوا الى بصرى وهناك التحق بهم بعض الحورانيين ولا سيما آل المقداد وساروا الى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الاتراك قليلا في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانتظام ، ودخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ما عدا

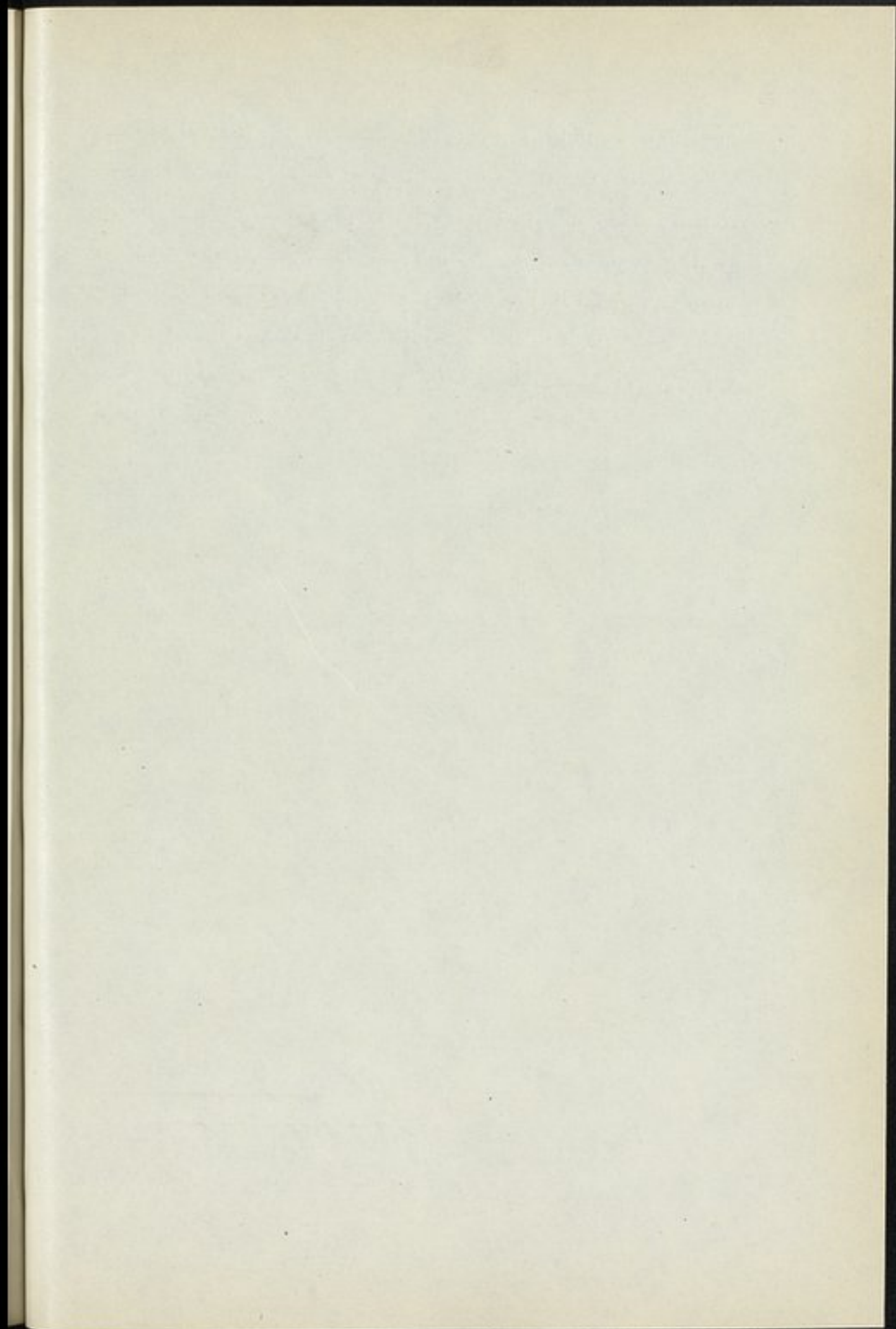
(١) خطاط الشام - محمد كرد علي - ص ٣٠٧ .

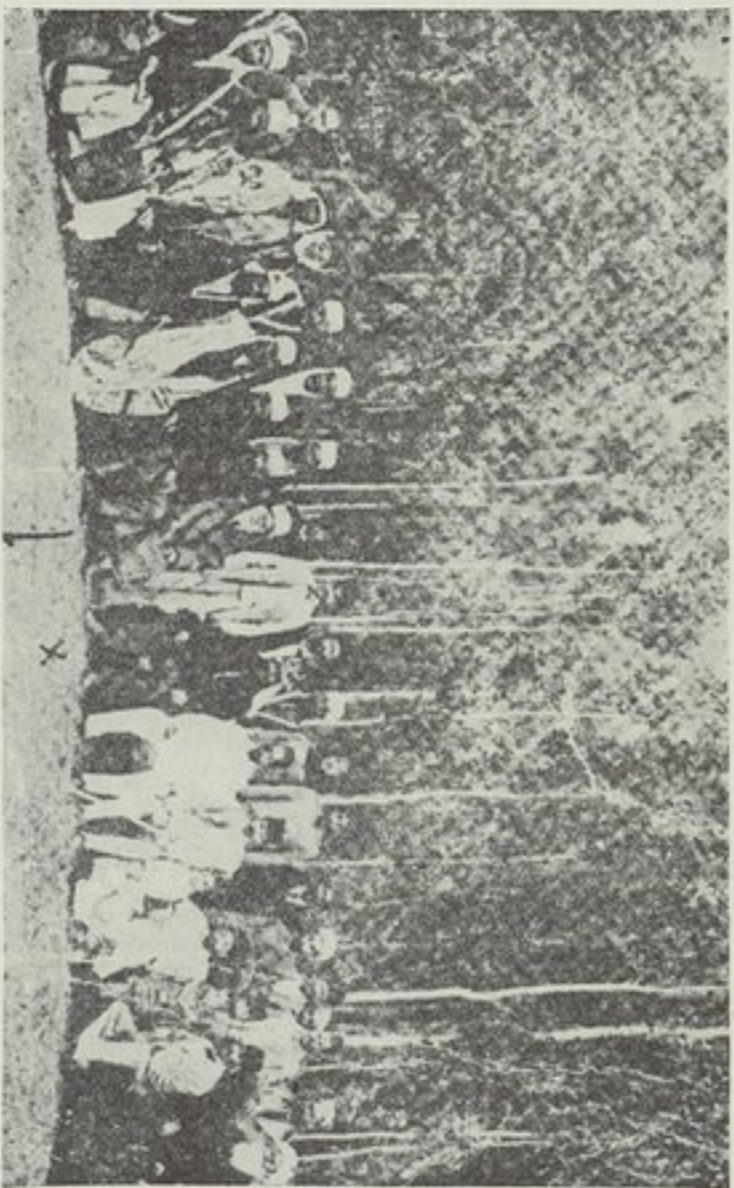
(٢) ما ودها : لا نحتاج - تشوف عج طرادنا : تشاهد غبار خيواننا الراكفة -

عيال الجبل : رجاله - ملكادنا : هجومنا - البخوت : الحظوظ .

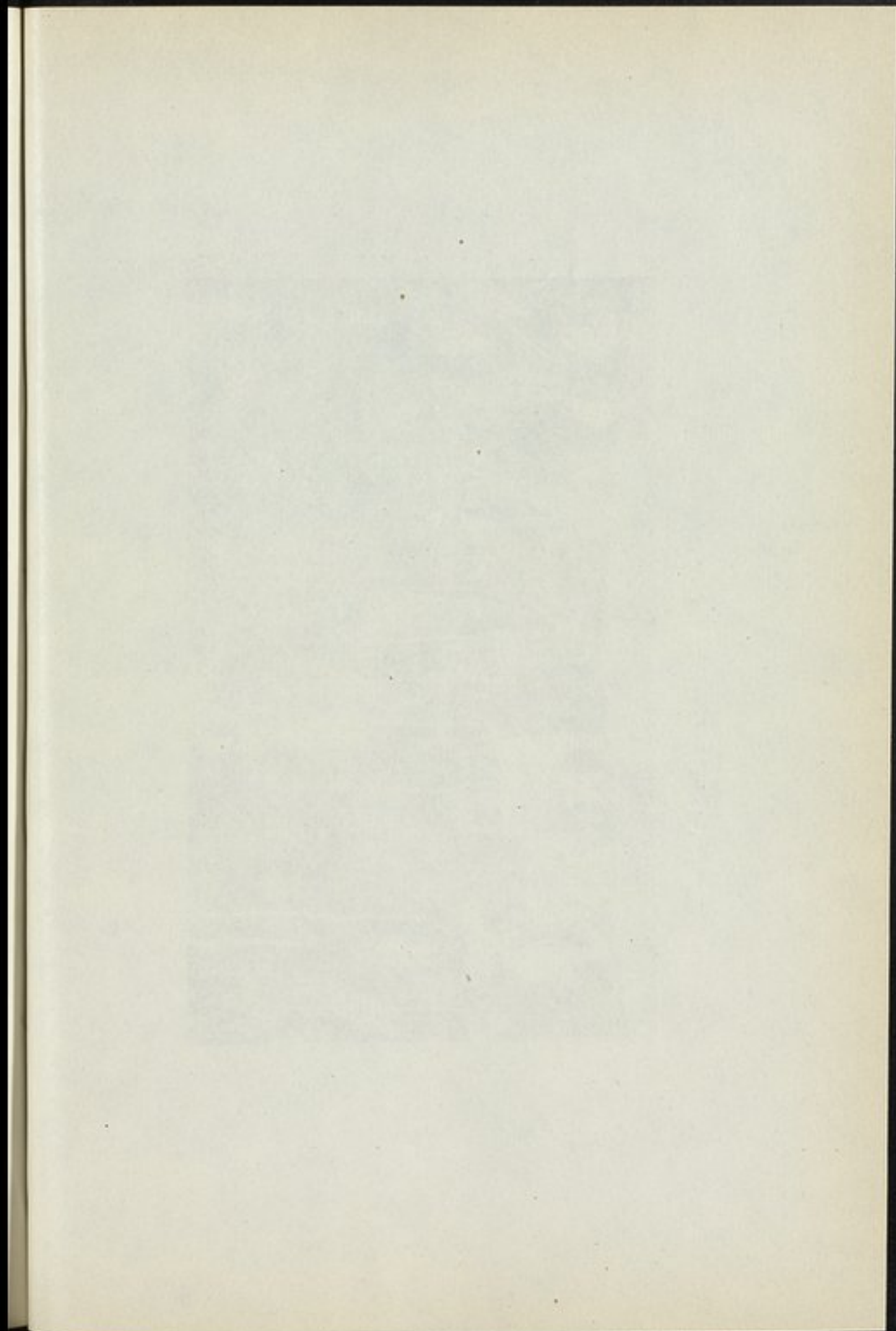
المشاة من اهالي البلاد الى دمشق واتفق دخول هذه الحملة مع اوائل الحملة
البريطانية الزاحفة على الفيحاء عن طريق جسر بنات يعقوب « القنيطرة » (١)
وعلى اثر انتصار بني معروف على الاتراك في معركة جبل المانع و كسبهم ما يقرب
من عشرين مدفعاً استنار سلطان باشا الاطرش روح النخوة العربية في نفوس
جماعته لكي يرفعوا العلم العربي على دمشق قبل وصول الانكليز اليها و وعد
بمكافأة مادية لمن يقدم على ذلك ، فتبرع السيد داود طربين وشخص آخر
وتكنا من رفع العلم العربي على سراي الولاية في جنوب دمشق قبل ان تدخلها
قوات الانكليز .

(١) خطط الشام - كرد علي ج- ٣ ص ١٥٤ .

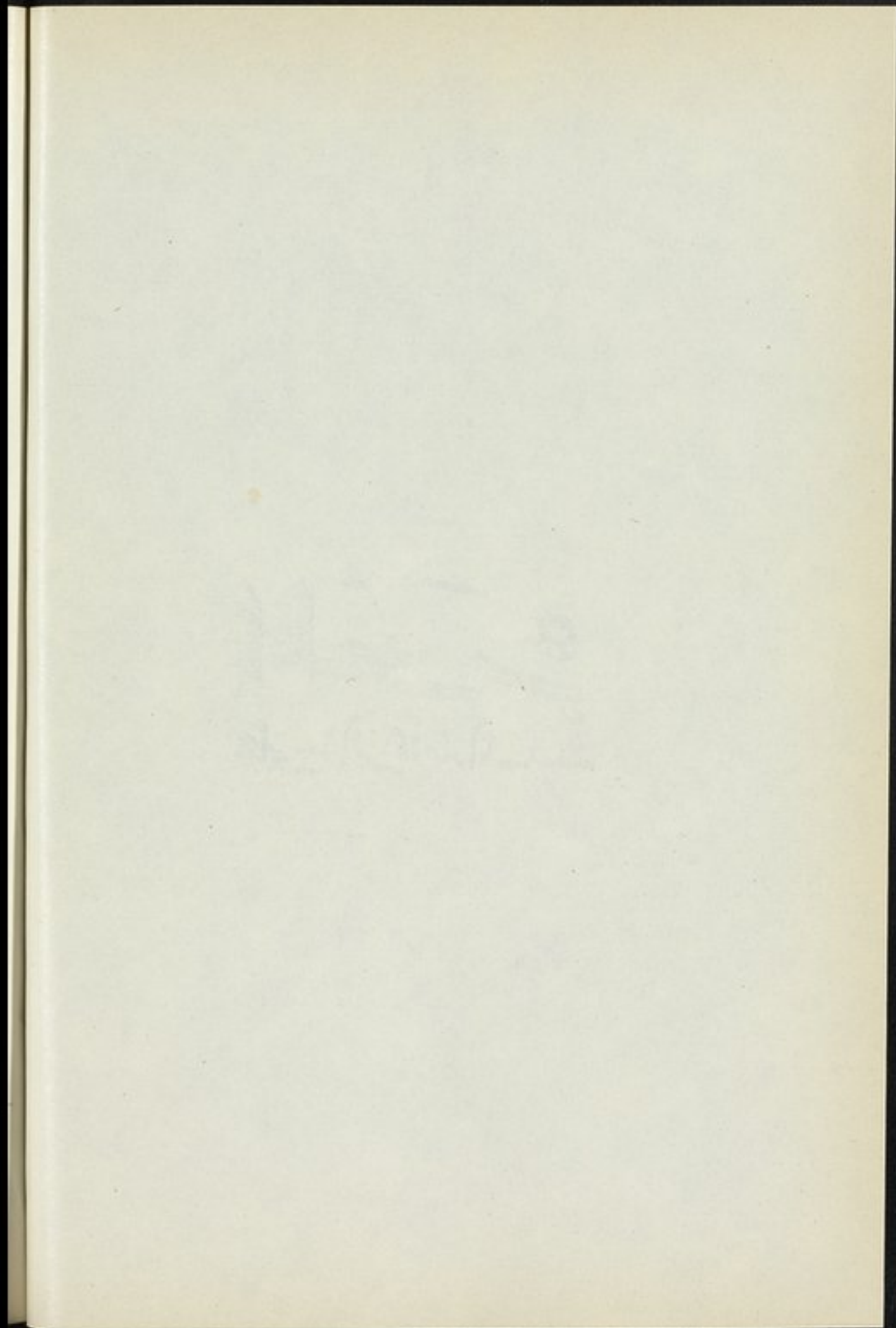




اجتماع بعض وجوه الطين بدهش في عهد الاتراك



الْحَمْدُ
عَلَى الزَّعَامَةِ الْمُسْتَبَقَةِ



طبيعة النظام القبلي تفرض ظهور زعيم نافذ الكلمة بين افرادها مطاع منهم ، ومن المعروف بالنسبة لمبررات الزعامة في القبيلة العربية ان يكون صاحبها شجاعا حازم الرأي سديده ، كريما نبيلاً في اخلاقه وسلوكه . وفي القرون الاخيرة من حكم الاتراك العثمانيين حيث انتشرت الفوضى واشتدت العصبية القبلية نتيجة لضعف الحكومة وعجزها عن ضمان راحة الافراد وامنهم . كان من الطبيعي ان يتمتع زعيم القبيلة بسلطة واسعة ونفوذ كبيرين افراد قبيلته . وهذا ما كان يتمتع به آل الحمدان عندما استوطنوا جبل العرب في مطلع القرن الثامن عشر . ولكن ثورة شعبية نشبت حوالي عام ١٨٦٨ ضدهذه الزعامة المستبدة وانتهت بانتقال الزعامة الى آل الاطرش . فما هي اسباب هذه الثورة وما هي نتائجها؟

أتى آل الحمدان الى جبل العرب « من جبل الشوف » من مقاطعة الغرب الاعلى من قرية كان يقال لها كفرة وهي الآن خربة فوق عيناب ، فيها آثار ورسوم كثيرة « (١) . ويروى ان جدهم القديم حمدان الحمدان « قد نزع اولاً من الجبل الاعلى من اعمال حلب الى لبنان ثم جاء الى جبل العرب برفقة الامير علم الدين ونال الزعامة الاولى ثم استولى على السويداء واخذها عنوة من عشيرتين قديمتين هما من بني سويدان ، احدهما عشيرة اسلامية والثانية عشيرة مسيحية معروفة بدحدل و كانتا تتوخيان المشيخة مناوبة فيما بينهما ورحلها عنها . فالأولى قطنت خربة غزالة من اعمال حوران والثانية قطنت معربة وعضم وطبية (في حوران) . ولم يزل نسلهما الى اليوم « (٢) .

(١) تاريخ الامير حيدر الشهابي (الروض النضير ج ٣) ص ٩٦٥ .

(٢) حوران الدامية ص ١٧٨ - ١٧٩ ابو راشد .

ويروى عن اسباب نزوح الحمدانيين من لبنان ١١٠٣ هـ (١٦٩١) م انهم قتلوا اربعة رجال من القيسية في بلدة كفر فاضطروا الى الجلاء عنها الى الدلي في حوران ثم رحلوا الى قرية بريكه في الجبل وكان عددهم خمسة وخمسين رجلاً، ثم نزل آل ابي فخر في العام التالي حول قرية ريمة وتعاونوا لدفع غزوات البدو عنهم . وفي عام ١١٠٥ هـ (١٦٩٦) م استنجد الحمدانيون بجماعتهم في لبنان لصد البدو من ولد علي الذين اندروهم باخلاء المنطقة والعودة الى لبنان خلال فرصة لا تتجاوز خمسة ايام ، وحضر مايزيد على خمسمائة محارب في هذه الفترة واستطاعوا بجاهة البدو والانتصار عليهم في قرية دامما بالقضاء الشمالي .

وبعد أن سكن الحورانينون بضع سنوات حو الي ازرع نزحوا الى قرى نجران وعريقة وكفر اللحف ثم الى السويداء وعري ورساس حيث اشتد نفوذهم في هذه القرى وزادت ثروتهم ، ولكنهم لم يحافظوا على وحدة الزعامة كما يبدو اذ غدا للحمدانيين مركزان للزعامة احدهما في السويداء والثاني في قرية عري وقد يكون هذا عاملاً على ايجاد بعض التنافس بينها وازعاف وحدة القيادة التي لا بد منها لبقاء السيطرة والنفوذ . ومما يكن من امر فان السبب الأساسي الذي ولد الشعور بالظلم ثم الثورة عليه هو تمادي الحمدانيين في التحكم والاستبداد ، حتى قيل « ان الزعيم الحمداني كان يشنق متى شاء » (١) وكانت الاراضي تعتبر ملكاً له يتصرف بها كيفما شاء فيطرد الفلاحين المغضوب عليهم من الأرض التي يستخدمونها ولا يتورع عن ضرب العامل اثناء الحصاد عندما يتوقف قليلاً عن العمل طلباً الراحة ، ويجبي منهم الجزية والضرائب التي يدفع بعضها للدولة العثمانية ، كما انه يأخذ « الخاوة » اي الاقاوة التي يدفعها البدو لبني معروف ، وكثيراً ما أساء جباة التصرف مع الفلاحين الذين تركوا خيرات جبل لبنان ونزحوا عن اراضيه الخصبه هرباً من تسلط الاقطاعيين وطمعاً في التمتع بالحرية والكرامة ، ولكنهم سرعان ما وجدوا آل الحمدان يارسون عليهم زعامة اشد قسوة واكثر تعنتاً . ومما يذكره الشيوخ عن قسوة

(١) بنو معروف في جبل حوران - النجار ص ١١٠ .

الحمدانيين وسوء تصرفهم ان زعيمهم في السويداء ارسل احد اعوانه من آل
ابي راس الى محمد الاطرش واقاربه في قرية حبران يطلب منهم أداء «المعلوم»
اي كل ذكر من المواشي والبقر يجب ان يعطي لابن الحمدان - ولكن محمداً
رفض هذا الطلب واقدم احد اقاربه على قتل رسول الحمدان عندما هدد
الاطرشة واغلظ لهم القول . وما كان من الحمدانيين الا ان تحينوا الفرصة
المواتية واخذوا مواشي الاطرشة عن طريق الغزو المتبع عادة بين القبائل
العربية بما اضرهم نار العداوة والحقد بين هاتين الاسرتين . ويروى كذلك ان
الزعيم الحمداني اختلف مع قاسم ابي فخر في كفر اللحف واراد ترحيله مع
اقاربه من الجبل فهاجم مع اعوانه هذه القرية واحرقوها ، فالتجأ آل ابي فخر
الى قرية ريمة وعمدوا الى خدعة حربية طريفة وهي انهم علقوا الثياب على
سطوح المنازل واوهموا جماعة الحمدانيين بان في ريمة حشوداً كثيرة مستعدة
للقتال . كما قيل ان كل محارب حفر امامه خندقاً واقسم ألا يغادره حتى يموت
ويدفن فيه . وعندئذ توسط بعض العقلاء فتوقف القتال وحقنت الدماء بعد ان
اشتد العدا بين الجانبين . وهناك امثلة عديدة من هذا النوع لا مجال للتبسط
بها . وفي الوقت الذي كان سلوك الحمدانيين على النحو الذي ذكرناه كان آل
الاطرش يهتمون بتنمية ثروتهم والتودد الى العائلات الاخرى بمسايرتها والتزاوج
معها ، وكان ابرز الاشخاص فيهم واقوام اسماعيل الاطرش في القريا حيث
صد هجمات البدو وبرهن عن شجاعة وحمية وكرم ، وذاعت شهرته بين ابناء
الجبل فراحوا يتطلعون اليه ويلتفون حوله وخاصة بعد ان صار يهتم بقضاياهم
وينتصر لمن يطلب منه المساعدة . ومثال ذلك انه انتصر لتاجر من لبنان كان
البدو قد سلبوا منه بضاعته في قرية زيموم قرب المزيريب ، فاعاد له اسماعيل
مسلوباته بينما لم يكتوث واكد الحمدان بشكوى التاجر المذكور ، كما ان
اسماعيل الاطرش ذهب الى لبنان على رأس فئة من ابناء الجبل لنصرة اقربائهم
في حوادث عام ١٨٦٠ م . واصبح الشعب بعد هذه المواقف ينظر اليه على
انه صاحب الحمية والغيرة والذي يستحق الزعامة والتقدير . وكانت هذه السبعة

الطبية لاسماعيل تثير حفيظة الزعيم الحمداني ، فعمد هذا الى الاتفاق مع محمود كيوان - وكان صاحب عشيرة قوية في القضاء الجنوبي - لكي يقضي على اسماعيل الاطرش مقابل مساعدته على ان يصبح زعيماً في هذا القضاء ، ولكن محاولة الاغتتيال ، اثناء اجتماع في قرية السهوة ، باءت بالفشل وادرك اسماعيل ان ابن الحمدان هو الدافع لتلك المحاولة فلم يغضب من محمود كيوان بل صالحه وتودد اليه حتى اعتذر هذا ومال اليه ، ثم حضر اجتماعات كانت تعقد للتداول في مظالم آل الحمدان وسوء معاملتهم للمواطنين . ويبدو ان اسماعيل الاطرش لم يغفل رأي السلطة يومذاك و اراد ان يدعم موقفه بالحصول على تأييد زعامته من الوالي بدمشق . وبما ان السياسة العثمانية تخضع للامر الواقع وتقر الاقوى على زعامته فقد مال متصرف حوران مع اسماعيل الاطرش عندما ظهر تفوقه في النفوذ والمقدرة على واكد الحمدان .

من كل ما تقدم يتبين لنا ان استبداد آل الحمدان وسوء تصرفهم مع المواطنين من جهة ثم مهارة اسماعيل الاطرش وحسن معاملته وتدييره من جهة ثانية كانت من الأسباب الاساسية لفشل آل الحمدان وزوال زعامتهم من جبل العرب دون ان تراق قطرة دم دفاعاً عن هذه الزعامة . اما السبب المباشر فخلاصته كما يروي ان بائعاً لبنانياً من أصل يهودي جلب معه الى قرية عري امواساً للحلاقة وكان شيخها يومذاك يحيى الحمدان ، فقال له هذا هازناً « اذهب الى اسماعيل الاطرش في القريا فانه بحاجة الى هذه الامواس ، وذهب التاجر فعلاً الى القرية وذكر لأهلها ما قال له الزعيم الحمداني ففهموا مايعنيه من ذلك وهو ان يخلقوا الحامم (وهذا شيء معيب في تقاليد بني معروف) . وعندئذ جمع اسماعيل الاطرش انصاره من القرى المجاورة وهاجموا قرية عري واحتلوها دون مقاومة من آل الحمدان وجماعتهم . ثم انتقل اليها اسماعيل الاطرش واستقر فيها وكان ذلك فيما يرجح الرواة عام ١٨٦٨ م .

وفي هذه الفترة كان الشعب في السويداء يضغط على زعيمها واكد الحمدان لتحقيق المطالب الآتية :

- ١ - عدم ترحيل الفلاحين من قراهم .
- ٢ - جعل الارض التي يستعملها الفلاحون ملكاً لهم .
- ٣ - السماح لأهالي السويداء بتحويل الاراضي المشاع الى أراض زراعية
تغرس بالأشجار .
- ٤ - ان يدفع الضريبة المتأخرة للدولة من اموال « القلاط » اي الاموال
التي يأخذها من البدو مقابل السماح لهم برعاية مواشهم في اراضي
السويداء .
- ٥ - الا يأخذ ضرائب على اراضي الفلاحين بصورة تعسفية .

ولكن الزعيم الحمداني لم يلب هذه المطالب فاشتدت نعمة اهالي السويداء عليه وعقدوا الاجتماعات السرية للانتفاض ضده ، وقيل ان ابراهيم الاطرش زار السويداء . وفي رواية اخرى ان الذي زارها هو والده اسماعيل ونزل ضيفاً في بيت حسين قطيش واتصل مع الناقمين على واكد الحمدان (١) . فأعربوا عن تأييدهم له وشجعوه على الانتقال الى السويداء وقيل انهم وقعوا معه وثيقة تعهدوا له فيها بتقديم المساعدة على طرد الحمدانيين منها مقابل التعهد بتحقيق المطالب الآتية الذكر . وعندما لمس اسماعيل الاطرش هذا التشجيع ذهب الى الوالي العثماني في الشيخ سعد ومعه عدد من وجوه السويداء ليم الاتفاق النهائي بحضور الوالي وضمائه . وفي رواية اخرى ان اسماعيل اتصل مع الوالي وحصل منه على أمر يوافق فيه على ان يكون مسؤولاً بدلاً من واكد الحمدان ولكن هذا أحسن بالموضوع فذهب الى الوالي ورشاه بثلاثة آلاف ليرة ذهبية حتى يقضي على اسماعيل الاطرش ، وعمد الوالي الى الحداد فأرسل مع اسماعيل كتاباً الى قائمقام بصرى يأمره فيه ان يتخلص من اسماعيل بأية وسيلة ، وكان يرافقه في الطريق احد المقربين منه ، فارتأى عليه ان يفض كتاب الوالي خوفاً من ان يكون فيه مالا يشتهي ، فأجابه اسماعيل « ان الكتاب امانة معي ولن

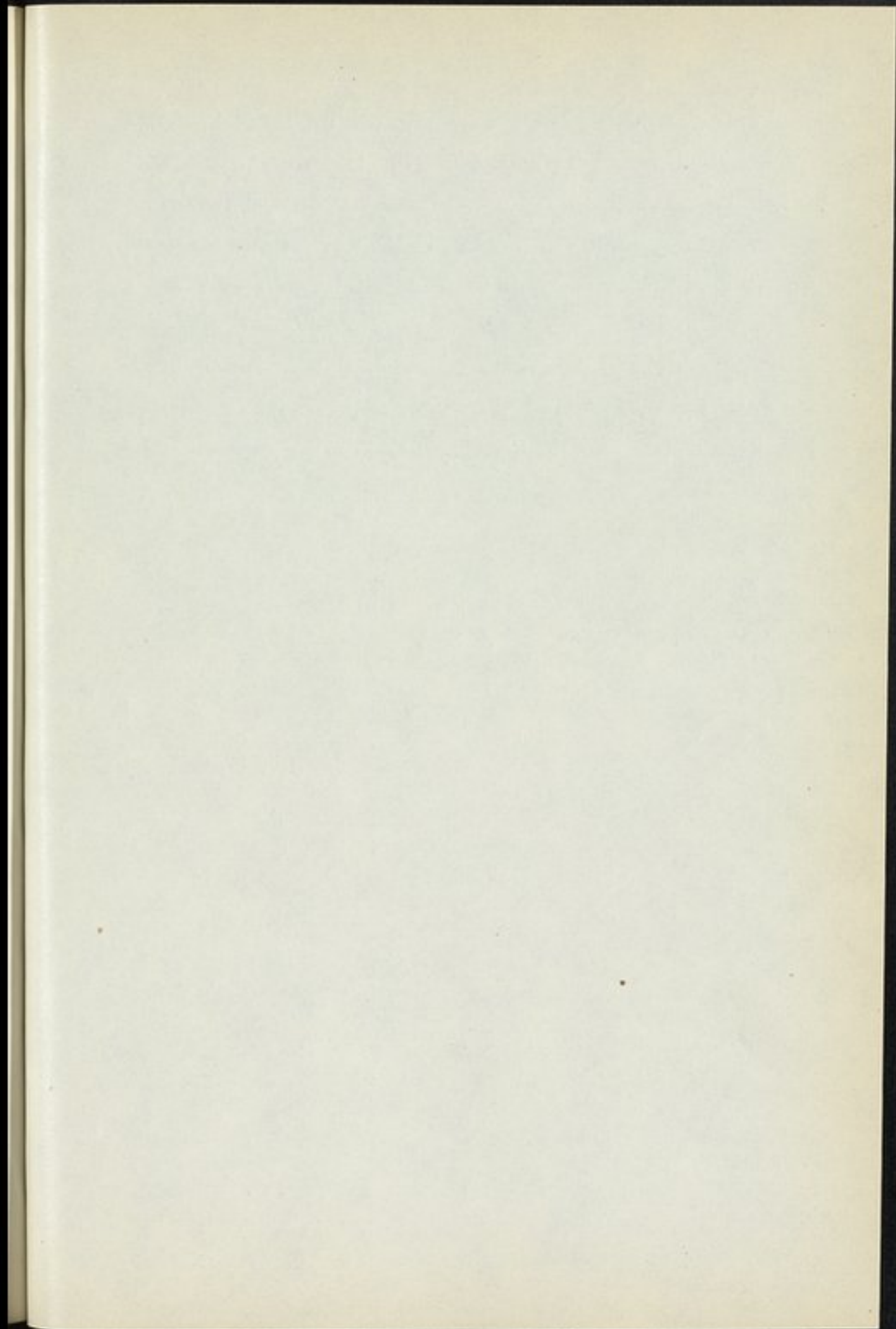
(١) ما أكده الشيخ سالم قطيش والشيخ فرحان العبد الله وهما من اكبر المعمرين في الجبل .

أفضه ولو كان فيه أمر بقطع رأسي ، ويمضي الرواة فيذكرون ان قائمقام بصري
وضع له السم في القهوة حتى اذا ما شرها اسماعيل أحس بألم في جسمه وغادر
بصري فوراً ووصل الى بيته في عري وعاش بضعة ايام ثم فارق الحياة عام
١٢٨٨ هـ (١٨٧١) م

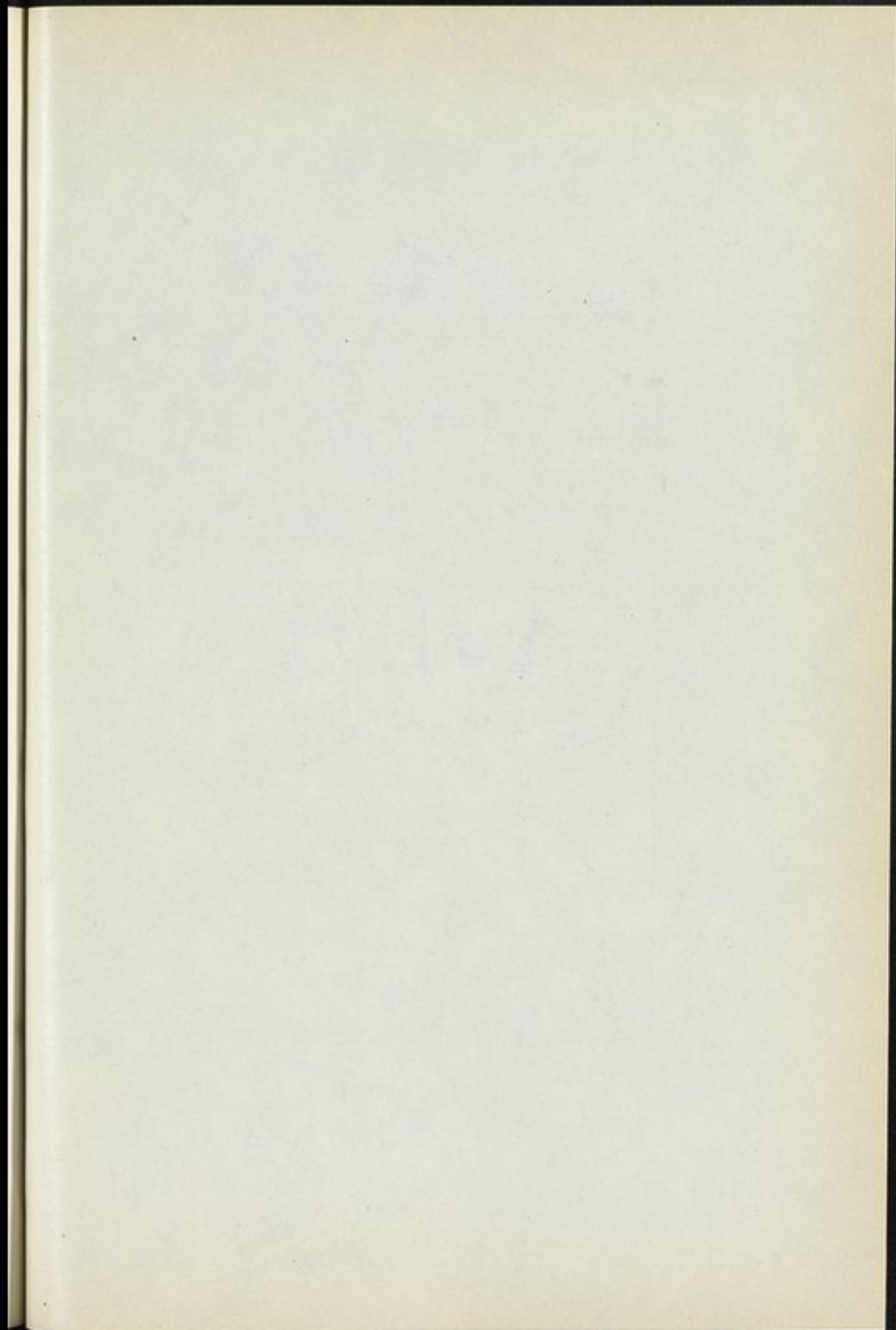
وفي هذه الفترة كان ابنه ابراهيم في القدس يحضر الاحتفال الذي اقامته
الدولة العثمانية لاحد رجال النمسا المسؤولين ، حتى اذا ما عاد الى عري وجد
وصية من ابيه اسماعيل يطلب منه فيها الانتقال الى السويداء وكان الظرف
موافياً حيث كثر الناقمون على آل الحمدان و كثر في الوقت نفسه انصار
الاطارشة وخاصة في القضاء الجنوبي واحتشدوا مع بيارقهم في الكوم على مسافة
ثلاثة كيلو مترات جنوب السويداء ، وعندما رأى الحمدانيون ان لا قدرة لهم
على مقاومة هذه القوى المحتشدة انسحبوا من السويداء الى قرية ولغاثم الى
بصري الحرير دون مقاومة ، ودون ان يتمكنوا من اخذ اموالهم واثاثهم .
ولكن المنتصرين اخذتهم الرأفة وتلكتهم النخوة العربية فبعثوا اليهم اموالهم
واثاث دورهم . ويبدو ان الحمدانيين تضايقوا من زوال زعامتهم وابتعادهم عن
الجبل وخاصة بعد ان صادفتهم حوادث مزعجة لهم في مقرهم الجديد ، ولهذا
ارسلوا كتاباً الى وهبه عامر في شها يتذمرون فيه من الابتعاد عن جماعتهم
ويشكون اليه من وقوع بعض الحوادث المزعجة ، ويستحثونه للنظر في امرهم
وقد اعتبره الشيخ وهبه عامر هذا الكتاب نخوة له واستنجاداً به ، فدعا وجوه
العائلات بالجبل لاجتماع عقد في شها وتقرر العمل على اعادتهم ، اما ابراهيم
الاطرش فقد وافق على ذلك شريطة الا يجتمعوا في مكان واحد ، وان يوزعوا
في اكثر من قرية ، فتم له ذلك حيث توزع الحمدانيون في قرى سليم وشها
والعقينة وكنناكرو ولا يزال احفادهم في هذه القرى حتى الوقت الحاضر .

وعندما أتت حملة عثمانية بقيادة جميل باشا وهاجمت قرى الجبل أبلي
الحمدانيون في مقاومتها بلاء حسناً بينا تراخى ابراهيم الاطرش في صدها الأمر

الذي أثار اهالي السويداء عليه حتى ان احدهم لآمه صراحة وقال له مهدداً : ان صاحب السويداء سيعود اليها . وقيل ان ابن الحمدان في « سليم » اعتزم العودة اليها فعلا لولا ان فاجأته المنية ، ثم أراد اخوه بعد وفاته ان ينتقل اليها ، ولكن المنية ايضاً عاجلته قبل تحقيق رغبته ، وهكذا لم يتمكن الحمدانيون من استعادة زعامتهم المفقودة حتى اذا ما ثبت ابراهيم اقدامه ورسخ زعامته ماطل بتحقيق مطالب اهالي السويداء المذكورة آنفاً . فلم يعترف بملكية الفلاحين للأرض التي يستغلونها واستمر بترحيل من يغضب عليه منهم ، وبقي في عهده كثير من التصرفات السيئة التي كان الشعب يعاني منها في عهد سلفه مما مهد السبل لثورة شعبية جديدة بعد سنوات معدودة سميت بثورة العامية .



العامّة
في النوف على الإقطاعية



في هذا الفصل نتكلم بإيجاز عن الاسرة والمرأة ، وعن
التقاليد والعادات والاخلاق والاوزاع القبلية ، وكيف تطورت
مع الايام .

ويمكننا القول منذ البداية ، ان الحياة الاجتماعية في جبل
العرب تشبه الى حد بعيد في جوهرها و كثير من مظاهرها ،
ما كان معروفاً عند العرب القدماء .

١ - الاسرة

لعل أهم ما نتم به التربية البيتية هو تنشئة البنات على العفة والاخلاق
الحميدة ، وقد تعدد الوسائل المتبعة لتحقيق هذا الهدف ، وقد يكون بعضها
خاطئاً او بعيداً عن أصول التربية الحديثة . غير ان المثل الاعلى للبنات يبقى
دوماً التحلي بالاخلاق الفاضلة والسيورة الحسنة . والمرأة في الجبل لاتضع الحجاب
على وجهها ، ولكنها تلبس فوطة بيضاء شفافة تغطي شعرها وآذانها وعنقها ويبقى
وجهها مكشوفاً ، وتلبس تحت الفوطة طربوشاً صغيراً من النوع الخاص
بالنساء ، تزينه الفتيات منهن بقطع من الذهب المستدير في نهايته الامامية السفلى
وبقطع ذهبية اخرى كبيرة كالليرات الذهبية معلقة في قرص جميل مزخرف
من الفضة في أعلى الطربوش ، وهذا ما يعرف محلياً باسم « القرص المشنل »
(انظر شكل ١)

واللباس التقليدي هو اللباس الطويل الفضفاض الذي يصل الى كاحل
القدمين ، والمتقن منه تبدو فيه الاناقة والجمال ، و كثيراً ما أثار اعجاب
الزائرين من مناطق مختلفة (شكل ٢)

اما العجائز من النساء فيمتنعن عن لبس الذهب واستخدام انواع الزينة ويرتدين في الاغلب الالبسة ذات اللون الاسود وفوطة بيضاء وغير شفافة . ومما تجدر الاشارة اليه ان اللباس بالنسبة للمتعلقات وطالبات المدارس قد تبدل وتطور فأصبح اللباس المدني المعروف في المدن الكبرى كالقاهرة ودمشق (انظر الشكل ٣) .

اما الرجل الشاب فيضع على رأسه الكوفية أي « الحطة » والعقال بينما يضع الشيخ المسن او الشاب المتدين عمامة بيضاء ، ويلبس الرجل كذلك سروالا طويلا ورداء أي « قمبازاً » من حرير او جوخ فوقه واذا كان ثرياً او وجيهاً يلبس عباءة من جوخ ، على النصف الاعلى من حافتيها عري ثمينة ذهبية اللون تسمى « القصب » ولكن هذا اللباس التقليدي يتراجع مع الزمن أمام اللباس المدني باعتباره اكثر شيوعاً بين الاوساط المختلفة وأقل تكاليف وأسلس مراساً للعمل .

والمرأة في الجبل تستقبل الضيوف وترحب بهم عند غياب زوجها ، ولكنها لاتصافحهم باليد الا اذا كانوا من اقربائها ، وتنصرف بعد استقبالهم والترحيب بهم لاعداد واجبات الضيافة ، وتستدعي أحد اقربائها لمسيرة الضيوف والبقاء بينهم .

وعندما تبلغ الفتاة سن الرابعة عشر وتصبح أهلاً للزواج يتقدم الفتي ليخطبها من ابها ، في الماضي البعيد لم يكن للفتاة في الاغلب رأي يخالف رأي ابها ، بل اكثر من ذلك كان بعض الآباء - وهم اقلية - يزوجون بناتهم دون ان يتاح لهن التعرف على شركاء حياتهم ، ولكن هذه العادة زالت هذه الايام واصبح زواج الفتاة رهناً بمشيتها وموافقتها الشخصية ، ولا تزوج قبل ان تتعرف على خطيبها وتختبر اوضاعه وساوكه .

وعندما تتم الموافقة المبدئية ، يتصل اهل العريس مع ابها وامها ويتباحثون في تحديد المهر الذي يكون عادة بين الخمسمائة والعشرة آلاف ليرة

سورية ، وقد يجري الاتفاق على ان يستلم الوالد مهر ابنته ويتصرف به كما يشاء ، ويشترط على العريس ان يقدم نفقات العرس وتكاليف « الجهاز » من ألبسة وحاجات يتطلبها الزواج . وفي الجبل الآن اتجاه نحو تخفيف نفقات المهر ، وذلك انسجاماً مع منطلق التطور من جهة وحللاً لمسا قد ينجم من مشكلات اجتماعية فيما لو كثرت عقبات الزواج من جهة ثانية ، ومن الامثلة المؤيدة للاتجاه المذكور هو ان المهر للاقرباء أخف مما هو للغرباء ، كما ان الكثيرين هذه الايام يعمدون الى أخذ مهر عاجل قليل بينما يكتبون وثيقة تسمى « الصداق » يتحدد فيها المهر المؤجل الذي يشترط على الرجل دفعه اذا لجأ الى طلاق زوجته او اذا توفي ولم يكن لها اولاد . وهذه العادة سائدة بين آل معروف في لبنان . وبعد ان يتم الاتفاق على المهر يجري « عقد الزواج » على الشكل المعروف لدى السنة ثم تجري حفلة العرس فالزواج عقب العقد مباشرة او بعد فترة قد تمتد اكثر من عام . (انظر شكل ٣) - عقد الزواج -

وإذا صادف ان ربط الحب الشديد بين فتاة وفتى ورغبا بالزواج ولكنهما وجدا ممانعة من أهله او اهلها فقد يلجأ الفتى الى خطف البنت والذهاب بها الى مكان آخر ويلتجئ الى احد الاشخاص الاقوياء المتنفذين ويصبح « دخيلاً » عنده هو وخطيبته التي تسمى « الحطيفة » . والشاب عادة لا يمس عفاف الفتاة قبل ان تجري الوساطة مع اهلها لقبول الزواج والرضا بالأمر الواقع بعد حفظ حقوقهم وضمن كرامتهم عن طريق الوساطة التي يقوم بها بعض الوجهاء ويعرف عملهم هذا باسم « الكده » او « الجاهه » . والحقيقة ان اهل البنت يعتبرون خطفها تحدياً لهم واهانة لسمعتهم ، ولهذا قد يعمدون ، قبل المصالحة والكدة ، الى الاقتصاص من البنت وزوجها بقتلها أحياناً او بمنعها من العودة الى مسقط رأسها . ومن الملحوظ ان هذه العادة تسير في طريق التلاشي والزوال بسبب من تطور المفاهيم والتقاليد وانتشار الثقافة والاتجاه نحو تيسير الزواج وتسهيله . وبما يجدر ذكره هو انه لا يجوز للرجل حسب تعاليم المذهب ، ان يتزوج اكثر من امرأة واحدة ولكنه يستطيع ان يطلقها لأتفه الاسباب في

بعض الاحيان بالرغم من ان الطلاق ممقوت عند الراي العام ، وهو اكره انواع الحلال عند الله . وعندما تتكاره المرأة وزوجها ، وتريد الخلاص منه تستطيع ان تطلق نفسها على ان تعيد له مهرها المدفوع عند الزواج . وعلى أي حال فان الطلاق الناتج عن الرجل او المرأة ، يكون عادة لاسباب هي تقريباً نفس الاسباب المعروفة لدى الاديان السماوية . ولا يجوز للرجل ان يعيد اليه المطلقة ولا ان يجتمع بها ويتكلم معها .

وفي القديم كانت مهمة المرأة تربية اطفالها والاهتمام بشؤون بيتها، وقد تشارك زوجها في الحصاد وجني المحصولات ، ولا تستطيع العمل في الحقل العام او التجارة او وظائف الدولة ، بينما اصبحت المرأة المتعلمة في الوقت الحاضر قادرة على مشاركة الرجل في كثير من الامور وتشبه زميلاتها في المدن الاخرى .

والمرأة نصف حظ اخيها من تركه ابيها ، واذا لم يكن لها اخوة فلها نصف التركة ، واذا كان لها اخوات فلهن ثلثا التركة . ولكن ما يحدث عملياً هو ان البنت لا ترث شيئاً من املاك ابيها بل توزع هذه الاملاك بالتساوي بين اخوتها خوفاً من انتقال الاملاك الى عائلة اخرى . ولكن اذا طلقها زوجها فان اخوتها مجبرون على ضمان غيشها وتأمين راحتها . قد يوصي الاب ببعض املاكه الى ابنته ، ولكنه يشترط عودة هذه الاملاك الى اخوتها او اقرب الناس اليها بعد وفاتها . ونلاحظ في هذه الآونة الاخيرة ان الشعور بحق البنت في ان تنال نصيباً من تركه ابيها ينمو ويتزايد بين الآباء ويدفعهم لان يسجلونها في الوصية الشرعية جزءاً من التركة .

٢ - الاخلاق

يهم المعروف في اهتماماً بالغاً بالمحافظة على كرامته وعرضه ، ويضحى من اجلها النفس والنفيس ، فهو مثلاً لا يتورع عن قتل البنت عندما ترتكب

جرمة اخلاقية ، لأن العار في مفهومه لا يغسله سوى الدم . واذا وجهت اليه كلمة نابية يعتبرها اهانة لكرامته فيثور ضدها بعنف . وكثيراً ما وقعت المشاجرات لمثل هذه الاسباب . واذا دعوت عدداً من آل معروف الى حفلة عامة مقاعدها مرقة فلا تعجب اذا وجدت الا كثوية نائمة حانقة على ترقيم المقاعد ، لأن كل واحد منهم يرى نفسه أهلاً للصدارة ، ويعتبر وضعه في صف متأخر اهانة لكرامته . والمعروف في الاصيل يتصف كذلك بالانفة والاباء وعزة النفس فهو لا يرضى لنفسه ان يعمل في مهنة وضيعة ولا يتدنى الى سفاسف الامور فلا يقبل وظيفة المستخدم الا عند الضرورة القصوى وعندما يعرضه الفقر بنابه ، ويجد غضاضة في ان يكون اسكافياً او بائعاً متجولاً في الوسط الذي يعيش فيه ، ولكنه يشتغل بهذه المهنة في بلاد المهجر بعيداً عن عارفيه .

اما الشجاعة والكرم فهما في نظر المعروفين غير ما يمكن ان يتحلى به الرجل ، فهم يتناقضون بالمدح والثناء بعض مواقف البطولة والكرم لتكون عبرة للآخرين وقدوة لهم ، ومن الطريف ان نذكر بعضها في هذا المجال :

في احدى معارك الثورة السورية اصيب السيد اسد ابو عاصي من نجران في رضة ركبته ، وعندما قيل له ان لا علاج لها الا بالكي وصب السمن المغلي عليها ، احضر بنفسه سيخاً من حديد ووضعه بالنار حتى احمر لونه واخذ يلذع به ركبته ثم احضر سمناً يغلي وسكبها عليها دون ان يبدي تدمراً او شكوى . وفي الثورة السورية ايضا ، اصابت شظية السيد اجود مرشد رضوان من السويداء فبتوت ساقه ، وبسرعة خاطفة ربط ساقه المبتورة بيده وراح ينتخي بها امام رفاقه الآخرين . وفي معركة جرت مع الفرنسيين في خربة شمر بالقرب من قرية عري اصطدم الفرنسيون مع جماعة من الثوار كان بينهم السيد سليم مهنا من بكا ، وبقي هذا يقاتل بعد استشهاد جماعته ، حتى نفذت منه الذخيرة ، فما كان منه الا ان هجم بسرعة البرق ، نحو احد ضباط الحملة وكان قريباً منه ، فتصارع معه وامسك بتلابيبه وعضه من حنجرتة فقتله ، ولكن الضابط الفرنسي اطلق عليه النار من المسدس قبيل وفاته فارداه قتيلاً .

اما فيما يتعلق بالكرم فانهم يتناقلون بالثناء اسم الشخص الذي يبني مضافة كبيرة ويكثر ضيوفه ويستمر في طبخ القهوة المرة ويتقنها . ومن العار الفاضح على الرجل ان ينفر في وجه الضيف او ان يتهرب من استقباله . وفي احاديثهم بالمضافات يأتون على ذكر الاشخاص الكرماء ويظرونهم ، ويعتبرون « الكرم ستار العيوب » . ومما يذكر في هذا الميدان عن السيد حمزه الدرويش من الحريسة أن اشخاصاً استضافوه فلم يستطع الحصول بسرعة على خرفات يذبحها لهم ، فما كان منه الا أن ذبح « المعاليف » اي الشياه التي تغلف صيفاً ثم تذبح في الحريف ليصنع منها « الدهن » اي اللحم المجفف الذي يستخدم لتموين اهل البيت في فصل الشتاء وقت تزوح المواشي الى البوادي البعيدة عن القرى . وهناك ايضاً السيد ابو عفاش الصحناوي من المعروفين بالكرم والسخاء ، اذ لا يستطيع الضيف او الزائر لقريته « الجنينة » ان يتخلص منه لأنه يتمسك به بالحاح وعنف ، وقد يعدد احياناً الى الحيلة لا كرام الضيف اذا اعياه الاحاح والرجاء ، ومن ذلك مثلاً انه مر من قريته خمسة اشخاص بطريقهم الى الصيد ، وكان بعضهم من لبنان وبعضهم الآخر من السويداء ، وبما انهم رغبوا بعدم تكليفه بالطعام ، فقد اعلنوا له عند التقائهم به ، انهم لن يبروا في العودة من قريته ، فلم يبد اعتراضاً ، ولكنه اسرع فذبح خمسة خرفات لتجهيز طعام الغداء ووضعهم تحت الامر الواقع ، فاضطروا للعودة الى قريته الجنينة لتناول الطعام . وهناك امثلة اخرى من اشخاص آخرين لا حاجة للتبسط بها .

ومن الاخلاق السائدة بين ابناء الجبل نجدة المستغيث وحماية المستجير فاذا سمعوا صوتاً ينادي « وين راحوا النشامه » بمعنى ابن هم الشجعان؟! هبوا لنجدة صاحب الصوت شيبا وشباناً ومشاة وفرساناً (شكل ٤) وهذا ما يعرف باسم « الفرعة » .

لايسألون أحام حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
واذا كان صوت المنادي منذراً بعدوان جماعي خطير (وهذا ما كان

يقع عهد العثمانيين وفي زمن الغزو بينهم وبين البدو بالماضي وفي اثناء الثورة السورية الكبرى (فانهم يخرجون معهم راية القربة وتسمى « البيرق » وينتقى حامله عادة من الاشخاص الشجعان الاشداء ، واذا قتل حامله في الحرب فان ابناء عمه يتولون حمله وحمايته ، اذ من العار ان يسمح للعدو بالاستيلاء على البيرق (انظر البيارق شكل ٥) وقبل المباشرة بالقتال ينتخون لاثارة الحماسة في النفوس والنخوة تكون عادة بالسلاح او برفع لباس الرأس وهزه امام الجماعة وهو يردد بقوة وعنف « عنيكم ربعنا » بمعنى نحن عندكم يارفاقنا ونحن مستعدون للتضحية ، فيجيب الآخرون بقولهم : « كفو والله » ، « حياك الله » ... الخ (النخوات شكل ٦) .

اما بالنسبة لحماية المستجير فمن الطريف ان نذكر المثال التالي : جرى شجار في قرية لاهثة بين آل محرز وآل الحسن ، وبينما كان السيد قاسم عز الدين يتوسط الأمر ويحاول فض الشجار ضربه عفوا شخص من آل محرز فارداه قتيلا . وعندئذ التجأ هذا مع اقربائه الى بيت القتيل بالذات ، واعلنوا للنساء أنهم يستجيرون باصحاب هذا البيت ويحتمون به ، والمستجير بهذا الشكل يعرف باسم « الدخيل » وفي هذه الفترة كان السيد فارس عز الدين ابن القتيل قد احضر والده الى المضافة ومنع الجمهور من الدخول الى بيت الحريم لملاحقة القاتل . حتى اذا ماخيم الظلام ، عمد الى تهريب المستجيرين سرا الى قرية حميد وقبل ان يأتي موعد حفلة الاسبوع التي تقام عادة بعد اسبوع من الوفاة ، وافق على حل القضية وسمح لقائلي ابيه ان يحضروا حفلة الاسبوع وعقد لهم رايته . وستتكم عن حفلات الاسبوع وعقد الراية في مكان آخر .

وما دنا في معرض الكلام عن الاخلاق فلا بد من الاشارة الى ان المعروفي ، بالرغم من حبه للحرية وتمسكه بها ، وبالرغم من الروح الثورية الكامنة في نفسه ، فانه يخلد الى الهدوء والسكينة عندما يشعر بوجود قوة طاغية . ويجيد اخفاء نغمته ومشاعره ، ويتظاهر بالرضا والقبول بالأمر الواقع

بل أكثر من ذلك انه يتقن المسيرة والمجاملة الى الحد الذي يوم الآخرين
ويوقعهم في اخطاء فادحة لهذا خدع جمال باشا السفاح بعودهم فلم يأخذ شبانهم
للجندية ولم يقدموا الجيوب لجيشه في الحرب العالمية الاولى . ولهذا ايضا فوجيء
الفرنسيون ودهشوا عند نشوب الثورة ضدهم في الجبل عام ١٩٢٥ م لان
ممثلهم كاربييه كان يؤكدهم ان معظم آل معروف وزعماءهم يزورونه
ويؤكدون له الولاء ، كما اخطأوا مرة اخرى عام ١٩٤٥ م حيث جرى
انقلاب ناجح ضدهم في الجبل بعد ان توهموا ان ابناءه سيقفون بجانبهم وذلك
بالاستناد الى مظاهر الود والمجاملة التي لمسوها منهم . ولعل مذهبهم الذي يقول
ببدا الاستتار والتظاهر بما يرضى الخصوم كان من جملة العوامل التي غذت في
نفوسهم مثل هذه الصفات الآنفه الذكر .

٣ — التقاليد والعادات

لاشك ان التقاليد والعادات السائدة في الجبل تؤكدهم بوضوح انها ذات
اصول عربية صرفة ، فعادة النار مثلا لا تزال قائمة حتى الان على غرار ما كان
معروفاً لدى عرب الجاهلية ، فاذا اعتدى احد على آخر فأهاناه او قتله يصبح
من واجب اقرباء القتيل ان يثأروا له اثناء فترة قد تمتد اعواما عديدة ، واذا لم
يفعلوا اعتبروا جبناء مقصرين ، غير ان الحزم في تطبيق القوانين المرعية وتشديد
السلطة على المجرمين يلاحظان هذه العادة ليجهزا عليها .

واذا وقعت مشاجرات عائلية في احدي القرى وادت الى وقوع
بعض القتلى ، فان عدداً من الوجوه والمنتفذين في القرى الاخر يحضرون للعمل
على تلطيف النزاع او وضع حد له ، فيطلبون من اهل القتيل وانصارهم ، الخلود
الى السكينة وعدم القيام بمشاجرات جديدة لمدة اسبوع فأكثر ، وهذا ما يسمى
« بالعطوة » وفي هذه الفترة ينزع القاتل وبضعة اشخاص من اقرب الناس اليه
الى قرى بعيدة على الا يكون فيها اقرباء للقتيل ، وهذا ما يعرف باسم « الجلوة »
وهؤلاء الذين جلوا يراقبون من خصومهم الذين يحق لهم مضايقتهم وقتلهم في

احدى حالتين : اذا وجدوهم في قرى اُفرب من السني حددت لاقامتهم او اذا لم يجدوهم العطوة قبل حل القضية نهائيا . وعملية المراقبة والمضايقة تعرف باسم « المداورة » . وبعد فترة تمتد اشهرا او سنوات تجري الوساطة بين الفريقين لحل القضية بدفع « دية » القتلى وهي اربعة آلاف عن كل قتيل يقتل عمدا ، ولكنها تصبح نصف القيمة اذا كان القتل خطأ وهذا مايسمى بـ « الحظلة » . وكثيرا مايتجول القاتل بين اقربائه وحلفائهم في مختلف الاماكن ليجمع الدية ، حتى اذا ماتم له ذلك ونجحت وساطة الوجهاء في حل القضية تداعوا لاجتماع عام تعقد فيه راية القتلى امام جمهور كبير ، ويقفون في حلقة واسعة ثم يؤتى بقضيب طويل او رمح غالبا ، تربط في نهايته راية بيضاء ، ويفتح الاجتماع عادة اكبر وجيه من الحاضرين موجها كلامه الى اهل القتييل ذاكرا حميتهم وكرمهم وشاكراموقفهم النبيل وتساھلهم في حل القضية ، ويعلن بانهم سيعقدون الراية عن « الحاضر والغائب والذين في ظهور الرجال وبطون الحريم (بمعنى عن الاشخاص الذين سيولدون) ، وعن النائم والقائم .. الخ » اي ان كل هؤلاء لايجوز لهم في يوم من الايام ان يطالبوا بالثار ، وبعد هذا التمھيد يتقدم حامل الراية الى اقرب الناس للقتيل والى شيخ عائلته ثم الى بعض الاشخاص الوجهاء من الذين يعتمد عليهم اهل القتييل ، فيعقد كل منهم عقدة في الراية البيضاء ، ثم يصيح حامل الراية بأعلى صوته قائلا « اشهدوا يا اهل الحمية ، ضيوف ومحلية ، الراية البيضاء المبنية لفلان بيض الله وجهه » . وبعد ذلك يتصافح الجانبان ، ثم تدفع « الدية » ولكن كثيرا مايمتنع اهل القتييل عن اخذها و اباة منهم وترفعا وهذا مايعرف باسم « الشومه » (انظر شكل ٧) ننقل بعد ذلك لندكر لمحة عن الولاثم والافراح والمآتم والعصديات العائلية :

عندما يقيم احد الاشخاص وليمة لضيف او بأية مناسبة أخرى بوجه الدعوة الى وجهاء القرية وبعض رجالها ، وقد يجتمع في الوليمة الواحدة مايزيد على المئة شخص ، وبوضع الطعام في وعاء مستدير من نحاس قد يبلغ قطر دائرته اكثر من متر ، وعمقه يتراوح بين عشرة الى خمسة عشر سنتيمترا . والطعام عادة من طبيخ البورغل واحيانا

من الرز، ثم توضع فوقه كمية من اللحم والكبة المسلوقة والمقلية مع شيء من الجوز والصنوبر ثم تسكب فوقه « الملوحة » وهي مرقه « الكنا » أي اللبن المجفف الذي يجل بالماء ثم يغلى مع اللحم والسمن ، وأخيراً تسكب كمية وافرة من السمن المغلي ، قد تزيد على عشرة كيلوات أحياناً وذلك بواسطة وعاء قد يسع كيلوبن وله ساعد قصير بطول ٢٥ سم ويعرف هذا الوعاء باسم « الكبشة » .
 وصب السمن منها على المنسف يعرف باسم « التفير » ، وبعد انتهاء المضيف من صب « القفرة » يقول عادة بعض العبارات منها قوله : « الله والنبي يجيكم ، افلحوا يا غانمين - ما في شيء من الواجب - الحيلة على تشريفكم » بينما يجاوبه الضيوف بقولهم : « الله يكثر الخير - هذا خير الله - الله يجي نباك .. الخ » .
 (انظر شكل ٨)

ثم يبدأ الضيوف بتناول الطعام ويدعى بعدم بقية المدعوين أي الوجهاء فالمسنون فالفتيان فالأشخاص العاديين فالمعازيب ومفردها « معزب » أي اصحاب البيت المضيفون . وهم يجلسون القرفصاء على المائدة ، ولكلهم يقدمون كرسيًا صغيرة او مائدة للمتفرنج ، ويأكلون الطعام بأيديهم ، ولما يستخدمون الملعقة والشوكة والسكين (انظر الشكل ٩)

وعندما يرفعون « الطبق » وهو بساط مستدير مصنوع من قصل القمح الملون ، يوضع تحت المنسف ، يقول الحاضرون : « الله يكثر الخير ، او دايمة او بالافراح انشاء الله » .

وهذا النوع من الولاثم التقليدية المحلية يعرف باسم « كرمه المنسف » نسبة الى الوعاء الذي يسكب فيه الطعام . وفي نهاية الوليمة يطالب عدد من المدعوين بان يسمح لهم « المعزب » اي المضيف بدعوة الضيوف الى مضافاتهم لتناول الغداء او العشاء او لاحتساء القهوة ، وهنا لا بد من وصف المضافة ومحتوياتها .

فالمضافة هي غرفة استقبال الضيوف ، في محيطها الداخلي مصطبة بار تقاع

أربعين سنتمترا وبعرض متر أو يزيد تسمى « الطواطي » ، تفرش بالافرشة والسجاجيد والعجديات اي لبايد من صوف ، وبالوسائد الصوفية والحريبة وفي صدر المضافة حفرة مبلطة تسمى « النقرة » وهي بعرض حوالي ٧٥ سم وبطول متر أو اكثر ، وبعيق اكثر من عشر سنتمترات ، توضع فيها اباريق طبخ القهوة المرة ، وأدواتها وهذه الاباريق تصنع غالبا من نحاس وذات اشكال خاصة اكبرها يسمى « الدلة » واصغرها « الغلاية » ومنها تصب القهوة المرة للضيوف في فناجين خاصة وهناك « المحماسة » لتحسيس حب القهوة ، وهي صحن مستدير من حديد قطر دائرته يتراوح بين ٢٠-٣٠ سم ولها ساعد طويل يبلغ حوالي ٧٠ سم يقبضه بيده اليسرى اثناء التحسيس بينما يقبض بيده اليمنى يد المحماسة وهذه عبارة عن سيخ من حديد بطول ٦٠ سم تقريبا وتنتهي بكفة صغيرة يقرب قطر دائرتها من ١٠ سم . وهناك « البرادة » وهي وعاء من خشب مزر كش الصنع يوضع فيه حب القهوة ليبرد بعد تحميصه . اما « الجرن » فهو من خشب البطم او التوت ، مزر كش الصنع ايضا يوضع فيه حب القهوة ليدق بيد خشبية جميلة الصنعة ، ولدق القهوة ايقاع موسيقي خاص وصوت معروف يشير الى طبخ القهوة وكأنه ينادي الجيران وسامعي الصوت لاحتسائها (انظر شكل ١٠) .

والمضيف الكريم يبش لضيفه ويحتفي به بجمرة وذلك بسؤاله عن احواله وعن أهل بيته وعن فارقمهم ، وبتجديد طبخ القهوة واذكاء النار اذا كان الفصل شتاء وبزيادة الافرشة والوسائد وبتقديم بعض الطعام قبل الوليمة الكبيرة التي يقيمها له ، وبالوقوف مع الترحيب المتكرر بقوله : « أهلا وسهلاً » فيجاوبه الضيف : « بالمؤهل » او الله يديم مهلتك .

وعندما يدخل الشخص ، اي شخص ، الى المضافة يؤدي التحية الى الموجودين فيها بقوله : صباحكم بالخير (قبل الظهر) والسلام عليكم (ظهراً) ومسيكم بالخير ، أي مساكم الله بالخير (بعد الظهر) ، فيردون عليه التحية ثم

يقفون عادة احتراماً له ، ويجاول كل منهم دعوته للجلوس بالقرب منه من قبيل
المجاملة ، وخاصة اذا كان الداخل عليهم ضيفاً او زائراً غريباً . وبعد جلوسه
بلحظات يجيونه بقولهم : صباح الخير ، او مساء الخير ، فيرد التحية بأحسن منها
فيقول : صباحكم بألف خير .. واذا صادف ان شرب احد الحضور ماء يقولون
له : هنيه وعافية . فيجاوبهم بقوله : هناكم الله بالجنة والعافية .

اما تقاليد الافراح فتبدو على اوضح ما تكون بمناسبة الاعراس ، فقبل
ليلة الزفاف ببضعة ايام يجتمع كل مساء عدد كبير من الفتيات والفتيان في دار
العريس يفرحون ويمرحون وينشدون مختلف الاهازيج والاغاني ، منها ما يعرف
باسم « الجوفية » وهو لحن من الغناء الحماسي ينشده صف من الرجال ثم يردده
بعدهم صف آخر يقابلهم . ومنها نشيد « الفن » حيث ينتظم خمسة او سبعة
اشخاص في صف واحد ويسرون ببطء شديد في المضافة او في صحن الدار ،
ويشرع الاول منهم بالقاء « قصيدة الفن » بلحن خاص ثم يردد الآخرون بعده
مطلع القصيدة غالباً وبعض فقرات منها في بعض الاحيان ، ومنها « الهولية »
وهي ان يتشابك الرجال الايدي في حلقة واسعة ويدورون بخطا موزونة وهم
يرددون بعض الاغاني ذات الالحن الجميلة ، ومنها « الدبكة » وهي رقصة
شعبية بصطف فيها بضعة شباب وامامهم لاعب « المجوز » او الناي يثير حماسهم
في رقصة شعبية لا تخلو من الاتارة والحماسة . ومنها « السحجة » حيث يقف
بعضهم صفاً او صفين متراصين متقابلين ثم يصفقون مرددين كلمة « دحيو »
ببطء ثم بعنف وسرعة .. والسحجة معروفة لدى جيرانهم البدو اكثر مما هي
معروفة لديهم .

وقد يقيم الرجال في بعض الاعراس سباقاً للخيل وهذا من هواياتهم
المحببة اليهم ويسمى « الميدان » . ثم انهم يستخدمون من الآلات الموسيقية
الربابة والناي والمجوز ، بينما تزغرد النساء ويستخدمن الدربكة والدف ، مع
العلم ان احتفالات النساء منفصلة عن احتفالات الرجال ويسمح بالاختلاط

أحياناً بين الأقرباء . وفي ليلة الزفاف يذهب الرجال الى دار العروس ليأتوا بها الى دار العريس في موكب حافل ، وتركب عادة على فرس مزينة بالسناثر المزر كشة ونحيط بها الفتيات وهن يشدن الاغاني المختلفة ويتقدمهن الرجال بأغانهم الخاصة .

وفي اليوم الثاني يأتي مواطنو القرية لتقديم التهنئة للعريس وذويه ، وفي المساء يدعون لوليمة عشاء بمناسبة الزفاف .

هذا وصف خاطف للاعراس كما تجري في الوقت الحاضر ، وقد اردنا الاقتصار عليه دون وصف الأعراس القديمة ، على ما فيها من غرابة وطرافة ، لانه لم يبق لها اثر من جهة وتجنباً للاطالة من جهة ثانية . ومن تقاليد جبل العرب انه اذا توفي احد المواطنين الوجوه فان على اهله وذويه ان يقيموا له بعد وفاته مجوالي اسبوع حفلة تأبين يسمونها « حفلة الاسبوع » يدعون اليها المواطنين من القرى المجاورة والبعيدة احياناً ، وذلك تبعاً لمكانة المتوفي واهميته الاجتماعية . وغالباً ما توجه الدعوة باسماء العائلات او باسم شيخ العائلة والمتنفذ فيها ليدعو بدوره افراد عائلته . ويشعر المدعوون بضرورة المساهمة واداء التعزية لما في ذلك من محافظة على صداقة الداعين من جهة ولتتاح للآخرين ان يبادلوه مثل هذا الواجب من جهة ثانية . وعندما يصل المدعوون الى مكان الاحتفال ، يقدمون تعازيمهم لآل الفقيد وهي على نبط واحد متشابهة ، تغلب عليها نزعة المبالغة والاطناب في وصف الفقيد ومدحه . ويبدو ان آثار العصور العباسية المعروفة بالمبالغات والتضخيم لا تزال متمثلة في مثل هذه التقاليد . ويبدأ الكلام عادة شيخ العائلة ولا يشترط ان يكون اكبر افرادها سناً ولا اكثرهم كفاءة وشجاعة وكرماً ، بل من البيت الذي يتوارث ابناؤه رئاسة العائلة وزعامتها . وتقف عادة وفود المعزين في صف مستقيم مقابل آل الفقيد وعلى مسافة تقرب من عشرة امتار او تزيد . فيقول المعزون :

- خاطرنا عندكم = ويرد آل الفقيد بقولهم : سلم خاطر كم

- عز علينا = سلم من تعز (اي سلم الله من تعز)
- ما كان بدنا كسر خاطر كم = الله لا يكسر لكم خاطر
- العزاء سنة والغارط (الحسارة) من كيس الجميع = الله لا يشوفنا
(يرينا) عليكم ضم

- الله يرحمه = تعيش وترحم (ترحم بعد الموت) .. الخ شكل ١١ .
ثم قد يطنب واحد او اكثر من المعزين بذكر صفات الفقيد وشجاعته وحسن
سلوكه ونبل موافقه .. لان في ذلك عزاء لآله وذويه .

وفي نهاية المآتم ايضاً قد يرثي بعض الاشخاص الفقيد بكلمات ارنجالية
او خطية . وقبيل الدفن تجري الصلاة على الميت بالشكل المعروف لدى السنة
شكل - ١٢ - ثم تقرأ وصية المتوفى و ثم يقف الجميع في حلقة واسعة بعد
الدفن وتجري تعزية عامة مشتركة لآل الفقيد وينتهي بذلك الاحتفال ثم يبدأ
اهل القرية بدعوة الضيوف الى بيوتهم لتناول الطعام ، ويسعى كل منهم
جاهداً لأن يحصل على اكبر عدد منهم . ويدعو احد الجيران عادة آل الفقيد
لتناول طعام الغداء او العشاء لديه . اما الاشخاص الذين لم تسمح لهم ظروفهم
بحضور حفلة الدفن او حفلة الاسبوع فقد يأتون في اوقات اخرى الى بيت آل الفقيد
ليقدموا تعازيهم ، اما النساء فيجتمعن في مكان اخر ويندبن الفقيد بالحن حزينة
خاصة .

ومن المعروف كذلك ان للعائلات تصنيفاً خاصاً او ترتيباً تعرف به
مكانة العائلة ، فاذا صادف ان اجتمع افراد عديدون ينتمون الى عائلات متعددة
وأرادوا توقيع عريضة او بيان ، فالاسماء توقع على اساس الترتيب العائلي ، واذا
حاول احد الافراد ان يوقع في غير المكان المخصص له ولعائلته فانه يثير خصومة
بينه وبين العائلة التي احتل مكانها في التوقيع وقد تصل هذه الخصومة الى حد
المقاطعة والمشاجرة والاشتبك بالعصي والحجارة ، وهذا ما يسمى حسب التعبير
المحلي « بالنزاع حول الحتم » .

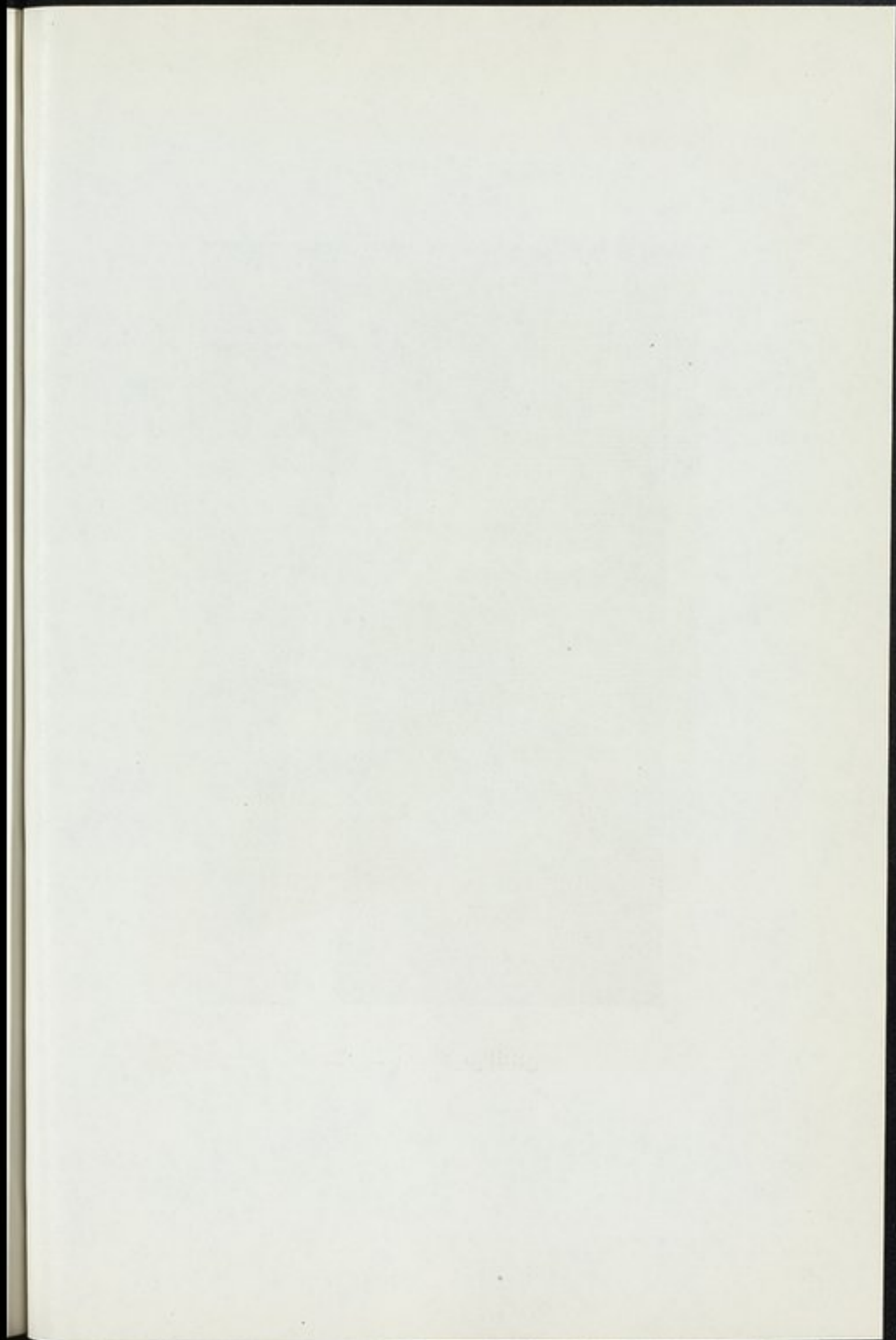
ومنذ زمن غير بعيد ، وبعد انقضاء احدى حفلات الاسبوع التي ألتحقنا
اليها ذهب المدعوون كالعادة لتناول الطعام في بيوتات القرية ، وقد دعي اكثر
من عشرين شخصاً الى احد البيوت ، وقبل دخولهم « يتعازمون » اي يعرض
كل منهم على الآخرين من أجل الدخول اولاً ، ولكن دخولهم يحصل عادة
حسب ترتيبهم العائلي . وصادف ان اثنين من المدعويين قد اختلفا على ترتيبهما
العائلي ، حتى اذا مادخل احدهما قبل الآخر اكفهر وجه هذا الاخير وأخذ
يتحين الفرصة ليضع حداً لذلك الذي تمادى واعتدى بدخوله قبله . وبعد جلوسهم
في المنزل يبضع دقائق أراد المضيف ان يقدم لهم القهوة حسب ترتيبهم في الدخول
وعندما بدأ وقدم القهوة لمن دخل في المقدمة ، اغتاض الرجل الآخر وصرخ
بقوة في وجه المضيف قائلاً : « المسألة بحاجة الى ذوق » . كما التفت الى خصمه
وقال بصوت مرتفع حاد : ألا تعرف مكانك وختمك؟! ألا تخجل من تصرفك
هذا؟! والنتيجة الطبيعية لهذا القول هي وقوع المشاجرة والمضاربة بينهما ولولا
تدخل الباقيين والحيلولة دون استمرار المشاجرة لفتك القوي منهما بالضعيف .
والحق اننا لو نظرنا الى هذا الحادث بتفحص وإمعان لوجدنا فيه تعبيراً واضحاً
عن تقاليد واعتبارات اجتماعية كان لها ما يبررها فيما مضى من الزمن ولكنها
أصبحت اليوم بالية مهترئة ، وغداً بقاؤها دليلاً على الجمود والتخلف . ليس هذا
فحسب بل ان في هذا الحادث ما يشير الى خطر العقلية القبلية والعصبية العائلية
حيث تصر على تكميل المواطنين بقيود وتقالييد موروثية ، ولا تقيم وزناً
للكفاءة والجهد والاخلاص للوطن وما الى غير تلك من الفضائل والامكانيات ،
ونعني بذلك انه مادام كلام الشيخ أي زعيم العائلة مسموعاً مطاعاً ، ولو كان
هذا الشيخ أمياً جاهلاً ، وكثيراً ما يكون كذلك ، وما دام رأيه يمثل
بمجموع العائلة وله الحق في التوقيع باسمها ، ويتمتع بامتيازات قد تصل حد
المساومة على اصوات افرادها وبيع هذه الاصوات في بعض المواسم الانتخابية ،
نقول مادام ذلك كذلك فلا مجال لظهور الكفاءات ولا مكان لانطلاق المواهب
والامكانيات ، ولا جدوى بالتالي من ان يبذل المخلصون الموهوبون جهودهم

لكي يرتفعوا الى المستوى الذي يؤهلهم له اخلاصهم ومواهبهم . وبعد : فلسنا
مبالغين اذا قلنا ان العصبية العائلية ، بما يرتبط بها عادة من تحزبات قروية
وعنعات ضيقة ، وبما قد تولده من مناخرات حادة ، وخصومات شديدة حول
انتقاء المخاتير او النواظير او اعضاء البلديات او بمناسبة الانتخابات ، انما هي في
مقدمة الامراض الاجتماعية المعرقة للوحدة القومية والمعيقة للانسجام القومي
بين المواطنين ونحن بالرغم من قناعتنا بان تزايد الوعي القومي كفيل بالقضاء
على هذه العصبية العائلية فاننا نعتقد من الضروري تعجيل الزمن للاجهزة عليها
وذلك بتركيز الجهود على مقاومتها في مختلف المستويات وعلى الصعيد الحكومي
والشعبي .

(شبلي العيسمي)



شكل - ١ - القرص المشتل



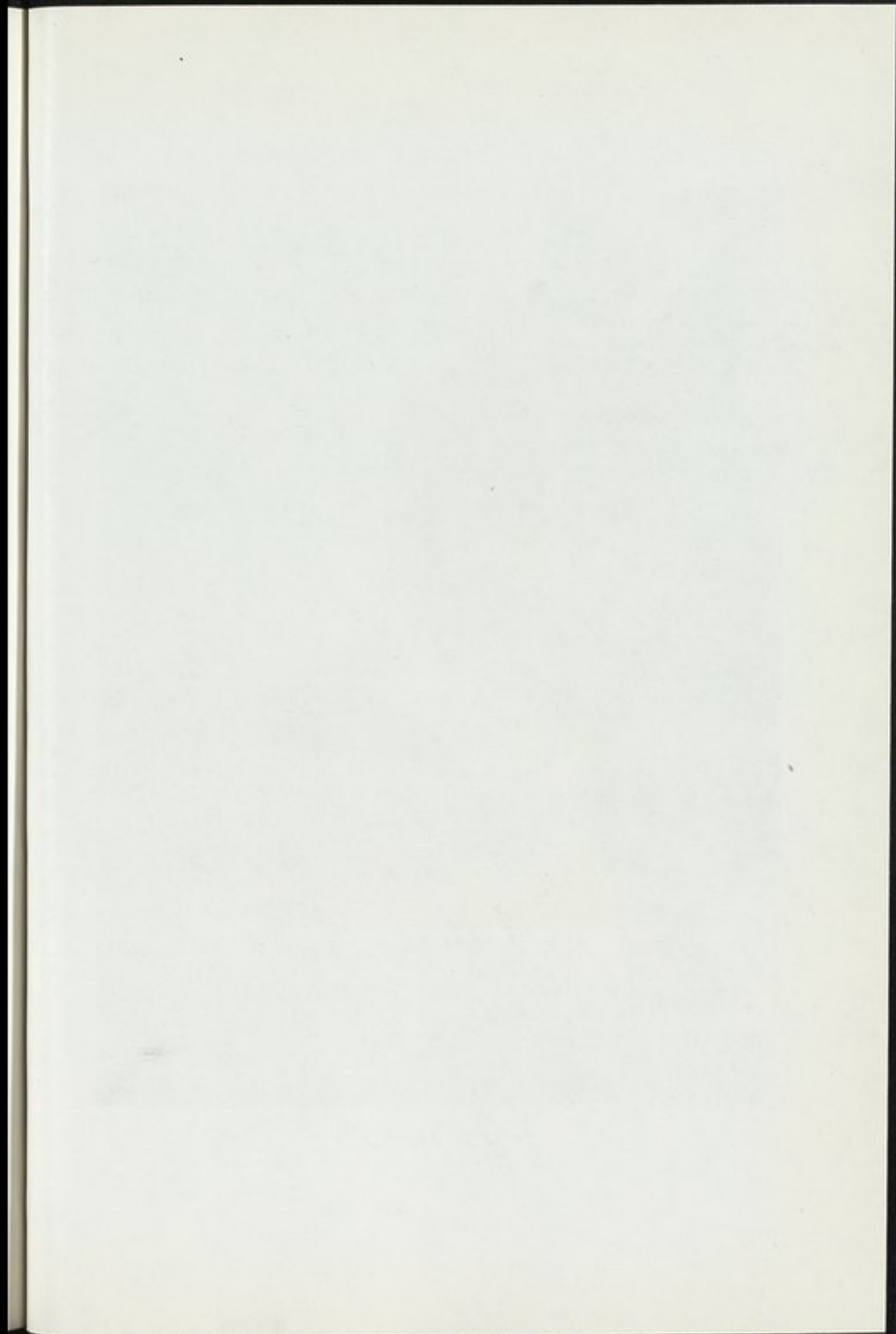


شكل - ٢ - اقباس التبريدي التامة

PLATE 10

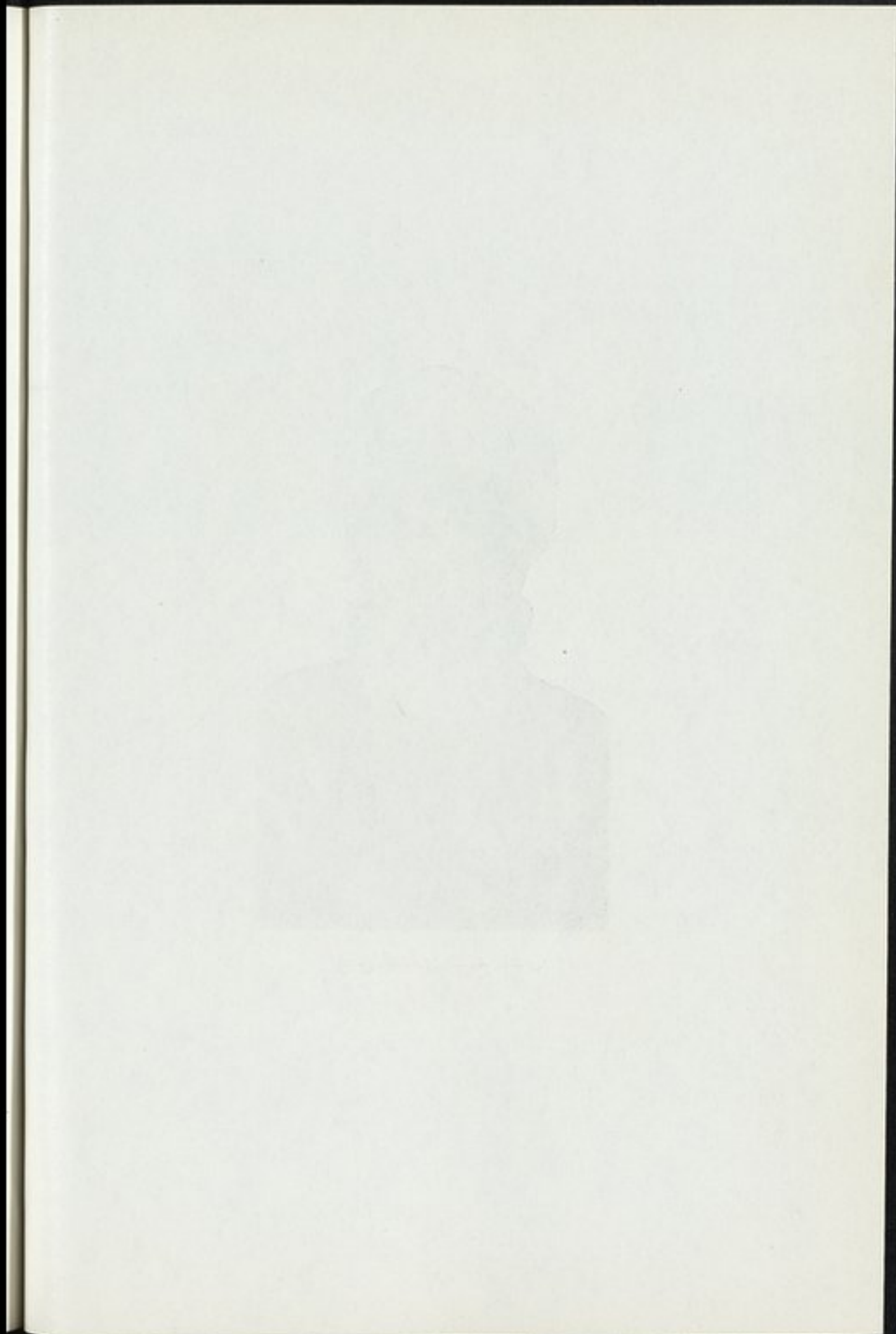


الباس التقليدي للفتى والفتاة



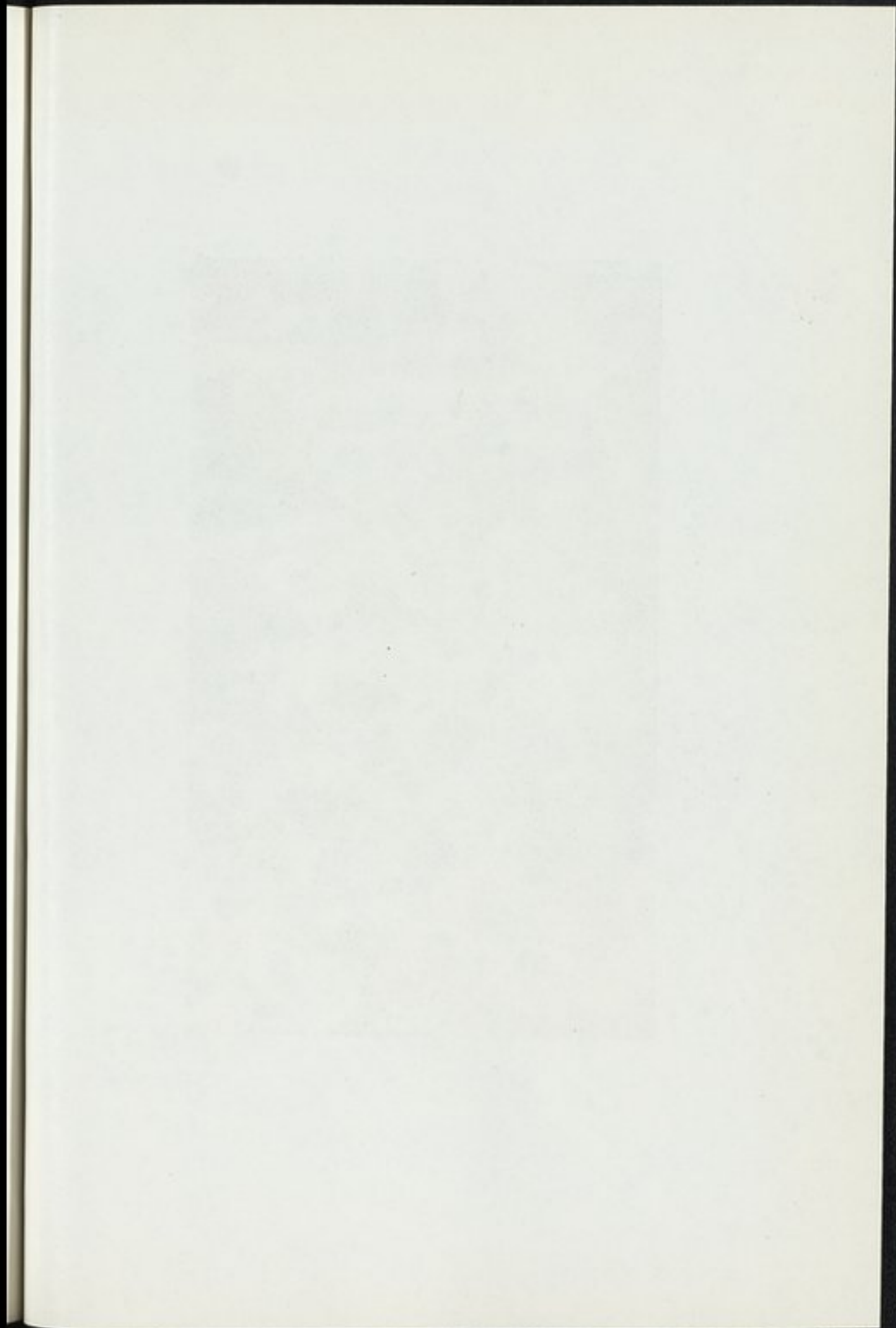


الباس التقليدي للشيخ المندين



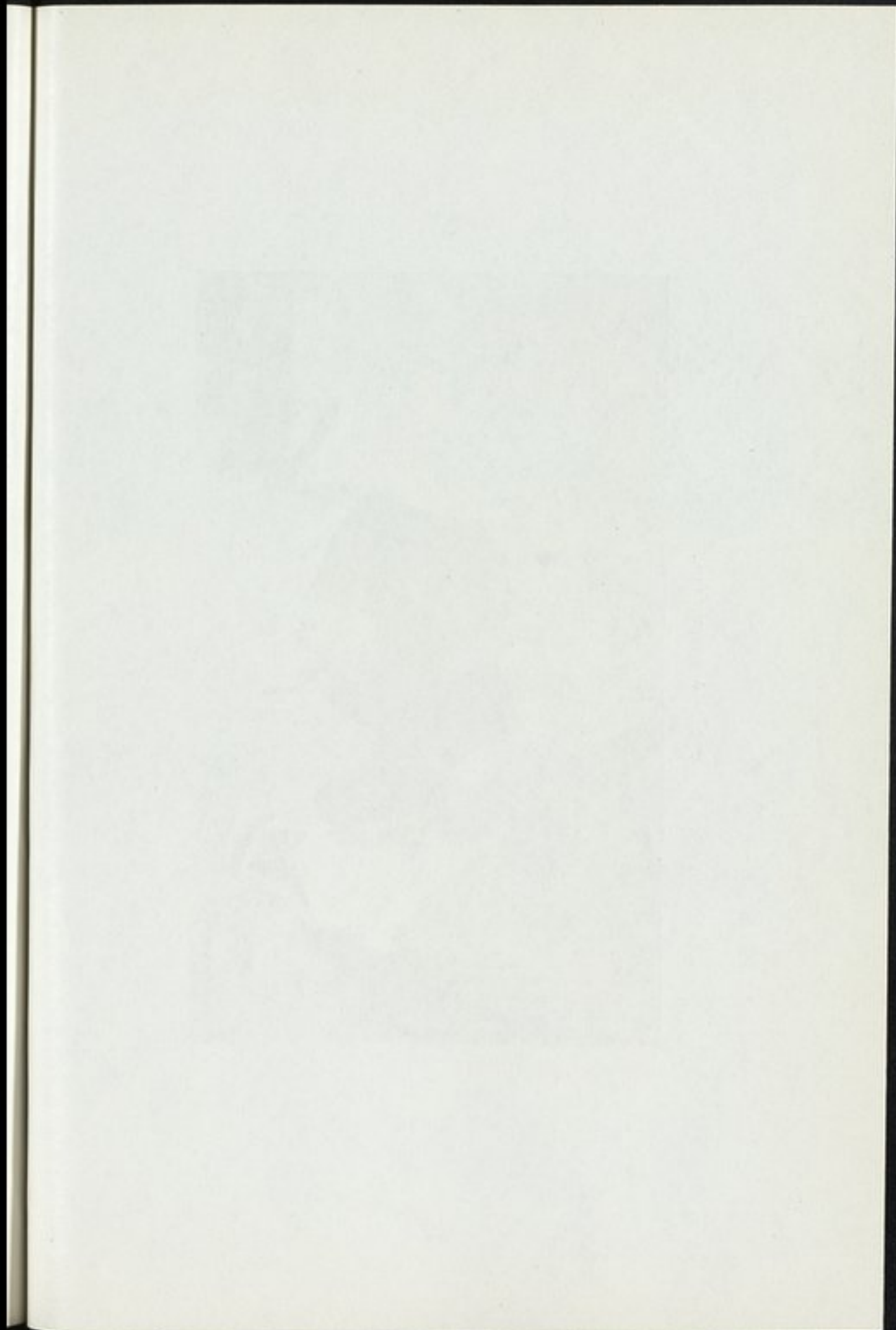


النجاة في احد الأيام - الناس جال من الورقة



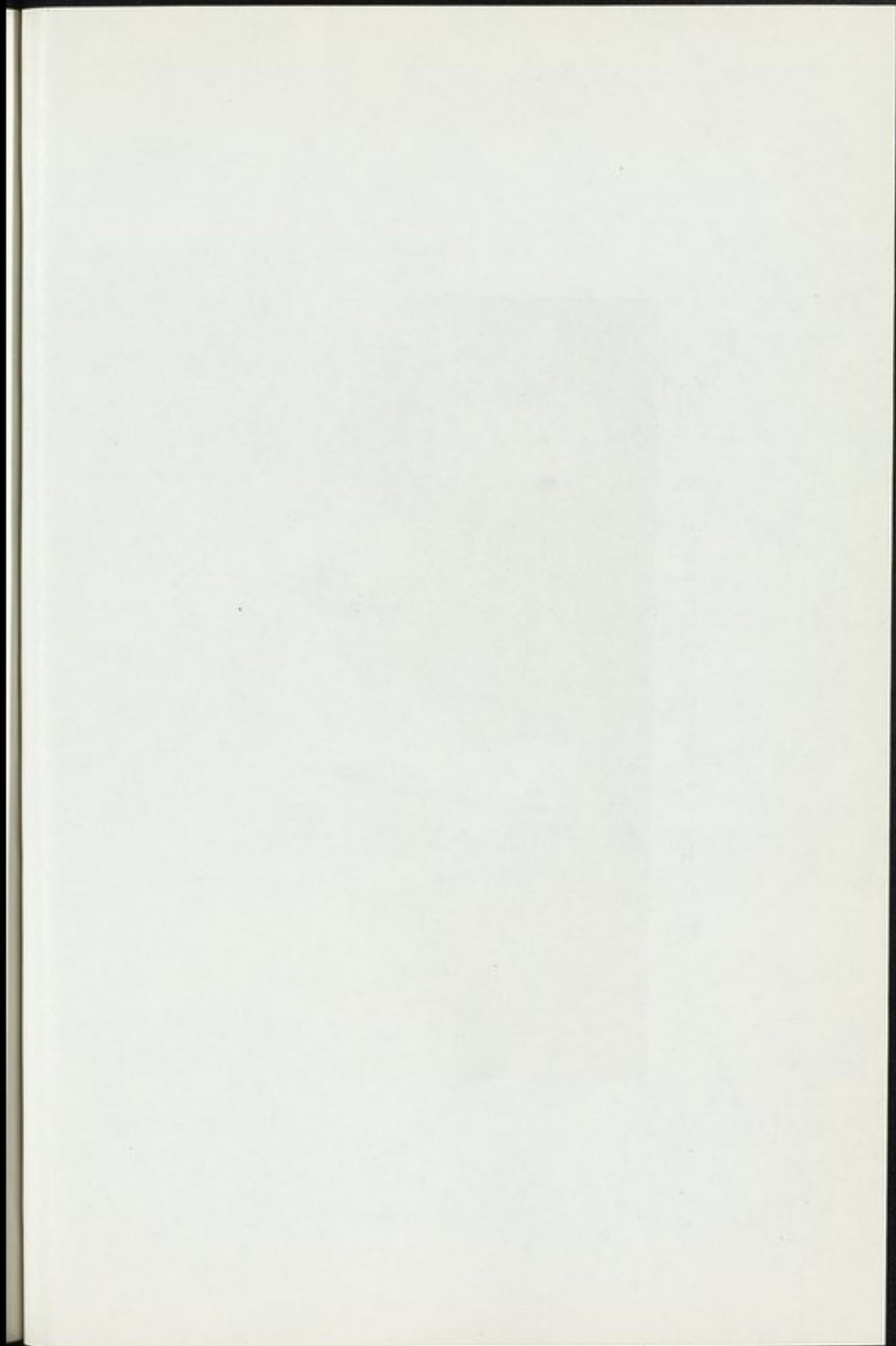


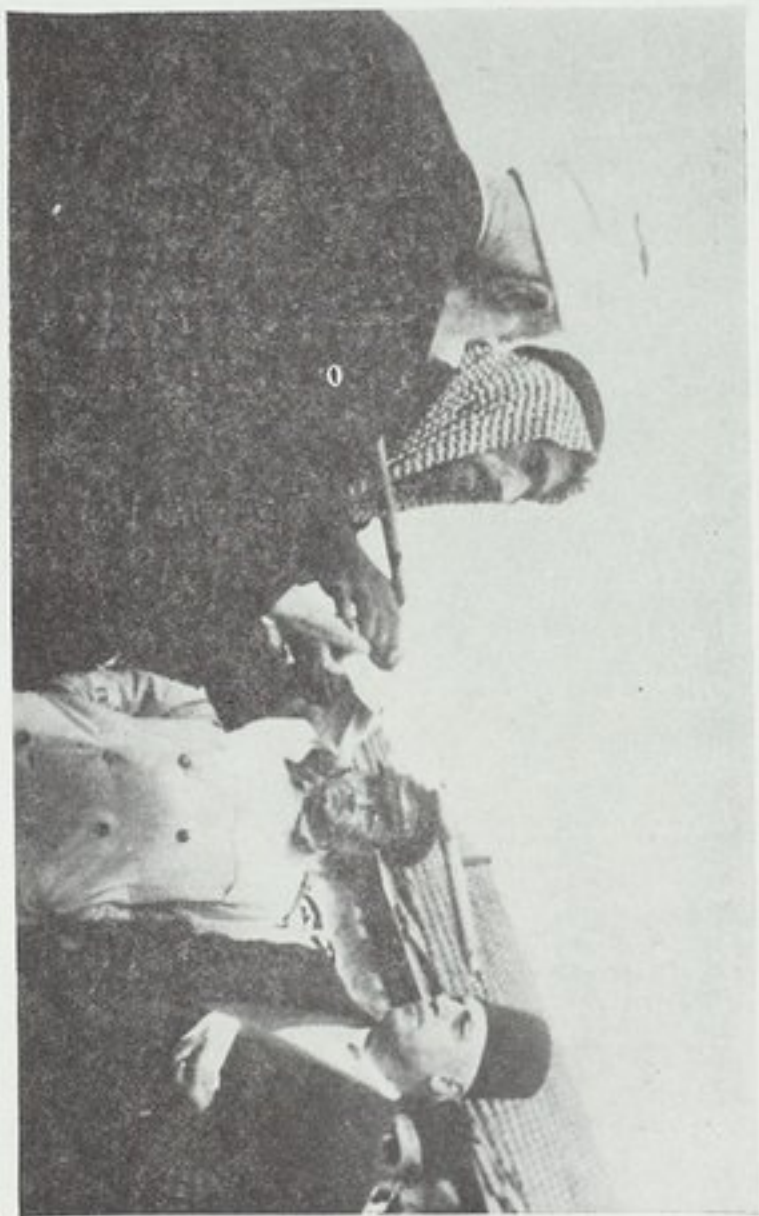
شكل - ٣ - عند الزواج



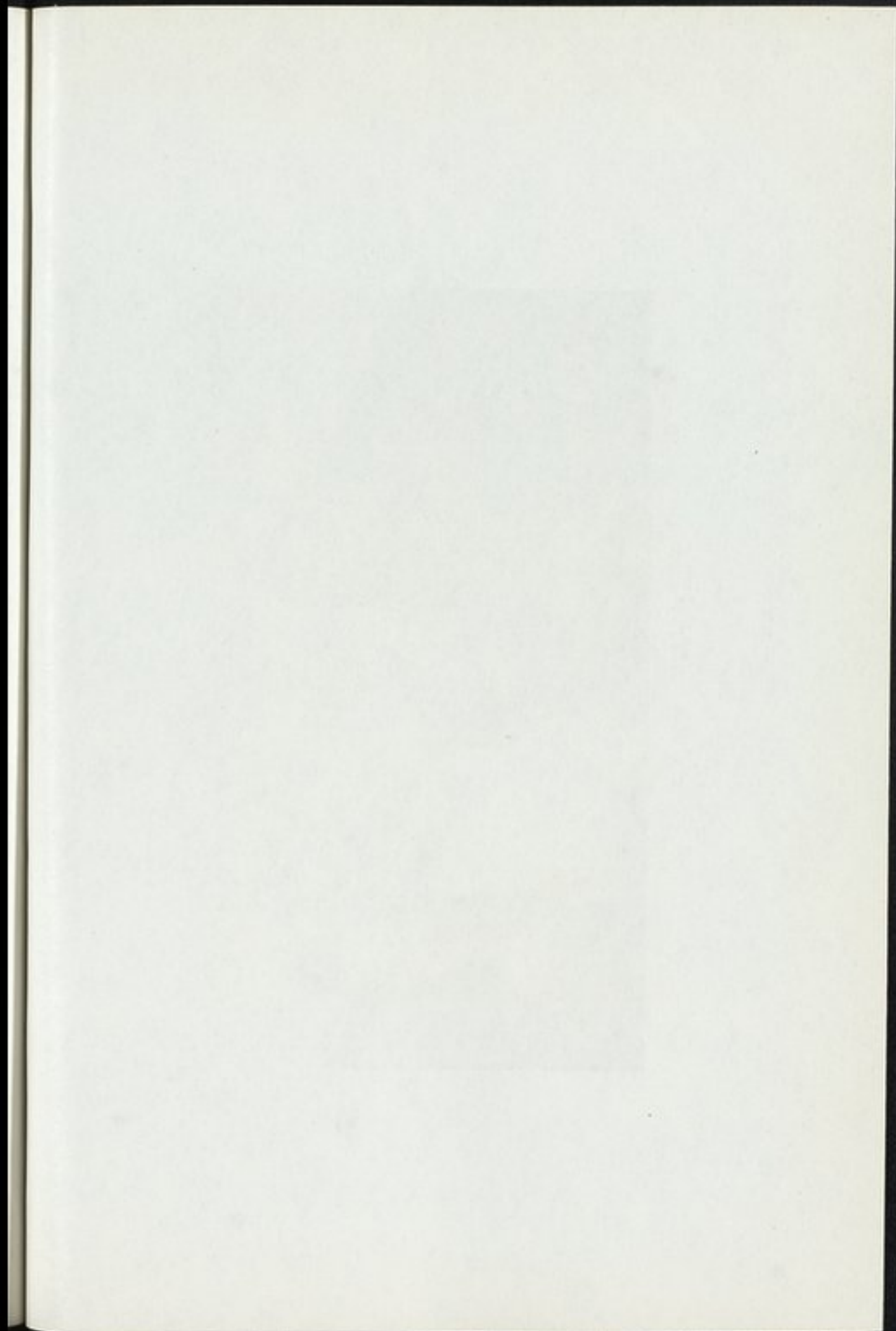


شکل - ۴ - فارسان فی حالہ الاستعداد القتلیہ





شكل - ٧ - عند زيارة العتبات





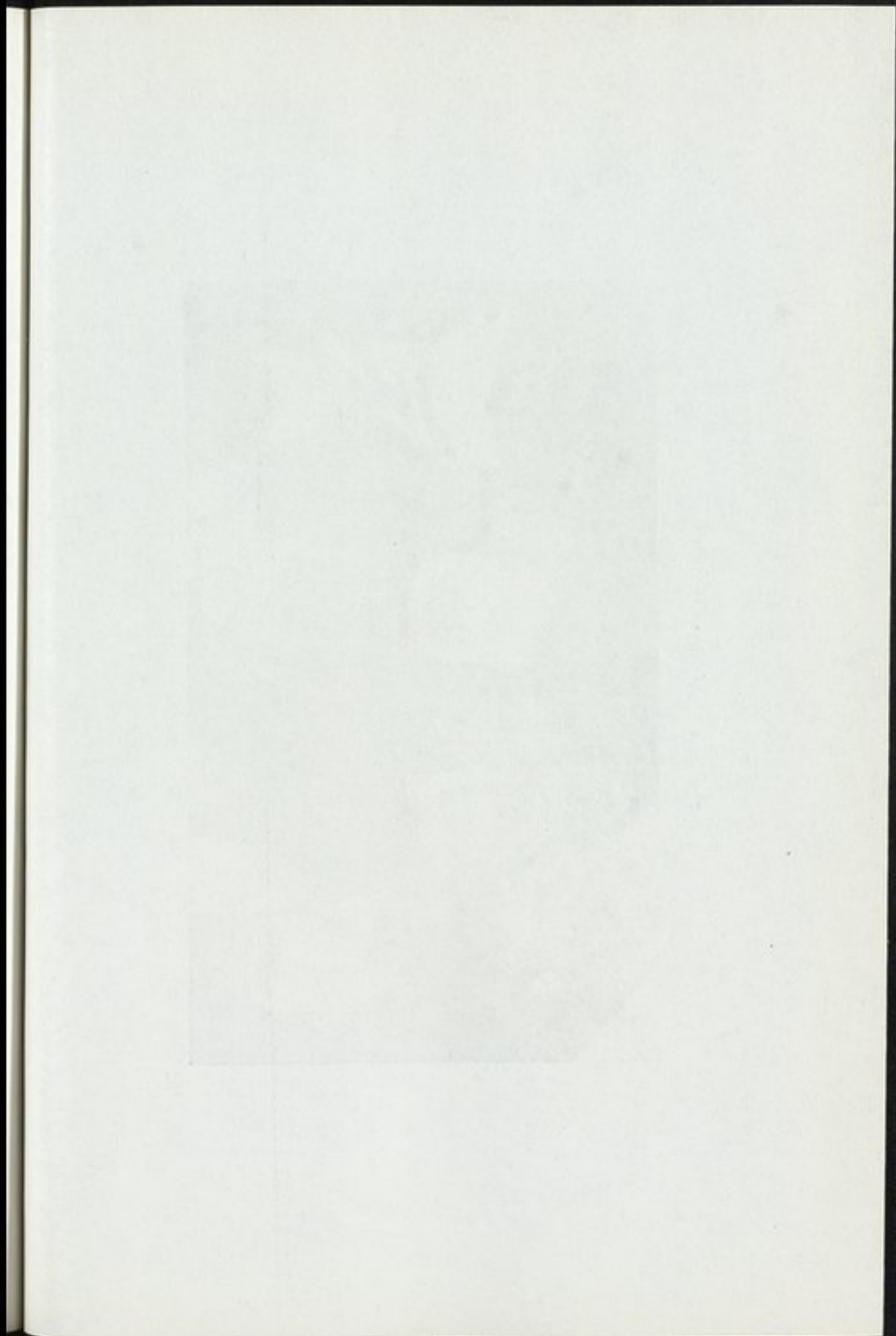
شكل - ٨ - التقدير باليمن على النفس

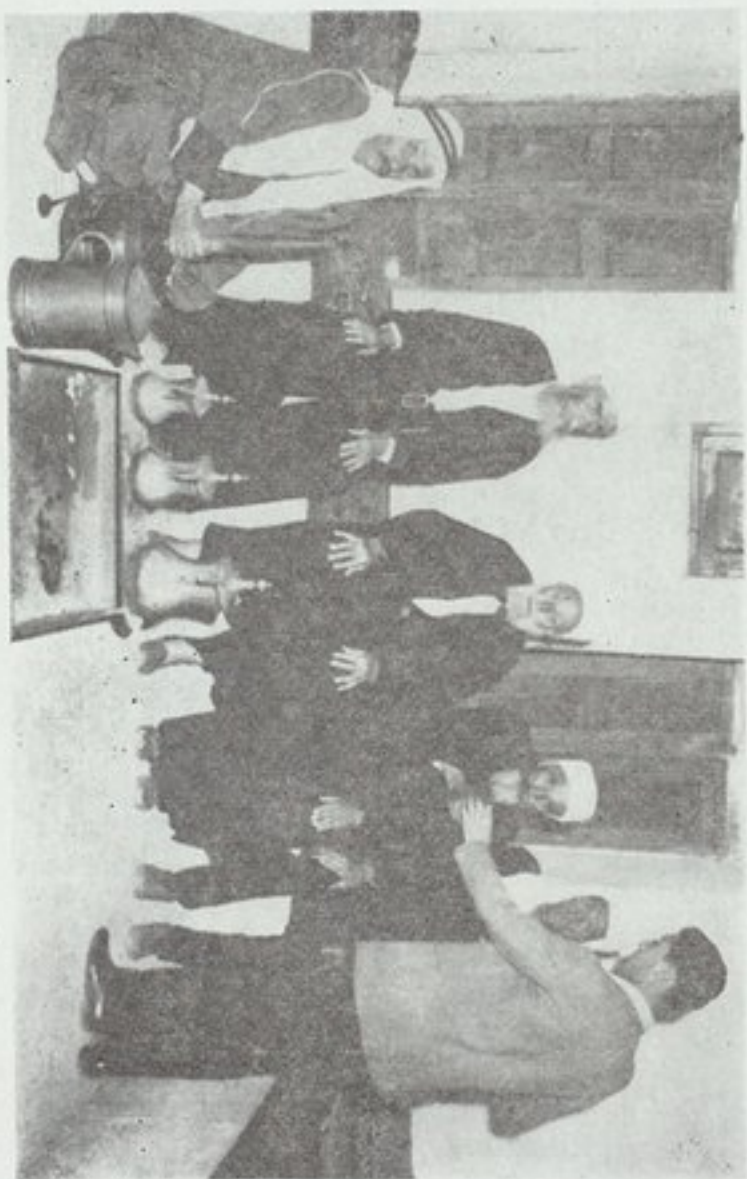


200 - 1000 - 1000 - 1000

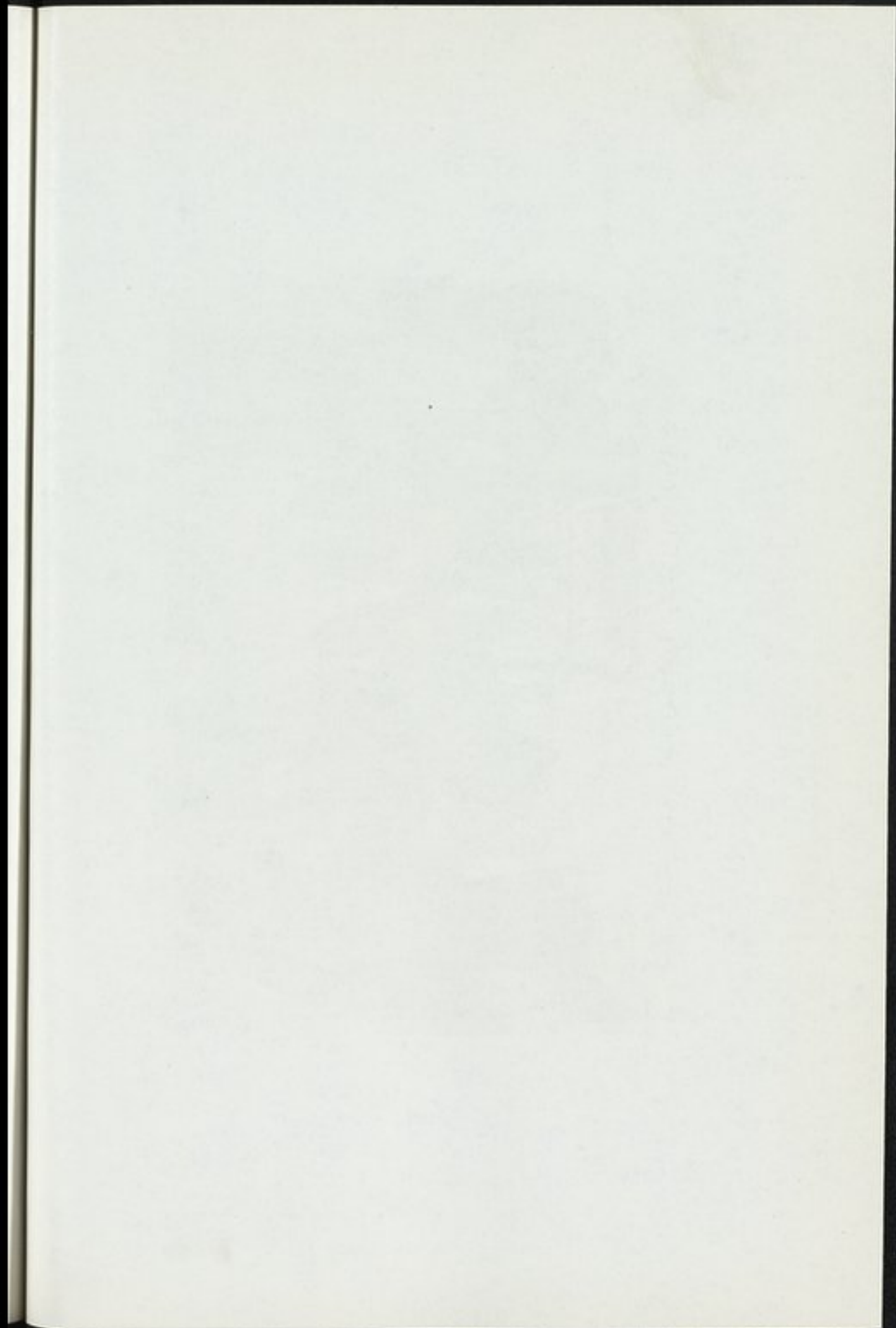


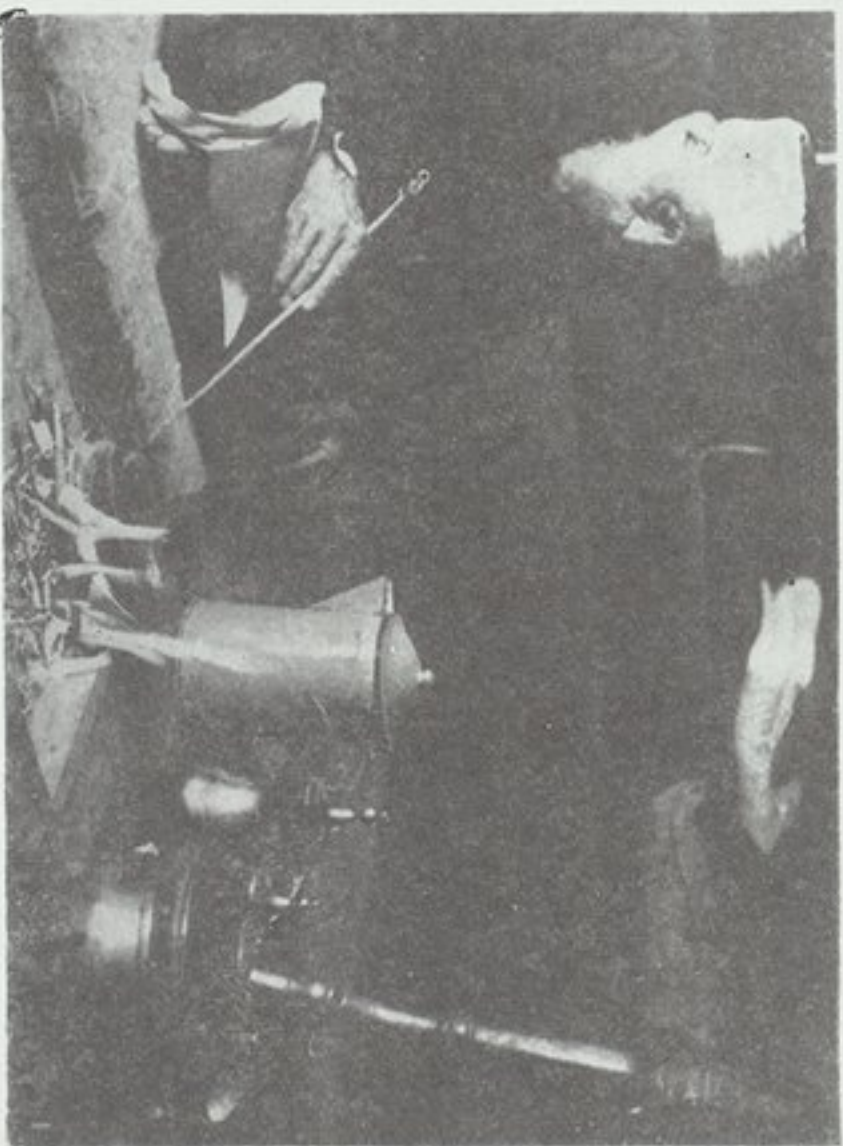
شكل - ٩ - تناول الطعام من النصف



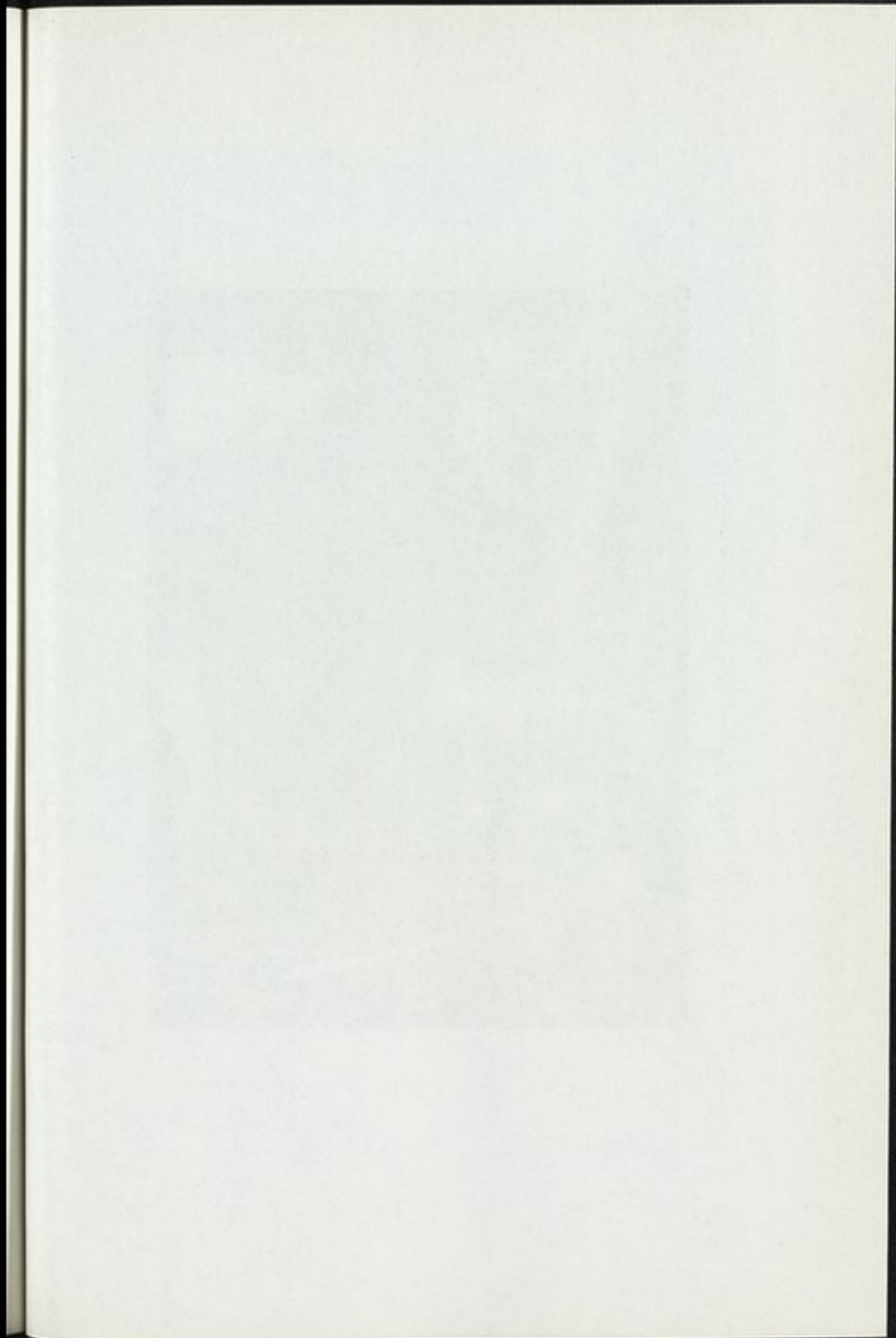


شكل - ٠٠ - المصانعة وصيب القهورة ، والأباريق والتفجرة والجرن



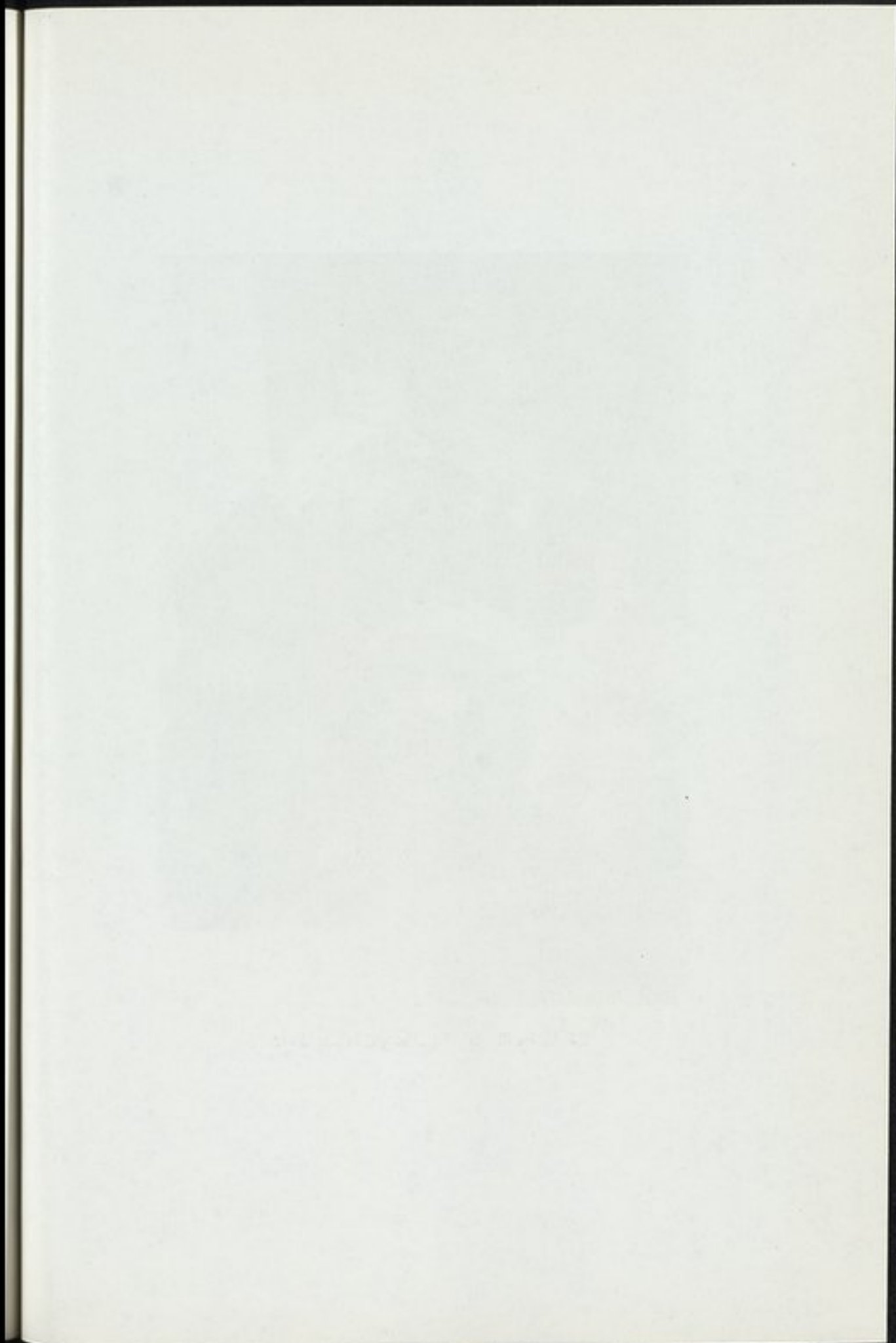


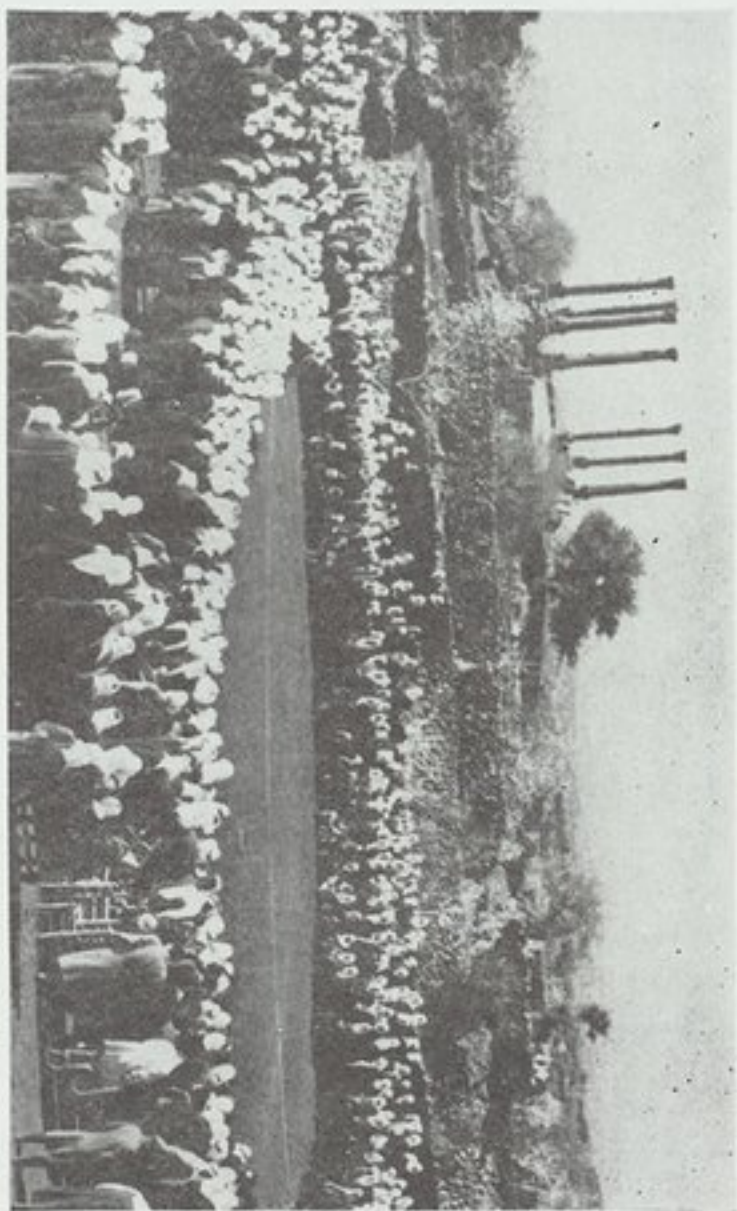
تابع شكل - ١٠ - شينغ بحس البروة بالهامة و بجانبه جرت البروة و اذ يرقها



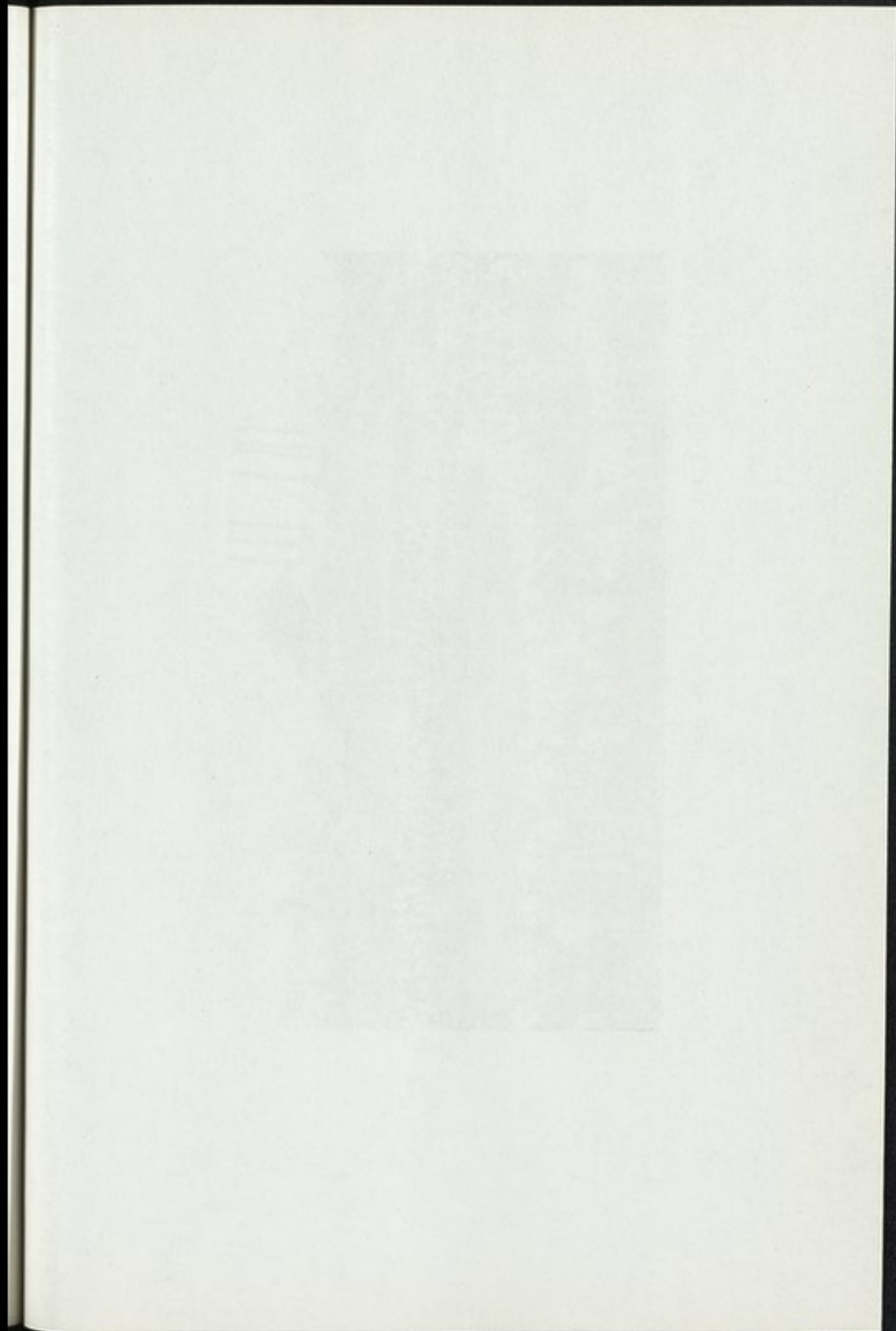


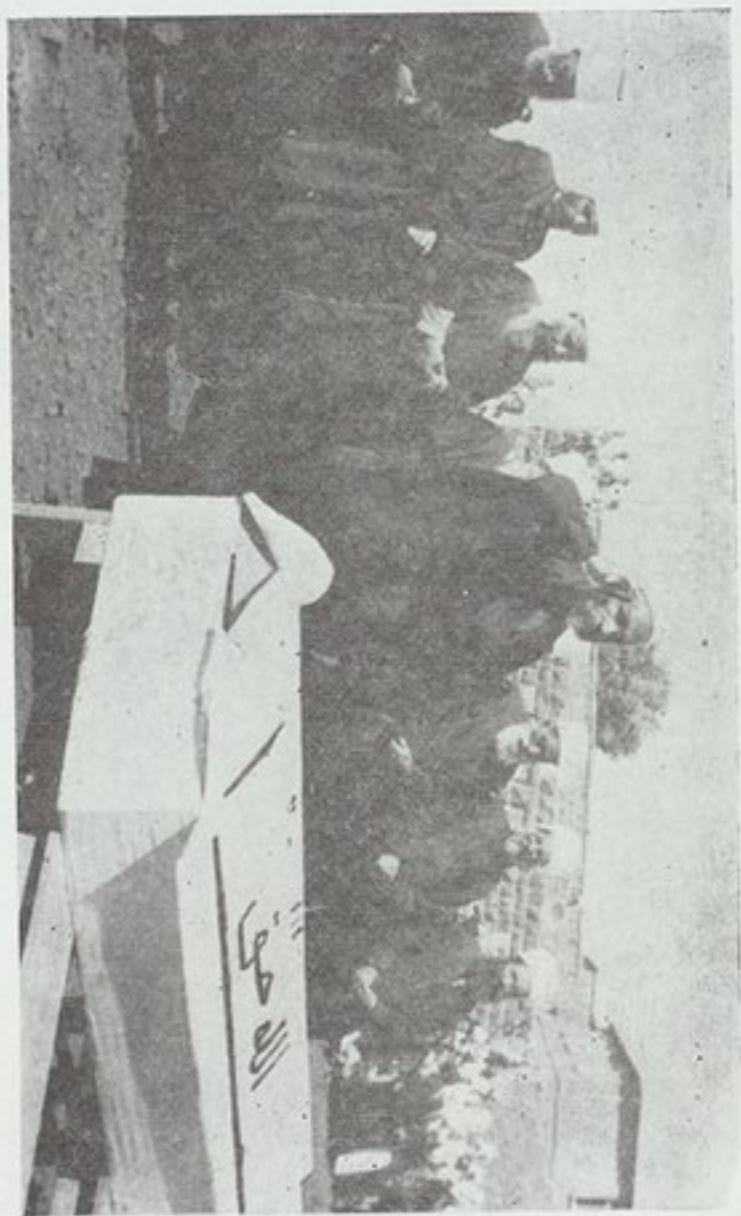
شابان يتحادثان ويجانباها اباريق القهوة المرة



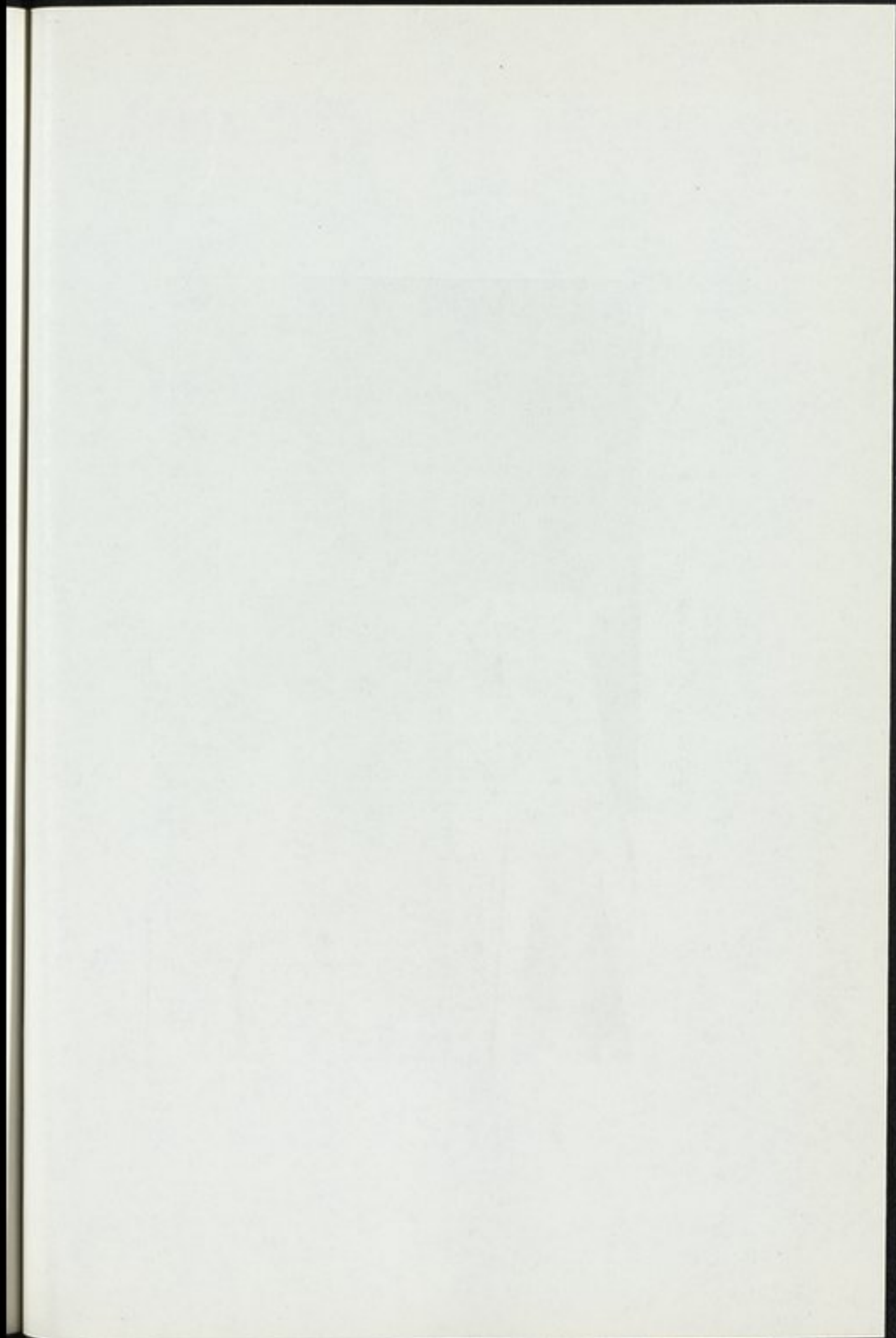


شكل - ١١ - إحدى حفلات الأسبوع - التام - في قرية قنرات

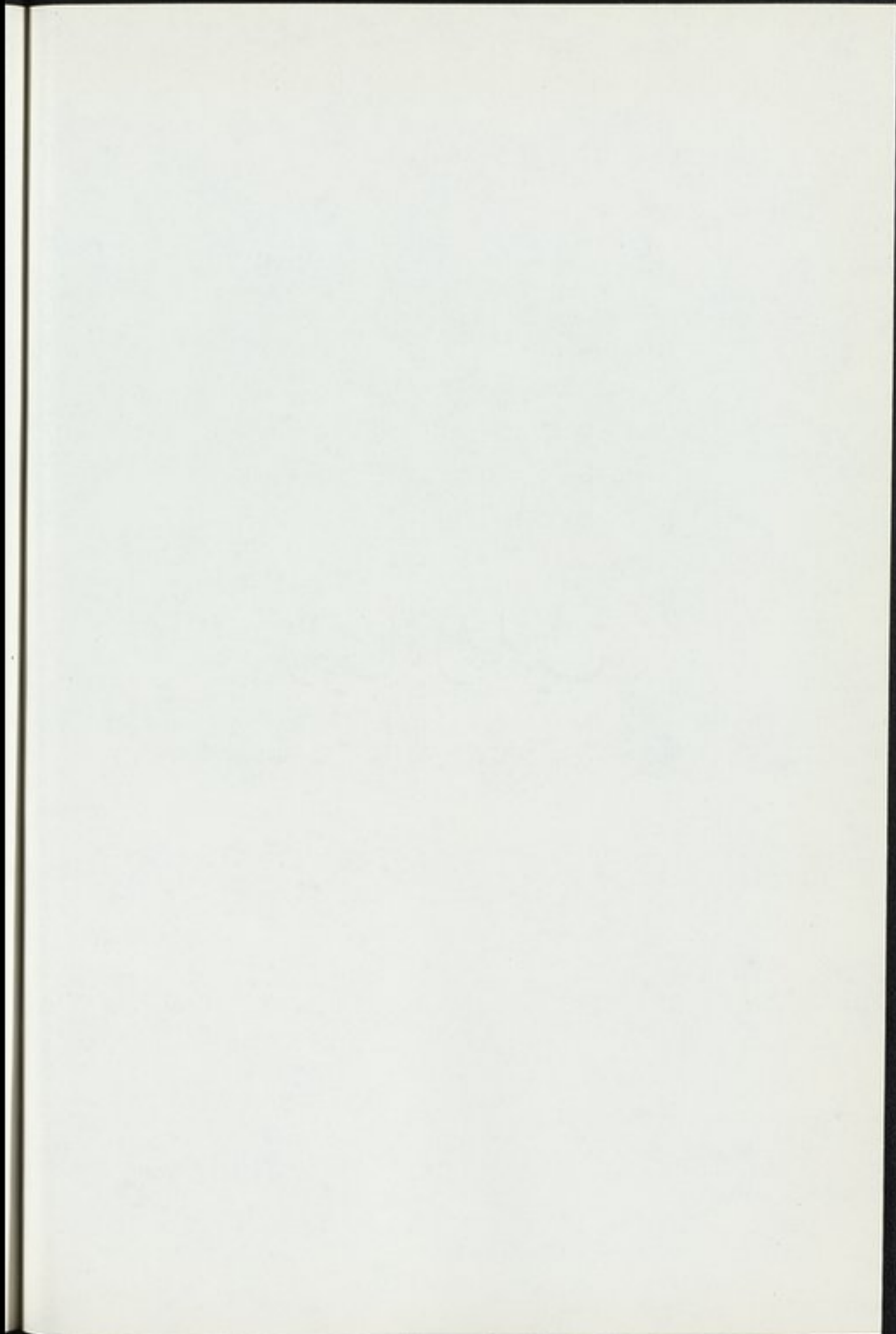




شكل - ١١ - الصلاة على البيت



الحياة العلمية



استقر بنو معروف، في الجبل بعد جهاد طويل ونضال مستميت، وكان الجبل خالياً قبل قدومهم من السكان المتحضرين ماعداً بعض القبائل البدوية المتنقلة بين ربوعه وأخذوا يتحضرون شيئاً فشيئاً فاهتموا بالتعليم شأن اهتمامهم بمختلف نواحي الحياة الأخرى وساعد على ذلك وجود أهل العلم بينهم خاصة من رجال الدين ومن المهاجرين ذوي الإطلاع والمعرفة.

وكان رجال الدين قديماً يقومون بتعليم الطلاب نصوصاً من المذهب الديني ويعودونهم على الكتابة. ثم انتشرت الكتاتيب في القرن التاسع عشر حيث كانت تدرس فيها بعض مبادئ القراءة والكتابة والحساب وبعض العلوم الدينية. وكان الأقبال قليلاً على هذه الكتاتيب وكانت أوراقهم عبارة عن ألواح تنك تظلي بهباب أسود أو ألواح حجرية. وكان أهل القرية يقدمون المسكن والطلاب يقدمون الطعام فريضة يومية. وكثيراً ما كانت تساء هذه المهمة.

ومن ناحية الأجرة فقد كانت تجمع في البيدر من الغلال ويكثر فيها الأخذ والرد. وكانت الفوضى تسود في هذه الكتاتيب ويستعمل فيها المعلم قضباناً منها الطويل ومنها القصير حسب بعد الطالب أو قربه منه.

وما أطل القرن العشرون وانقلب الحكم الحميدي واستلم الاتحاديون زمام الحكم حتى رأت الدولة العثمانية وجوب استخدام المدارس في الجبل لتهدئة أموره وأحواله لأنه لم يهدى لها بال ولم يرح لها ضمير. ففتحت ثمان مدارس ابتدائية في الجبل ومكتباً اسمه المكتب الرشدي بالنسبة لمحمد رشاد (محمد الخامس) الذي عين بعد عزل السلطان عبد الحميد، في السويداء. يتخرج منه الطالب ليلتحق بالمكتب السلطاني في دمشق أو مكتب العشاثر في استنبول.

وكان التعليم موجهاً ومجانياً لأبناء الزعماء ليكونوا لهم أعواناً ومناصرين في سياستهم الاستعمارية .

انتهت الحرب العالمية الاولى وحدث فيها ما حدث من مؤامرات و اتفاقات . انتهت بسقوط سورية تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي . وحاول الفرنسيون ارضاء أهل الجبل . فعينوا أحد أبناءه الامير سليم الاطرش حاكماً عليه ففتح ١٣ مدرسة بلغ عدد التلاميذ فيها ٥٥٠ تلميذاً ثم زاد عليها ٣٠ مدرسة وكانت غاية الفرنسيين بالدرجة الاولى نشر اللغة الفرنسية . وسلم الفرنسيون ادارة بعض المدارس ويقرب عددها من ١٥ مدرسة الى الآباء اليسوعيين .

وكان التعليم في هذا العهد يتصف بصفة استعمارية رجعية بلا هدف تربوي ، انما يخبط خبط عشواء وتضليل حتى لا يصل الطالب الى نتيجة معينة . وكان نصيب اللغة العربية ضئيلاً جداً . انما حظ اللغة الفرنسية كان عظيمًا كذلك تاريخ فرنسا وعظمة فرنسا ونابليون فرنسا وانهار فرنسا ومستعمرات فرنسا ومدنية فرنسا . فكان الطالب يعرف عن فرنسا اكثر من بلاده . وكانوا يقولون للطلاب : كل انسان له وطنان وطنه وفرنسا . أما جغرافية بلاده وتاريخها وماضيها وأجنادها فلم يعرفها شيء من الاهتمام والعناية . وطبقت الطرق اليسوعية القاسية على التعليم التي تفقد الطالب شخصيته وكيانه . وتخلق جواً عدائياً بين الطلبة بعيداً عن المنافسة المدرسية الشريفة . ولما كان الطالب يترفع من صفه فيكبر ويخجل فيترك المدرسة بدون أية ثمرة . او يسعده الحظ فيحصل على الشهادة الابتدائية الدرزية او الفرنسية . وكان النجاح في الشهادات ضئيلاً . واما تعليم البنات فقد كان مهملًا لدرجة العدم تقريباً وكذلك التعليم المشترك . وعندما يحصل الطالب على الشهادة الابتدائية ينتقل الى المدرسة الاكاديمية يقضي الطالب فيها ثلاث سنوات يدرس فيها اللغة الفرنسية درساً واسعاً . وكذلك بقية المواد من تاريخ فرنسا وجغرافيتها الى جانب قليل من العلوم ولا شيء من تاريخ الوطن وجغرافيته وأحواله ... ثم يحول الطالب الى الوظيفة قبل الحصول

على الكفاءة بحجة حاجة المنطقة الى الموظفين من ابناء المنطقة .

على ان الطلاب شعروا بالضغط وبخطر هذه الطرق التي يستعملها الفرنسيون في التعليم فلم تكن النتيجة كما أرادها المستعمرون وانما كانت عكسية عليهم . فولدت لدى الطلبة روح الكراهية والحقد على الاستعمار والمستعمرين تحييبها في نفوسهم احاديث آباؤهم واخوانهم الكبار عن ايامهم معهم في الكفر والمزرعة والمسيفرة والقلعة ورساس ... فأخذوا يناضلون ويناضلون في كل مجال حتى كانت ثمرة جهودهم وجهود اخوانهم في بقية أجزاء سورية الجلاء .

وكان الفرنسيون يستخدمون المعلمين في انحاء الجبل لتنفيذ غاياتهم الاستعمارية . فكانت مهمة المعلم التعليمية تأتي بالدرجة الثانية اذ كانت له مهام اخرى كالتجسس على الاهلين . فتقل ظلمهم واشتطوا في تنفيذ السلطة التي عهد بها اليهم وأصبحوا استعماريين اكثر من المستعمرين انفسهم . وكان اكثر هؤلاء المعلمين من لبنان الشقيق .

وكان الفرنسيون يتوددون الى الأسر الكبيرة في الجبل ويوفدون الى معاهدهم في بيروت ودمشق ابناءها ارضاء للآباء .. وكانت تراقبهم مراقبة شديدة واذا مالست منهم شذوذاً او تمرداً او روحاً قومية كانت تطردهم نهائياً وتحرمهم من الكراسي المجانية . وقلما كانوا يوفدون احداً من ابناء الشعب . على ان الذين أوفدوا عادوا بروح جديدة قومية نائمة على الاستعمار والمستعمرين . ولم تفد كل الجهود التي بذلها الفرنسيون في هذا السبيل . وقد شعر الفرنسيون بفشل سياستهم التعليمية هذه أمام يقظة الشعب ونقمة المتزايدة ووعيه القومي فراجعت سياستها فقللت من المدارس الرسمية وجعلت المرحلة الابتدائية تسع سنوات بدلاً من سبع وشجعت المدارس الاهلية والمذهبية وأحدثت الشهادة الابتدائية الدرزية الى جانب الشهادة الفرنسية . يتقدم الطالب الى الشهادة الدرزية ثم يتقدم الى الشهادة الفرنسية .

وقد حاول الفرنسيون الاعتماد على الرجعية فشجعوا التعليم المذهبي الذي يشبه نظام الكتاتيب في العصور العثمانية وهو نظام يجد من تطور التيار الفكري التقدمي العلمي المتطور .

حصلت سورية على استقلالها بموجب معاهدة ١٩٣٦ . وكان هذا الاستقلال شكلياً . وتألفت حكومة وطنية وعلى أثرها عاد الثائرون من المهجر وبدأ الاتصال الثقافي مع دمشق وعينت الحكومة الوطنية الى جانب المفتش الفرنسي مفتشاً وطنياً لمراقبة سير التربية والتعليم وعملت على تطبيق البرنامج السوري . فخفضت المدة الابتدائية الى خمس سنوات ودرست اللغة الفرنسية في الصف الرابع فقط بمدة ثماني ساعات اسبوعية . وخصصت الحكومة الوطنية بدمشق بعض الكراسي المجانية لأبناء الجبل في التجهيز والجامعة .

وأما في عهد الشيخ تاج الدين الحسيني الذي عينه الفرنسيون رئيساً للجمهورية فقد لجأ الفرنسيون الى تطبيق سياستهم التعليمية الاستعمارية فعادوا الى تعليم اللغة الفرنسية في الصفوف كافة وحددوا الاعداد التي يمكن ان تنجح في الشهادة الابتدائية الفرنسية والدرزية . ولم يطل عام ١٩٤٣ حتى اشتد الاقبال على التعليم . فطبق البرنامج السوري بكامله وأقيمت الحفلات التمثيلية القومية كتمثيل رواية اليرموك والمحاضرات الادبية . وألحقت معارف الجبل بالوزارة في دمشق . وكان الانقلاب ١٩٤٥ ومن ثم جلاء القوات الاجنبية في ١٧ نيسان ١٩٤٥ فخلت المدارس الابتدائية من اللغة الفرنسية وأصبحت تدرس في الصف السادس فقط . وفتحت دار المعلمين بدمشق أبوابها أمام أبناء الجبل فكثرت عددهم هناك وازداد التعليم وقضي على المدارس الاهلية والمذهبية وساعد الاستاذ المجاهد المرحوم عثمان الحوراني على نشر التعليم في الجبل فأكثر من عدد المدارس وأوجد اجتماعات دورية للمعلمات والمعلمين تلقى فيها الدروس النموذجية والمحاضرات عن أصول التربية والتعليم . وساعد على نشر تعليم البنات واهتم باتاحة الفرص امام الطلاب المبرزين وساعد على الدخول في دار المعلمين والمعلمات الابتدائية

والتجهيز والكلية العسكرية والجامعة والمعهد العالي للمعلمين والبعثات الخارجية واهتم بالابنية المدرسية وبخلق الروح الطيبة بين افراد أسرة التعليم . فانتشر الوعي القومي بين الشباب المثقف والطلاب وازداد النجاح في امتحانات الشهادات الابتدائية والكفاءة والباكوريا وأوجدت روضة للاطفال وأقيمت المهرجانات وأنشئت مدارس ريفية ولم يطل عام ١٩٥١ حتى كانت المتوسطة في السويداء اكبر متوسطة في سورية اذ بلغ عدد طلابها ١٠٨٠ طالباً .

وكان للفترة التي عاشها الجبل اثناء حكم الطاغية اديب الشيشكلي أثرها على الناحية الفكرية والثقافية اذ شرده اصحاب الفكر من المدرسين من أبنائه الى خارج المحافظة وانشغلوا بمقاومة الظلم والافتراءات والارهاب وتعطلت المدارس اثناء العمليات العسكرية لان المدارس هي التي تولت حركة المقاومة فجمدت الحركة العلمية لا بل تأخرت ولوحظ التأخر بقلة عدد الناجحين في فحوص الشهادات ، وما ان انجحت تلك الغمامة حتى عادت الحياة الى مجاريها الطبيعية وأخذ التعليم يسير بخطى حثيثة الى الامام .

الصعوبات التي تقوم بوجه التعليم في الجبل :

ان التعليم في الجبل يواجه مشاكل وصعوبات جمّة تعترض طريقه ، منها الفقر الشديد ، وقلة الابنية المدرسية ، اذ ان الفرنسيين بنوا ثلاثين مدرسة على نفقة الاهالي وكلها ابتدائية واما المدارس الثانوية فكلها مستأجرة او في ثكنات عسكرية وحتى الآن لم تشيد مدرسة واحدة سواء ابتدائية او ثانوية في جميع انحاء الجبل . وبهذا الشكل لا تكون هذه الابنية صالحة لان تكون مدارس من جميع الوجوه التربوية والصحية . وبعد ان تشكلت مصلحة الابنية وأعطيت استقلالاً ادارياً ومالياً نتأمل الأمل الكبير في تشييد المدارس مع مراعاة الحاجة التعليمية الملحة فيه . وقد تقرر بناء ثانوية واعدادية ودار للمعلمين .

وان الاهمال الصحي ، وصعوبة المواصلات ، وضعف ارتباط القرى بالسويداء .. كل ذلك يجعل التعليم في الجبل بعيداً عن تناول كل فرد .

نسبة التعليم والصعوبات التي يلاقيها الطلاب في سبيل العلم :

تعتبر محافظة السويداء الآن رسمياً في طليعة المحافظات السورية في نسبة الاقبال على التعليم فعدد القرى في المحافظة ١٣٢ قرية وعدد المدارس ١٧٥ مدرسة وبهذا لانجد قرية واحدة بلا مدرسة . وعدد سكان المحافظة (١٥٠) الف نسمة بينما نجد ان عدد الطلاب (١٧٠٠٠) في المدارس الثانوية ودار المعلمين والاعداديات والمدارس الابتدائية فتكون النسبة ١٥٪ بالمائة وهي نسبة مرتفعة جداً . وان نسبة المعلمين الى الطلاب هي معلم واحد لكل ثلاثين طالباً .

ويلاقي هؤلاء الطلاب كثيراً من الصعوبات الاقتصادية التي تجعل حياتهم كفاحاً مستمراً في سبيل الحياة والعلم . ولا تكفي صناديق التعاون لسد شيء من حاجاتهم . ويساعد الراديو والنشرات والصحف على انتشار الثقافة بين اوساط الشعب والطلاب وتقيم شعبة الثقافة والارشاد المحاضرات والندوات المتواصلة ذات الموضوعات المتعلقة بحياة الشعب الاجتماعية والقومية .

وقد حملت مديرية التربية والتعليم أخيراً قسطاً كبيراً من هذه الناحية فأخذت تقيم الندوات والمحاضرات والمساجلات الشعرية في بهوها ، وأخذ الشعب يقبل عليها اقبالا شديداً .

جبل العرب

الحالة الطبيعيّة * الحياة الاقتصاديّة

[Faint, illegible handwriting or bleed-through from the reverse side of the page]

لمحة جغرافية :

لابد للتاريخ من ان يبتدىء بالجغرافيا كما لابد للجغرافيا من ان تبتدىء بالتاريخ . ولذلك لايسعنا إلا أن نبدأ هذا الفصل بلمحة جغرافية . يقع هذا الجبل في الناحية الجنوبية من سورية . يحده من الغرب سهل حوران الفسيح . ومن الجنوب سهول شرقي الاردن ومن الشمال يتصل بغوطة دمشق ومن الشرق بادية الشام . وهو كتلة بيضوية الشكل من التلال البركانية تتطاول من الشمال الى الجنوب . وقد اطلق عليه الرحالون الأولون الذين قدموا اليه ودرسوا آثاره اسم « جبل حوران » وهذه تسمية جغرافية صحيحة اذ اننا لانستطيع ان نفرقه عن سهل حوران فكلاهما منطقة واحدة ومن أصل جيولوجي واحد . فالسهل سهل حوران والجبل جبل حوران . واطلق عليه « غليوم ري » و « الكونت دو فونغويه » و « بعثة جامعة برنستون الامريكية » والمؤرخان الالمانيان « برونوف ودوماسنوفسكي » ايضاً اسم « جبل حوران » واطلقت عليه تسمية « جبل الدروز » في نهاية القرن التاسع عشر وقد ذكرت في دائرة المعارف للبيستاني « ام الرمان قرية في قضاء جبل الدروز وهام الزيتون قرية في قضاء جبل الدروز لواء حوران » . واما المؤرخان الفرنسيان « دوسو » و « ماكلر » فقد اطلقا عليه اسم « جبل الدروز » في كتاب لهما نشره عام (١٩٠١) تحت عنوان « رحلة أثرية في الصفا وجبل الدروز » . وشاعت هذه التسمية الاخيرة لاسيما بعد أن تكاثرت فيه الدروز وعمروه . وتبدلت اخيراً هذه التسمية فأصبحت « جبل العرب » واول من أطلقها عليه هو الامير عز الدين علم التنوخي الذي شغل مديرية المعارف في هذا الجبل عام ١٩٤٥ وذلك لما لمس من ابناؤه من تمسك

بالعروبة ومحافظة على التقاليد العربية . وطغت هذه التسمية الاخيرة .

ويتألف الجبل من مناطق اربعة :

١ = منطقة جبلية .

٢ - منطقة اللجاء .

٣ = منطقة الصفاه .

٤ - منطقة السهل .

المنطقة الجبلية :

تقع هذه المنطقة في الوسط وهي بيضوية الشكل تتطاول من الشمال الى الجنوب ، ومنظرها من الشرق أجمل منه في الغرب لان (الشعاب) الوديان المنحدرة نحو الحماد تعطيه منظراً جميلاً خلاباً . ولا نجد فيه تلك القمم العالية الشاهقة التي نجدها في جبال لبنان مثلاً ، انما ارتفاعه بشكل عام قليل . ولا تبرز فيه قمم شاهقة الا قمة القليب التي يبلغ ارتفاعها ١٦٦٩ متراً وتظهر من بعيد كأنها أعلى قمة ولكنها في الواقع ليست كذلك انما أعلى قمة فيها هي « ام حوران » التي يبلغ ارتفاعها ١٨٠٠ متراً . وتتمركز الكتلة البركانية في الوسط . وينتهي الجبل في الجنوب على شكل تلال متفرقة تشبه تل القليب في شكلها وتكوينها وترتبتها ومن هذه التلال تل خضر امتان ... وتل رماح النخ ...

واشهر تلال الجبل المرتفعة هي تلال القينة . وسأذكر كلمة عن هذا التل لما له من قيمة أثرية وجغرافية في حياة الجبل ، ويبلغ ارتفاعه ١٨٠٠ متر . ويبدو هذا التل بانه أقل ارتفاعاً من تل القليب . الا انه أعلى منه بمائة مترونيف . ومن السهل ان نصل الى قمة تل القينة وبصورة خاصة عندما نكون عند الينابيع التي تسمى ينابيع الجينه ، هذه الينابيع التي جرت مياهها الى السويداء .

وبركان الجينه قديم جداً . وتوجد فيه حتى الآن فوهة كانت هي احدى فوهات البركان يتكدس فيها الثلج شتاء وتتجمع فيها المياه

في الربيع . وهناك ايضاً في شمال شرق هذا البركان حفرة طولها ٦٠٠ متراً هي اكبر فوهة بركانية يمكننا مشاهدتها في الجبل .

والى الشمال يوجد واد كان السائل البركاني يسيل فيه . يبلغ عرضه ٥٠ متراً وعلى طولها تمتد انتفاخات صخرية (كهوف) ناتجة اما عن اندفاعات قديمة مفاجئة راما عن غليان بركاني . اذ كانت تصيب هذا التل اندفاعات متتالية تتخللها عصور من الهدوء والتفتت البركاني .

ويعود تشكل بقية البلاد وخاصة حول شها التي هي النقطة المركزية لآخر ثوران بركاني الى تبرد السوائل البركانية المفاجيء والهزات الارضية التي رافقتها والزلازل الارضية التي حدثت في سوريا .

واشهر التلال الموجودة في الشمال هو تل شيحان الى الغرب من مدينة شها . ويرتفع الى تل شعف الى ١٦٠٠ متراً في الجهة الشرقية .

هذا الجبل على العموم صعب المرتقى رغم ان وديانه قليلة الانخفاض وهضابه قليلة الارتفاع . وتعود الصعوبة الى كثرة الحجارة البازلت السوداء التي قذفتها فوهات الجبل البركانية اثناء ثورانها ، اذ اننا قلما نصادف قمة لم تكن فيها فوهة بركان ، ففوهة بركان القلب الكبير وهي القمة العالية والقلب الصغير وهي النشز الغربي منه . وكذلك تل أبي قاسم (الجينه) وشيحان ...

المقذوفات البركانية

وقد قذفت البراكين الحمم والحجارة والدخان وما زالت الحجارة البازلت السوداء شاهدة على ذلك . وما اللجاء الاحمى قذفتها افواه البراكين في الجبل وغطت هذه المنطقة الواسعة الواقعة بينه وبين دمشق وتشققت بعد ان تبردت واصبحت ملاجئ التجأ اليها السكان وقت الحاجة ، الحضر والبدو على السواء وليست هذه المنطقة معدومة المياه انما توجد فيها بعض الينابيع التي يعرف السكان موقعها ويصعب على الغازي معرفتها .

وتحيط بهذه المنطقة القرى الصغيرة . وداخلها ليس محروماً من القرى انما

توجد هنا وهناك بعض الآثار القديمة مما يدل على ان الانسان قد تحدى الصحراء بتدمير وتحدي اللجاء بهذه القرى وبالطريق الطويلة المستقيمة التي تشق اللجاء بشكل غريب وباستقامة مدهشة رغم الصخور والصعوبات .

واذا ما قدمت منطقة حران والكفر وجدت القنابل البركانية . وهي الحجارة الكروية الشكل ار بالاصح الاهليلجية الشكل كالقنابل . وما زال ركام الدخان موجوداً بالقرب من شها اسود اللون يستعمله الاهلون في بناء بيوتهم ممزوجاً بالاسمنت او مقروساً في الطرقات . واما التربة الحمراء التي تغطي حوران الى القرب من دمشق شمالاً وتمتد الى شمال شرقي الاردن جنوباً فان هي الا صخور بركانية متفتتة قذفتها فوهات براكين الجبل اثناء ثوراتها .

وهي تربة حمراء خصبة جداً تصلح للزراعة بشكل ممتاز ، انما تنقصها المياه الوفيرة فلو توفرت المياه لغدت اخصب بقعة في العالم وهاهي الآن اخذت تتبوء مركزها اللائق بها واشتهرت بالحبوب في حوران وبالفاكهة وبصورة خاصة العنب في الجبل .

واهم الوديان التي تتوزع من الجبل هي وادي اللواء في الشمال وتتمركز عليه اكثر قرى المنطقة الشمالية ووادي الزبيدي وهو رافد هام لنهر اليرموك وتتمركز عليه اكثر قرى الساحل الغربي ووادي راجل وتتمركز عليه اكثر قرى المنطقة الجنوبية .

والسهول بالمعنى السهلي الصحيح مفقودة في الجبل، ويجد السكان صعوبة كبيرة في الحصول على ارض صالحة لزراعة الكرمة والاشجار المثمرة اذ ان الاراضي مملأى بالحجارة وتحتاج الى تنظيف . وهذه الحجارة تفيد الارض اذا ما بقيت فيها لانها تحتفظ بالرطوبة الى فصل القيظ شديد الحرارة .

واما المنطقة الشرقية فهي منطقة سهوب تصلح للرعي وللزراعة اما منطقة الصفا فهي منطقة جرداء قاحلة صحراوية كانت فيما مضى كما تسدل

الآثار خصبة وفيها تلول بركانية كثيرة وأهم قراها الزلف والناره وقد وجد في هذه الاخيرة كتابة عربية تعود الى امرىء القيس « تقول هذا قبر امرىء القيس ملك العرب » وقد نقلت هذه الكتابة الى متحف اللوفر في فرنسا لما تتمتع به من قيمة اثرية وتاريخية .

المناخ

اما مناخ الجبل فهو جبلي اي معتدل الحرارة صيفاً وشديداً البرودة شتاءً ويختلف السفع الغربي عن السفع الشرقي وتكون فيه الفصول واضحة كل الوضوح الا ان الشتاء والصيف يطولان اكثر من ثلاثة اشهر . فالشتاء يمتد من اواخر الخريف الى اوائل الربيع وكذلك الصيف يمتد من اواخر الربيع الى اوائل الخريف .

يميل السفع الغربي الى الاعتدال شتاءً بينما يميل السفع الشرقي ميلاً شديداً الى الاقليم الصحراوي الذي يؤثر عليه فيجعله شديداً الحرارة صيفاً وشديداً البرودة شتاءً .

الرياح : تهب عليه الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية والجنوبية الغربية وتكون هذه الاخير محملة بالامطار شتاءً لانها تأتي من البحر الابيض المتوسط وتمر فوق جبال منخفضة فتبقى مشبعة ببخار الماء . اما الرياح الشمالية الغربية فتمر فوق جبل الشيخ ذي الارتفاع الشاهق فيجبر الامطار وكذلك عندما يري سكان الجبل جبل الشيخ يتكاثر بالثلوج تحصل لديهم القناعة بان الامطار ستكون لديهم القناعة بان الامطار ستكون لديهم قلة وبالتالي القحط لا بد واقع .

وتهب عليه الرياح الشمالية الشرقية الآتية من سبها شتاءً فتكون شديدة البرودة بينما تهب عليه الرياح الشرقية في الربيع والصيف فتكون محرقة حارة جافة تحرق المزروعات .

ويكون الجبل في الصيف مركزاً لتوزيع الرياح فتهب بعد ظهر كل

يوم الرياح الغربية على القرى الموجودة على السفح الشرقي بينما تكثر الرياح الشرقية على القرى الغربية .

واما الامطار : فهي تكثر في بعض السنوات وتقل في بعض السنوات الاخرى . وبما ان الزراعة تعتمد على الامطار لذلك تكون بين مد وجزر ويكون معدل الامطار بين ٢٥٠-٤٠٠ ملم ويصل الى ال ٥٠٠ ملم في أعالي الجبل . ويكون الشتاء قارساً كثير الثلوج والعواصف الثلجية . وتصرف المياه بواسطة وديان أهمها وادي « اللوا » شمالاً و « الزيدي » غرباً و « راجل » جنوباً . وتقل الينابيع ولذلك يكون الجبل فقيراً بالمياه السائلة . على ان المياه الجوفية متوفرة ولكنها تحتاج الى جهود لحصرها واسالتها . وكانت هذه الينابيع مفعجة في العصور الماضية وكان الجبل في العصر الاموي مكسواً بالغابات وكانت امطاره اكثر ولذلك اطلق عليه اسم « الجبل الريان » وتغزل به شعراء العصر الاموي امثال جرير بقوله :

ياحبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية تأتيك من قبل الريان أحياناً
ويؤثر المناخ على السكان في هذه المنطقة فيجعل منهم شعباً قويا صلباً
يحب الحرية ويحارب كل من يحاول الاستيلاء على وطنه . وتنقسم الحياة في الجبل الى
نوعين :

- ١ - الحياة الريفية وهي تعتمد على الزراعة بالدرجة الاولى وعلى التجارة بالدرجة الثانية وقليل على الصناعات المحلية .
- ٢ - الحياة البدوية وتعتمد على الرعي والتنقل . وتسكن الجبل قبائل بدوية متنقلة كثيرة .

وتتشابك العلاقات بين البدو والحضر . اذ ان البدو فقراء بشكل عام والحضر اغنياء نسبياً ولذلك يتعهد البدو مواشي الحضر لقاء اجور معينة ويستخدم الحضر جمالهم في اوقات الحصاد واوراق الحاجة اليها .

الحياة الاقتصادية

الزراعة

مقدمة عامة

يعتمد الجبل اعتماداً كلياً على موارد الارض شأنه في ذلك شأن سائر البلاد ويعود السبب الرئيسي في ذلك الى توفر الشروط الاساسية الضرورية لنمو النبات وهي المناخ والتربة والمياه .

والمناخ السائد هو مناخ جبلي أمطاره شتوية بالدرجة الاولى وتمتلئ بعض الامطار الربيعية والخريفية . ويتميز بوجود فصل جاف وحار هو فصل الصيف .

وأما المياه فهي قليلة فيه وكذلك ينابيع وأهمها ينابيع عين بدر وحبكة غير ان مياه الجبل كما يقول « دو برتريه » لا يعثر عليها في الجبل نفسه الا بالصدف لطغيان الطبقة البازلتية وتفاوت سماكتها فوق الطبقة الكتامة . وتغيب المياه فيه لتظهر في سفوحه البعيدة مثل الازرق والاصفر في الاردن . وأما التربة فهي صالحة للزراعة بشكل ممتاز للمحاصيل من جهة وللأشجار المثمرة من جهة ثانية وهي تربة بركانية حمراء لا تحتاج الى كثير من التعب حتى تثمر وتنتج ولذلك كان الجبل منذ أقدم العصور جبلاً مشمراً تغنى به الشعراء أمثال جرير كما مر معنا بقوله :

ياحبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفحات من يمانية تأتيك من قبل الريان أحياناً

وجبل الريان كما تؤيد ذلك القصص والاحاديث القديمة هو جبل الأشجار المثمرة كما تدل على ذلك بقايا الأشجار المبعثرة هنا وهناك من نخائه المتفرقة . وكما تدل أسماء القرى التي مازالت تحتفظ بأسمائها القديمة مثل أم الرمان ، أم الزيتون ، تل اللوز... أقول : ان جبل الريان هو جبل الكرمة . ولازلت أذكر

قصة رويت عن الجبل من ان احد الملوك اراد ان يغزو هذه المنطقة أرسل عيونته
تستطلع اخبار البلاد . فطافوا في أرجائه ولم يجدو برهاناً يدل على غنى المنطقة الا
عنقود عنب حملوه على عصا طويلة كما يحمل عنقود الموز . ودخلوا عليه . فلما رأى
الغازي هذا الثمر طمع في فتح البلاد الا انه خاف قائلاً : « اذا كانت هذه ثمارهم فكيف
تكون سواعدهم » .

ان الجبل بإمكانه ان يسكن اكثر من نصف مليون نسمة . فاذا ما أعدنا
القرى المحرقة الى الحياة وملأناها بالسكان كما كانت لاحتاجت الى كثير من البشر .

الاراضي الزراعية في الجبل

تشتمل الاراضي الصالحة للزراعة في الجبل حوالي ثلث المساحة العامة
على ان الاراضي التي تزرع فعلاً لا تتجاوز نصف هذه المساحة . وهذا معناه ان
قسماً كبيراً منه يبقى معطلاً عن الانتاج . وقد بقي السكان زمناً طويلاً لا يهتمون
الا بزراعة الحبوب من قمح وشعير وقطاني . الا ان الجهود اليوم متجهة لتحسين
شروط زراعة الانتاج المتعلق بزراعة الاشجار المثمرة مثل الكرمة والتفاح
والزيتون وبقية الاشجار المثمرة .

الزراعة والزراعة متأخرة في الجبل وسبب هذا التأخر يعود الى عدة
عوامل . اما العامل الاول فهو اعتماد السكان على الزراعة البعلية ، ان مناخ الجبل
يعرف بتقلباته الفجائية بين عام وآخر وبين مراحل العام نفسه ولهذا فان
المواسم الزراعية تتبع هذه التقلبات . فأحياناً تكون جيدة . وذلك حينما تكثر
الامطار وأحياناً تكون سيئة وذلك حينما تقل الامطار . زد على ذلك ان الفلاح
لا يحصل الا على موسم واحد فقط وموسم ضئيل من اثمار الاشجار والحبوب .

وما زال الفلاح يستعمل الادوات الزراعية القديمة كالمحراث القديم تجره
الثيران والبغال والحمير . ويستخدم يده في الحصاد وبذلك يصرف جهوداً جبارة
بمردود ضئيل .

والطرق في الجبل سيئة اذ ان السيارات لاتصل الى جميع القرى وبالتالي الى المناطق الصالحة لزراعة الكرمة وغيرها . على اننا نشاهد في الوقت الحاضر نشاطاً تبذله الدولة في اىصال الطرق الى جميع نواحي الجبل لتسهيل السير من جهة وتسهيل تصريف المنتوجات الزراعية من جهة ثانية .

وأما ملكية الارض فقد أصبحت ، بعد قيام « العامية » في نهاية القرن الماضي وتقسيم الاراضي على الفلاحين أحسن مما هي عليه في بقية نواحي سورية اذ تسود فيه الملكية الصغرى . وهناك كثير من السكان لا يملكون شيئاً وهم يؤلفون طبقة خاصة هي طبقة « المرابعين » الذين يعملون في الاراضي مقابل ربع المحصول كاجرة لهم ، مع مؤنة من صاحب الارض . على ان هذه الطبقة قد تركت القرى في الوقت الحاضر وذهبت الى المدن لتعمل . لان العمل في المدينة يدر عليها انتاجاً اكبر من الانتاج الزراعي . وبذلك صارت تعود الى القرى ومعها الاموال وتشتري اراضي اصحاب الاملاك وهكذا ترى ظروف الحياة تتغير والاراضي تنتقل من أيدي الاغنياء الى ايدي الفقراء ويمكن للزراعة ان تتحسن اذا ماتوفرت لها الشروط التالية :

اذا وجدت المياه التي تكفي لري الاراضي الصالحة للزراعة المحرومة من المياه لأن تأمين المياه للزراعات الصيفية ، في فصل الصيف الجاف الذي يمتد على اكثر من خمسة اشهر ، يفيد في زيادة الانتاج ، والحصول على اكثر من موسم واحد . وان إيجاد المياه اللازمة يكون بجمع مياه العيون من جهة واستخراج المياه الجوفية من جهة ثانية عن طريق حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود . . . على ان نصيب الجبل في الوقت الحاضر من هذه المشاريع وافر جداً اذ ان اكثر القرى أصبحت تشرب مياه الينابيع المجرورة اليها بواسطة القساطل ومشاريع جر المياه في الجبل عديدة منها مياه حبكة لقرى المنطقة الجنوبية ، ملح ، الهوي ، قيصما ، ومياه عين بدر لصلخد ومنطقتها ، ومياه الفجفيات الى عرمان ، وحفرت الآبار في المنطقة الشمالية .

على ان سكان البلاد القدماء قد لجأوا في العصور الرومانية الى استخدام جميع الوسائل لتأمين المياه لشربهم ومزروعاتهم فحفروا الاقنية واستخرجوا المياه . وما زالت آثار مشاريعهم ماثلة للعيان حتى الان وما زالت آثار الاقنية تدل على تلك الجهود الجبارة التي بذلوها في سبيل تأمين حياتهم . فقد كانت في المنطقة شبكة صالحة لارواء جميع القرى من الينابيع . غير ان هذه المشاريع تحتاج الى جهود جبارة من جهة والى اموال من جهة ثانية .

واستخدام الآلات الحديثة من تراكتورات ومما الى ذلك يوفر على السكان كثيراً من الجهد والوقت . وقد اكنسحت تراكتورات فير كوسون هذه المنطقة .

ومد الطرق الى جميع القرى وجميع اراضي القرى يساعد كثيراً على نقل المحصولات الى المدن وهذا ما يزيد الثروة العامة ويرفع من مستوى الفلاح من جميع النواحي .

وسيكون لتشكيل الجمعيات التعاونية الأثر الفعال في النهوض بمستوى الفلاح الاقتصادي وبالتالي الاجتماعي .

وأما كمية الانتاج الزراعي فانها تتفاوت من عام الى آخر بسبب طبيعة المتقلب وكمية الامطار وشدة الرياح واهم الحاصلات الزراعية هي :

الحبوب واهمها القمح وهو الزراعة السائدة في كافة المناطق ويزرع في الاراضي الغنية والشعير ويزرع في الاراضي الفقيرة . والذرة والفول والحمص والعدس والجلبانة والنعمانه ولا يكون الموسم الصيفي حسناً الا اذا ارتوت الاراضي في شهر كانون الثاني . ولا يكون الموسم الشتوي ايضاً حسناً الا اذا ارتوت في نيسان .

وتزرع فيه البندورة والكوسى والبصل والتوم .

واهم الاشجار المثمرة هي « الكرومة » وتزرع في جميع نواحي الجبل بوجه التقريب وبشكل خاص في الجنوب والغرب واشهر القرى التي انعشتها

زراعة الكرمة هي سهوة الحضر ومباس والسويداء وصلخد التي تعيد الى
الاذهان دكرى الخمرة الصرخدية التي اشهرت بها لدى عرب الجزيرة في العصور
العصور الماضية .

كان سكان الجبل يصنعون الزبيب والدبس بكميات كبيرة تستهلك في
المنطقة وتباع للبدو . اما في الوقت الحاضر بعد ان تحسنت المواصلات واصبح
بامكان السيارات الوصول الى الكروم اصبح السكان يبيعون العنب الى شركات
و « ضمانين » من دمشق واصبح عنب الجبل الذي يعتبر في الطليعة بين عنب
الشرق يباع في جميع مدن الجمهورية العربية السورية بعدما يكون موسم عنب
المناطق الداخلية مثل دوما وداريا وغيرها قد انتهى . واصبح يصدر الى البلاد
العربية الاخرى .

ويصنع السكان كثيراً من النبيذ يستهلكونه في بيوتهم .
علماً ان هذه الثروة لو احسن استغلالها بتأسيس شركة تعارنية لتقطير
العنب في نفس المنطقة لتحسنت زراعة الكرمة وبقية الاشجار المثمرة ولزادت
ثروة البلاد من جهة ثانية .

وأما التفاح فقد بدأت زراعته في الجبل مجدداً وكانت التجربة التي قام
بها سليمان ابو سعدي من السويداء ناجحة جداً اذ اعطى بستانه الذي انشأه في
« الجبل » كميات هائلة وانواعاً جيدة غير منتظرة . ولا بد للجبل من ان
يكتسح الاسواق باثماره في المستقبل اذا احسن استغلاله واستثماره . ويصبح
بالامكان الاستغناء عن التفاح اللبناني بعد سنوات لا تتجاوز اصابع اليد .
وهناك اشجار كثيرة مثمرة كاللوز والتين والاجاص والمشمش والسفرجل .
وبدأت كذلك زراعة الزيتون مجدداً في الجبل .

وقد اقيم في السويداء عام ١٩٥٩ معرضاً للعنب عرضت فيه جميع انواع
الثمار كانت موضع الدهشة والاعجاب .

ولا نستطيع الا ان نأتي على ذكر الاحراج في الجبل . كانت غابة بازان

« باشان » تغطي معظم سفوح الجبل وهي مشهورة في التاريخ القديم و كثيراً ماورد ذكرها في الثورات . الا اننا مع الاسف الشديد لا نعثر منها الا على بقايا قليلة تمتد على سفوح الجبل من الناحية الغربية عملت فيها يد الانسان والحدثان على مر العصور واشدها فرق الحكم العثماني فقطعت اكثر الاشجار واهملت العناية بالاشجار المثمرة واصبحت القرى التي تحمل اسماء الاشجار المثمرة اسماً بلا مسمى عربية جرداء من اي نوع من الاشجار . كأم الزيتون وأم الرمان وتل اللوز ... وكثير من القصص التي لا يكاد الحيال يصدقها يرويها المسنونون من الذين قدموا الجبل بانه كان غابة خضراء من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ومن أقصى الغرب الى أقصى الشرق . وان عصور الفوضى والاضطرابات السياسية هي التي اودت بحياة هذه الاشجار . فقطعت الاشجار وندرت الامطار لأن الامطار تهطل في المناطق كثيرة الاشجار .

ولذلك تمكن اعادة الحياة الى الجبل بتشجيرها ومنع السكان من قطع اشجاره الطبيعية وتسود المراعي في اكثر نواحي الجبل وتربى فيه كثير من المواشي . يعيش البدو في البادية ويأتون اليه في أول الربيع حتى اواخر الخريف بغنمهم وابلهم وماعزهم وترعى مواشهم ومواشي سكان المنطقة في المراعي من من جهة وفي الاراضي الزراعية بعد الحصاد من جهة ثانية . وتربى الخيول في الجبل والابقار منها للحليب ومنها للفلاحة ويقطن السكان كثيراً من الدواجن كالدجاج والاوز والبط والحبس ويؤلف الدجاج الى جانب الغنم والماعز الثروة الحيوانية العظيمة في الجبل من جهة اللحوم والالبان والبيض من جهة ثانية .

اشهر القرى التي تتمتع باشهر المحاصيل .

١ - السويداء : العنب والتفاح .

٢ - صلخد : العنب .

٣ - قنوات : التين

٤ - العجيلات : الحمص

٥ - ملح وامتان : القمح

الصناعة

ان الصناعة في الجبل ابتدائية جداً شأن بقية المناطق الريفية في سوريا وذلك يعود الى طبيعة البلاد وقلة المواد الخام الموجودة فيه واكثرها زراعية وحيوانية واهم هذه المواد الاولية الحبوب والاشجار المثمرة والصوف . واما الصناعات المعدنية فمعدومة ما عدا بعض صناعات منزلية . وهناك مواد اولية كالحليب ومشتقاته . والصوف يباع الى الخارج او تصنع منه الفرش او الجرابات والكنزات والاكف والسجاد على شكل واسع . اما القوة المحركة في الصناعة فهي اليد العاملة فقط .

واهم الصناعات هي غزل الصوف وصنع السجاد ، اذ تشتهر قرى الجبل بصنع السجاد وقد قدمت الى المعرض الذي اقامته مديرية التربية والتعليم في السويداء ١٩٥٨ - ١٩٥٩ عدداً من السجاد لا يفوقه السجاد العجمي بشيء ويحتل التطريز اليدوي مكانة مرموقة بين الصناعات .

واما صناعة القش والاطباق فقد تفنن نساء الجبل بهذه الصناعة وهي تعبر عن ذوق ومهارة ودقة في الصنع .

وكانت المطاحن المقامة على مجاري المياه هي السائدة في الجبل غير ان ماكينات ديزل حلت محلها في الوقت الحاضر واصبحت كل قرية لا تخلو من مطحنة . وتحتل صناعة الدبس مكانة مرموقة بين صناعات الجبل واكثرها في قرى المنطقة الجنوبية غير انها خفت في الوقت الحاضر لأن السكان اخذوا يصدرون العنب الى داخل البلاد وبأسعار مناسبة .

وتحتل الكفر المكانة الاولى بصنع النبيذ ونجد في صلخد معبلاً صغيراً لصنع العرق وبذلك تبقى صلخد مشهورة في خمورها التي طالما تغزل بها العرب الاولون . واما الصناعات الرعوية فهي تقتصر على صناعة الالبان ولكن بشكل

ابتدائي فهي بحاجة الى خبرة فنية فيصبح بالامكان صنع سمن وجبن على انواع جيدة .

وهناك صناعات معدنية بسيطة مثل صنع النحاس اذ نرى النحاسيين منتشرين في كل قرية لاصلاح الادوات النحاسية وصنع بعض الادوات الاخرى . كما اننا نرى في الجبل مقالع كثيرة للحجارة التي توفر كثيراً على اصحاب المنشآت فهي كثيرة وليس هناك شيء اكثر منها وقريبة . الا ان الاتجاه الحديث في البناء يتجه نحو استعمال الاسمنت دون الحجارة .

ونرى لدى البدو بعض الصناعات الابتدائية كنسج الصوف والشعر لصنع الخيام والعباءات والعدل والعقل .

وتعتمد التجارة في الجبل على الاستيراد من دمشق بالدرجة الاولى فهو يستورد كثيراً من الاشياء ويصدر اليها الحبوب والاثار كالكرممة والتفاح والمواشي والاصواف . ولذلك كانت قوافل قرى الجبل ترد دمشق كما كانت قوافل قرى الشام صيفاً واليمن شتاء تذهب محملة بالحبوب وتعود محملة بالبضائع والحضار .

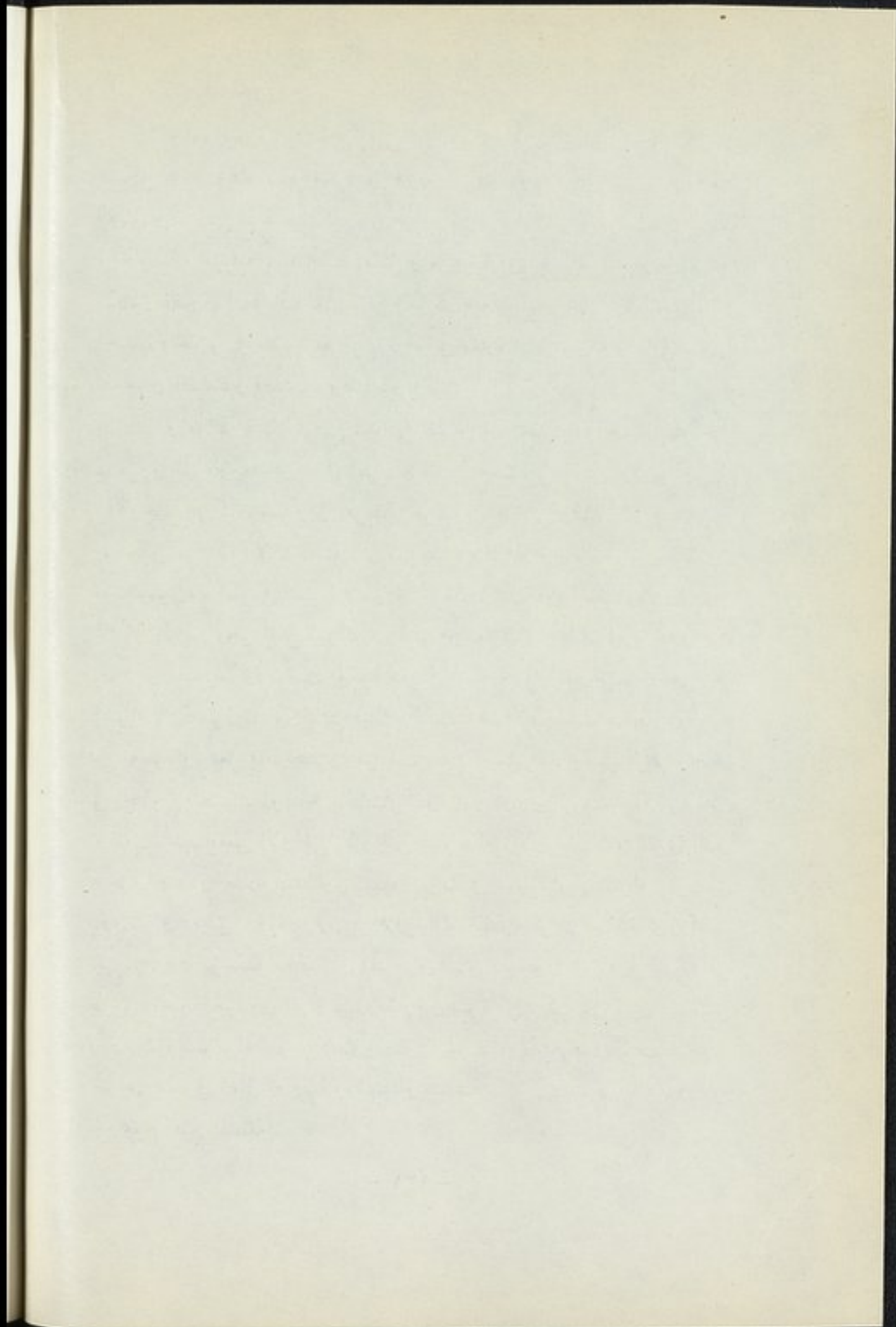
الهجرة

والهجرة من المواضيع التي تستحق الدراسة والبحث الدقيق في الجبل لانها غيرت وجه الحياة فيه . سواء الحياة الاجتماعية او الاقتصادية لابل تعدت ذلك فاثرت على الناحية الفكرية فطبعتها بطابع خاص ، بطابع حب المغامرة والسفر الى اقصى بقعة من بقاع الكرة الارضية . وتقسم الهجرة في الجبل الى نوعين : الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية .

أما الهجرة الداخلية فهي من الجبل الى لبنان ودمشق وعمان وبصورة خاصة الى بيروت للعمل حينما تكون الظروف الاقتصادية سيئة في الجبل .

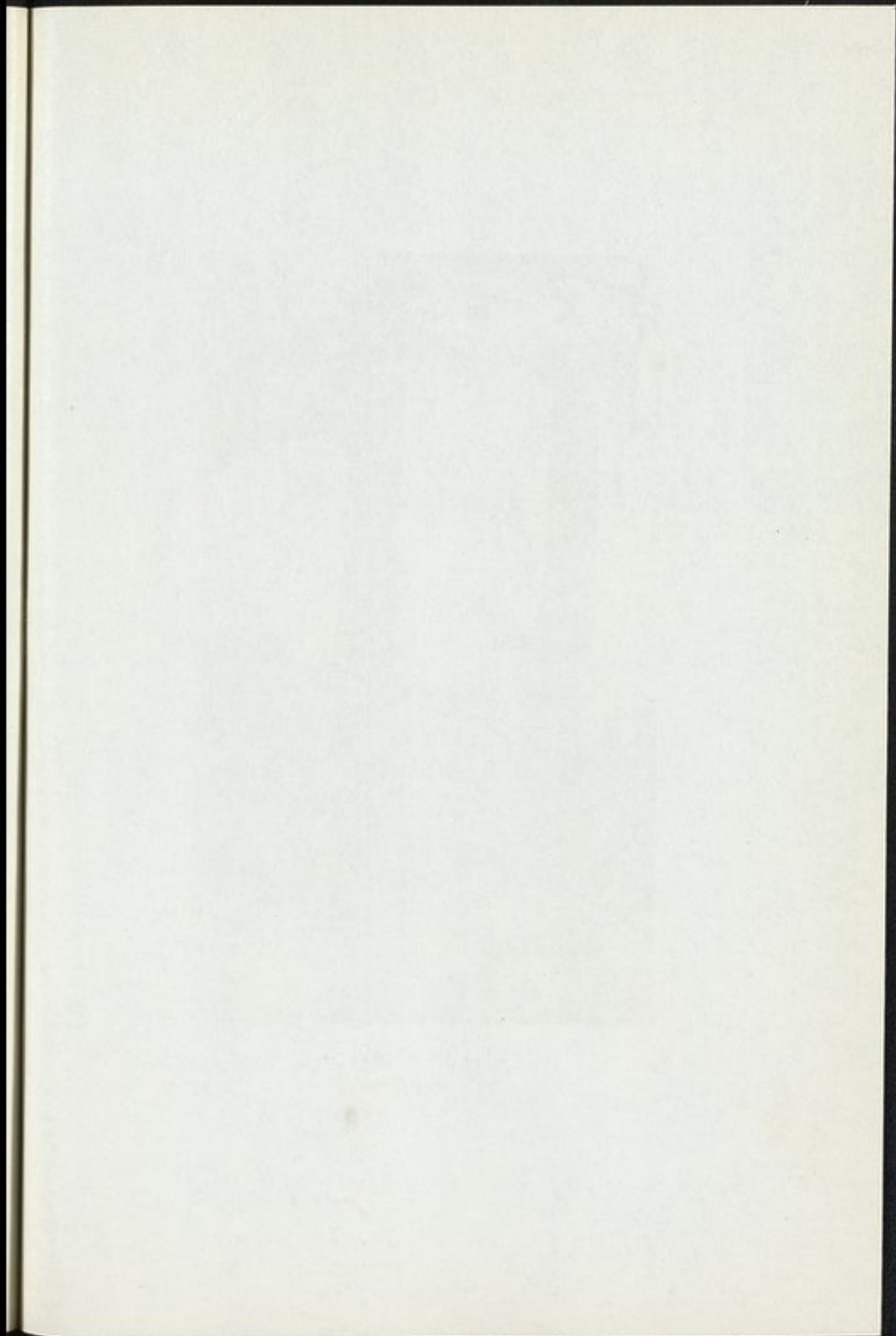
واما الهجرة الخارجية . فهي الى العالم الجديد او الى العالم الخارجي بشكل عام . وتمتد هذه الهجرة على فترتين . اما الفترة الاولى فهي فترة العهد العثماني والفرنسي اذ هاجر كثيرون من ابناء الجبل الى دول امريكا الشمالية والجنوبية وافريقية . اما طلباً للعيش واما هرباً من الجندية الاجبارية (القرعة) فكانوا يفضلون الذهاب الى المهجر وما كان ابعد المهجر على ان ينخرطوا في الجندية ويحاربوا في بلاد لا يعرفونها . اما في مقبرة الاناضول ، واما في البلقان ، يخدمون قضية غير قضيتهم ووطناً غير وطنهم .

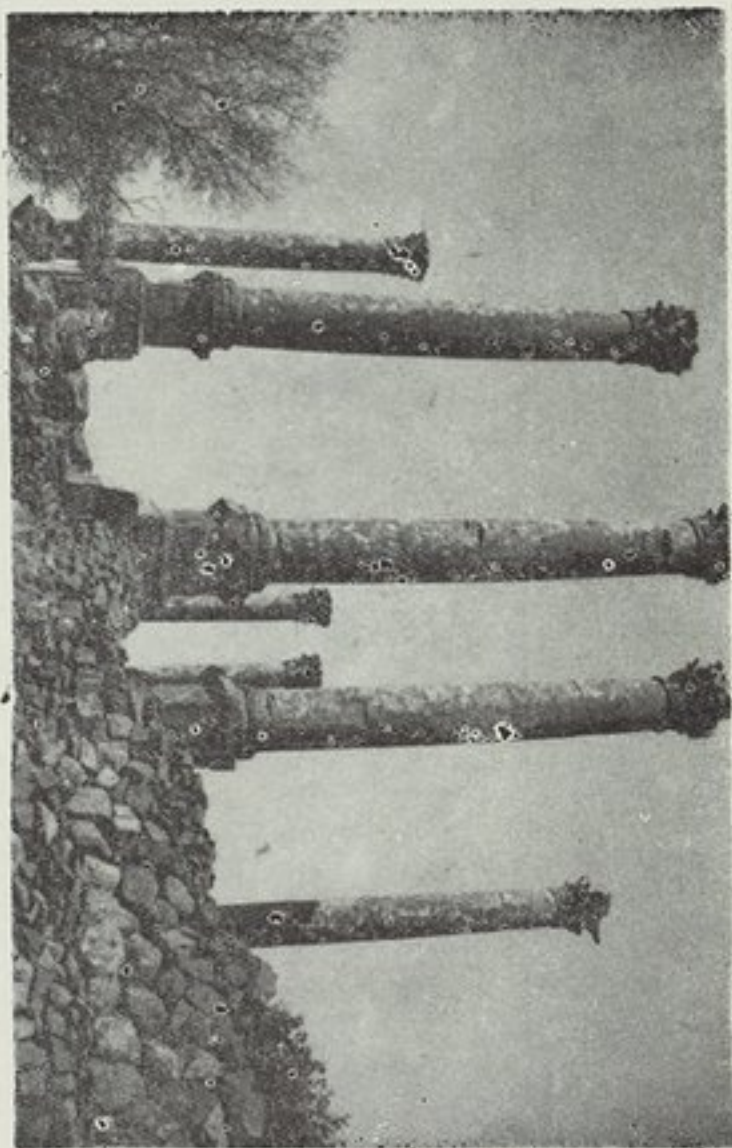
واما الفترة الثانية فهي تمتد على عشرين سنة مضت اذ أخذ ابناء الجبل يهاجرون الى فنزويلا من دول امريكا الجنوبية بشكل خاص والى البرازيل والارجنتين وكولومبيا والى افريقية الغربية نيجيريا . وقد زاد عدد هؤلاء المهاجرين على ستة آلاف نسمة . ويعمل هؤلاء المهاجرون بالتجارة وسرعات ما يتلاءمون مع الجو في تلك البلاد وأثرى بعضهم فممن من استقر هناك ومنهم من عاد الى الوطن وهو يحمل امواله . ومنهم من يعود الى وطنه لفترة محدودة ثم يعود الى المهجر . وأصبحت الهجرة مغرية لابناء الجبل الفقير منهم والغني على السواء . وقد برزت امكانياتهم هناك وكانت هذه الامكانيات ضائعة فتراحموا على الهجرة وبالفعل فقد اظهروا مواهب عظيمة ومثمرة . وظهر أثرهم واضحاً في الجبل . فتحسنت أوضاع عائلات كثيرة ، وكان من أثر هذه الاموال ان ارتفعت أسهم بعض الاراضي كأراضي السويداء . لان ابناء القرى الذين هاجروا وعادوا صاروا يفضلون بناء البيوت في السويداء او شراء بيوت في بيروت او دمشق . ويغادرون قراهم وبذلك انخفض سعر أراضي القرى وأهملت تقريباً . ومما يؤسف له ايضاً ان المهاجرين الذين يصبحون أثرياء في المهجر عن طريق التجارة يعودون الى وطنهم ويشترى بيوتاً كما ذكرت في المدن كدمشق وبيروت والسويداء . وأثر ذلك واضح في السويداء ولا يعرفون كيف يستغلون اموالهم هذه في اعمال تعاونية زراعية او صناعية تكون ذات فائدة أعم وأشمل على عموم اهالي المنطقة .





من الآثار القديمة في قنوات





من الآثار القديمة في قنرات

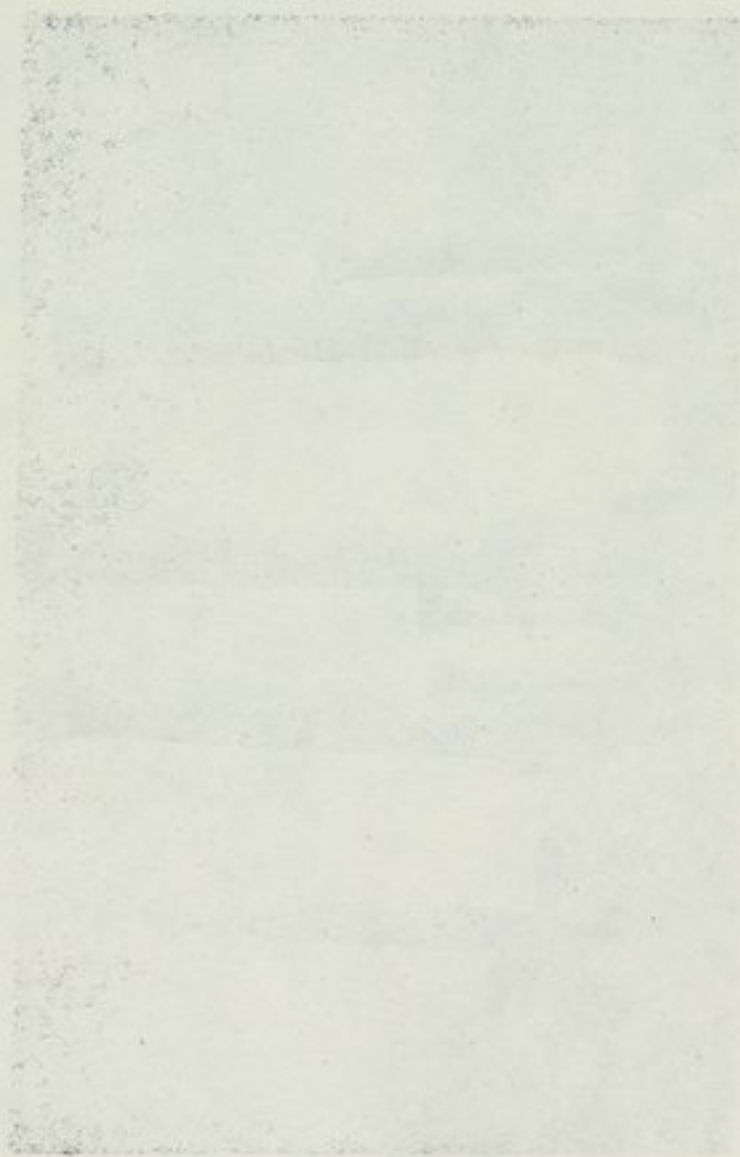


PLATE 1

الست اجاز

سید علی

السكان

بدأ بنو معروف يرحلون الى الجبل عام ١٦٨٥ وكانت الدفعة الاولى حوالي ١٥٠٠ رجلاً وإمرأة وطفلاً بقيادة اميرهم الامير علم الدين المعني. غادروا البلاد اللبنانية وتوجهوا الى اعالي حوران القليلة السكان رغبة منهم في ان يتخلصوا من سيطرة الاتراك . وبالرغم من عددهم القليل فقد طردوا منه البدو الذين كانوا يعيشون فيه الى جانب بعض النصارى بقايا الانباط والغساسنة الذين كانوا يقيمون في بعض انحاء الغربية والشمالية . وأول ما استقروا في نجران وعريقة وريمة الفخور .

حكّمهم الامير علم الدين المعني طيلة ثلاثين عاماً ولما غادروا البلاد الى لبنان أعطي الحكم الى الزعيم حمدان الحمدان عام ١٧١١ الذي استدعاه لهذا الامر من جبل لبنان . وقد مارست عائلة الحمدان التي يعود أصلها القديم الى شمالي سوريا (حلب) الى ابي سيف الدولة الحمداني . وبقيت تمارس سلطتها ونفوذها على كل الجبل الى اليوم الذي انتزعت منها عائلة الاطرش زعامتها وسلطانها . اختار حمدان الحمدان قرية نجران مقراً له ومن هناك سيطر على البلاد ولما يقف في وجه البدو الذين أخذوا يحاولون استعادة الجبل بغزواتهم المفاجئة ومن اهل حوران الذين كانوا ينظرون الى القادمين نظرة قلق . أرسل حمدان الحمدان الى بني معروف المنتشرين في لبنان وجبل الشيخ وجبل العلاء وفي منطقة حلب وانطاكية وصفد وجبل الكرمل مندوبين يدعوهم الى الهجاء والاستقرار في منطقته الخاصة . وأعطى من قدم الى عنده اراضي ومساكن مجانية واموالاً واغذية وكفل لهم الحرية في ممارسة عباداتهم وكل التسهيلات الضرورية لتنظيم اجتماعي يوافق عاداتهم وتقاليدهم . وبعد قرن من الزمن حدثت هجرة درزية

جديدة الى الجبل عام ١٨٣١-١٨٤١ اثناء الحروب التي خاضها ابراهيم باشا في سوريا ضد الدولة العثمانية . اراد ابراهيم باشا بن محمد علي وقائده بعد ان انتزع سورية من الدولة العثمانية ان يفرض الجندية الاجبارية ويجبي الاسلحة من السكان فحدث الصدام بينه وبين الدروز بعد ان اعتبروه محموراً ومنقذاً ولجأ واجماعات جماعات الى اللجاء . انتهى الامر بعد معارك عديدة الى عودتهم الى حظيرة الطاعة بعد ان سمم ابراهيم باشا ينابيع المياه الواقعة على اطراف اللجاء كي لا يشرب احد من الثاثرين فسلموا بعد ان جاعوا وعطشوا . ولم يأت عام ١٨٥٨ الا وكانت انحاء الجبل مسكونة من قبل بني معروف كما يقول غليوم ري في كتابه « رحلة الى حوران والبحر الميت » .

وبنو معروف عرب قدم اكثرهم من اليمن وبعضهم من الحجاز واستمرت بينهم النزعة القيسية واليمينية الى عصور متأخرة أدت الى مذابح شديدة دموية أهمها عام ١٧١١ منهم المناذرة الذين قدموا العراق ثم أتوا الى شمالي سوريا ثم الى لبنان ثم الى الجبل يبلغ عددهم حوالي مائة وخمسين الف نسمة .
عاصمتهم السويداء وهي مركز المحافظة . ويبلغ عدد سكانها حوالي عشرين الف نسمة ويتوزع باقي السكان في القرى وتزداد الكثافة كلما اقتربنا نحو الجنوب اذ ان المنطقة الجنوبية ويطلق عليه الاهالي اسم « المقرن القبلي » اي قضاء صلخد يعد اكثر من خمسين الف نسمة لان طبيعة الارض في الجنوب تختلف عنها في الشمال فهي اكثر حيوية وخصوبة وأمطاراً . واما السويداء اليوم فهي تجذب السكان اليها من جميع القرى لما فيها من حركة عمرانية نشيطة وحركة تجارية قوية تتأرجح حسب كثرة عدد افراد الجيش او قلتهم . والسويداء كما هو المشهور عنها منذ القدم مدينة عسكرية قبل أي شيء آخر . كانت كذلك في زمن الابويين حينما كانوا يناضلون ضد الغزاة الصليبيين وأصبحت كذلك حينما عاود الغرب كركته وانغصب فلسطين .

وتقسم محافظة السويداء الى :

منطقة السويداء ومنطقة صلخد وشهبا . وتقسم المناطق الى نواحي .
وتأتي صلخد بعد السويداء من ناحية عدد السكان ثم تليها شهبا فملح فالقرية
وعرمان وعري وساله وعريقة وشقا .

المسيحيون

يقسم المسيحيون في الجبل الى قسمين متميزين : قسم جاء مع الدروز
من لبنان وهم مثلهم يرتدون اللباس الدرزي ولا يختلفون عنهم لبالعادات ولا
بالتقاليد . وقسم بقي من السكان القدامى احفاد الانباط والغساسنة . لباسهم
لا يختلف عن لباس اهالي حوران و كذلك عاداتهم وتقاليدهم ولهجتهم . ولهم
علاقات عائلية مع سكان الاردن المسيحيين .

يكثر المسيحيون في القرى الجنوبية والغربية والشالية واما القرى التي
يسكنها المسيحيون الذين قدموا مع الدروز هي (صلخد وعرمان وملح)
وهي القرى التي تحملت اكثر من غيرها قساوة الصراع في سبيل الاستيطان في الجبل
ومعاركهم لا بل ايامهم مع البدو مشهورة يرونها الكبار في السن منهم اكثرهم
من المذهب الارثوذكسي الا ان هؤلاء اخذوا ينضمون الى المذهب الكاثوليكي
لما يلاقونه من اعمال من رؤسائهم الدينيين لا سيما مطرانيتهم وبطريركيتهم .
ورجال الدين الارثوذكس حالتهم سيئة وفقيرة بعكس الكاثوليك الذين يلقون
العناية الفاتحة من مطرانيتهم . ولما تتسع به مطرانيتهم من نشاط وعطف .

البدو

يشغل البدو مكانة مرموقة في الحياة الاقتصادية في جبل العرب ولذلك
نرى من الضرورة الكلام عنهم . تقيم كل قبيلة لوحدها في الصيف على المرتفعات
وفي الشتاء في المنخفضات . ويقل عددهم في الشتاء كثيراً اذ انهم يذهبون الى
الشرق اي (يشرقون) ابتداء من اوائل الحريف اذا هطلت امطار تكفي
لسقاية مواشهم في البادية ويعودون اي (يغربون) في اوائل الربيع وينصبون

خييامهم بالقرب من القرى حتى اذا ما بدأ الحصاد اخذوا يسرحون مواشيهم في السهول والكروم . و كثيراً ما يسببون الاذى للاشجار وكروم العنب بشكل خاص . ولهذا لم يخل الامر من شيء من النزاع بينهم وبين سكان القرى . ويحصى البدو عادة بعدد خيامهم وعدد الرجال الذين يربو عمرهم على العشرين عاماً . فالنساء والاولاد والمراهقون لا يشملهم هذا الاحصاء . وكان عدد بدو الجبل يقدر حوالي عام ١٩٤٠ بـ ٨٧٩٥ نسمة وعدد خيامهم بـ ٢١٥٥ خيمة . ويتوزعون على شكل ست قبائل تأتي على ذكرها حسب كثرة عددها .

١ - المساعيد :

يقدر عدد خيامهم ٥٨٥ خيمة وعدددهم ٢٠٠٠ اصلهم من شرقي الاردن وكانوا في الجبل قبل قدوم الدفعة الاولى من بني معروف . وهم اليوم رعاة اكثر من نصف مواشي هذه . نراهم في الصيف منتشرين في وسط الجبل وجنوبه وفي قضاء السويداء وعلى هضبة نبع البدو وفي ضواحي تل الجنية وعلى منحدرات سالة الجنوبية . وفي الشتاء نراهم في تل الاصفر في الجبانة (جنوبي الجبل وفي وادي راجل وفي الاردن احياناً .

٢ - الحسن :

يقدر عدد خيامهم بـ ٥٣٠ خيمة وعدددهم حوالي (٢٠٠٠) فهم اقدم قبائل الجبل ويلتجئون الى السلوط بدو اللجاء عندما يضطرون الى ذلك .

٣ - الشرفات :

ويقدر عدد خيامهم بـ ٢٠٥ وعدددهم ١٠٢٥ اصلهم كالمساعيد من العراق وهم رعاة مواشي قرى المقرن الجنوبي وصلخد والسويداء يقضون الصيف في شرقي الجبل ويقضون الشتاء في وادي الشام والصفاء والحرة .

٤ - العظيات :

يقدر عدد خيامهم ٣٨٠ خيمة وعدددهم ١٦٠٠ اصلهم من شرق الاردن قدموا الى الجبل قبل ان يأتي اليه بنو معروف فهم حلفاء المساعيد ورعاة مواشي

المقرن الجنوبي وبصورة خاصة حول امتان وملح والغارية وام الرمان والشفون
وعنز وتنزل بعض خيامهم احياناً في ضواحي شهباء ويقيم زعيم هذه القبيلة في
شرق الاردن .

الشابلة

ويقدر عدد خيامهم بـ ٢٢٥ وعدد نفوسهم ١١٧٠ أصلهم قبيلة
الحسين واحد ولكنهم انفصلوا عنهم في القرن الثامن عشر . ومنذ ذلك الوقت
استقروا في قضاء السويداء ويقضون هناك معظم ايام السنة بدون ان يغادروا
خيامهم حتى في فصل الشتاء ونصادفهم عادة في السويداء والكفر والرحا وسليم
وعنيل وقنوات ومفعلة وبريكة .

السرديّة

يقدر عدد خيامهم بـ ٢٠٠ خيمة ونفوسهم بـ ١٠٠٠ نسمة ولهم صفة مميزة
وهي انهم انحدروا من قبيلة تنوخ وهي قبيلة أتت من الجزيرة العربية في القرن
الثالث الميلادي عن طريق العراق ثم قدموا الى الجبل عن طريق معرة النعمان
في القرن التاسع . على ان العائلات الدرزية تعود الى نفس الأصل . وتسود بينهم
وبين الدروز علاقات ودية . وتقضي قبيلة السردية الصيف في حوران حول
بصرى وفي الجبل حول ام الرمان وذييبين والقردية واما الشتاء فيقضونه في البادية
حول ام الجمال .

ويأوي الى الجبل كثير من البدو المارة أمثال السلوط في قضاء شهباء وبعض
الغيث في الرحبة والنعيم والشرارات والعيس في قضاء صلخد .
ووجود البدو في الجبل بهذه الكثرة يدل دلالة واضحة على خصب هذه
المنطقة سواء من ناحية المرعى او المأوى

مشكلة توطين البدو وضرورة ذلك من الوجهة القومية

وتتجه الانظار أخيراً الى توطين البدو لما في ذلك من فائدة لهم وللدولة

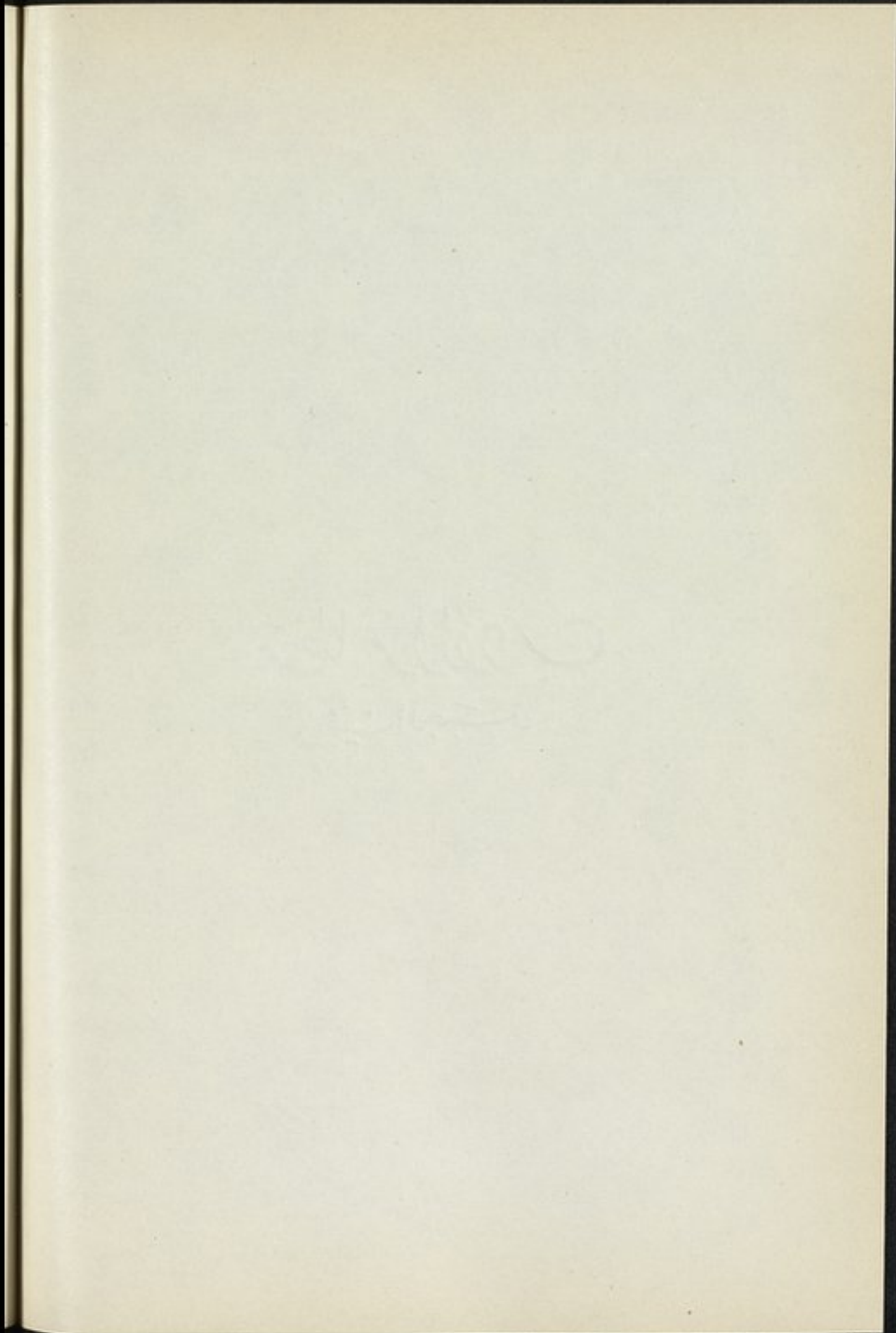
في الوقت ذاته . وبالتوطين ينتقل هؤلاء البدو من الحياة البدوية المشردة الى الحياة الريفية التي فيها الشيء الكبير من الهدوء والاستقرار فتنشر الثقافة بين أوساطهم ويصبحون اعضاء عاملين في المجتمع وتستفيد الدولة من جهودهم وسواعدهم وأفكارهم ويصبحون مواطنين بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وعوضاً عن ان تكون قرى كثيرة خالية من السكان يصبح بالامكان تعبيرها من جديد واعادة الحياة اليها وانعاشها بجميع الوسائل اللازمة للحياة .

وتوطين البدو ضرورة قومية قبل أي شيء آخر لان الحياة البدوية لا تساعد على خدمة الوطن خدمة فعلية لان ضرورة التنقل في الصحراء سعياً وراء الماء والكلأ لا تسمح للبدوي بحب وطن معين ولا تجعله مرتبطاً بعهود وقوانين معينة ايضاً بل تدفعه بطبيعة الحال الى حياة البدارة والفوضى والتشرد .

نبدو ان البادية تحتاج الى من يستثمر ثرواتها النباتية ولذلك فرخت على الانسان ان يحبس نوعاً معيناً من الحياة ، وهذا النوع هو الحياة البدوية . غير ان الدولة جادة في تخفيف اعباء الحياة عنهم ، وذلك بحفر الآبار الارتوازية ايمتنع البدوي من التنقل المستمر وراء الماء والكلأ .

وعلى كل حال فان توطين البدو لا يخلو من الصعوبات . اذ لا يمكن توطين البدوي .

مرضاة المراد اللدوب
في الجبل



مظاهر الادب في جبل العرب

بحق لنا ان نبعث الناحية الادبية في الجبل بحثاً وافياً لانك ما ان دخلت بيتاً من البيوت الا ووجدت احاديث الاقدمين وامثالهم وقصصهم على السنتهم . ونادراً ما تمر امام مضافة من المضافات الا وسمعت صوت الرباب اما يثن وينوح واما يتغنى بالبطولات ، بالايام ، بالمعارك فتدفعك الحمية وتمنى لو انك تشهد معارك جديدة مع العدو او لو انك شهدت هذه المعارك التي يردد هذا الرباب صداها وذكراها .

وينقسم الادب في الجبل الى قسمين ادب عامي وادب فصيح . والناحية الثورية ضئيلة جداً امام الناحية الشعرية وهانحن نبداً اول ما نبداً بالشعر العامي كان الشعر العربي مزدهراً في الجاهلية يوم كان لكل قبيلة من قبائل العرب لغتها الخاصة قبل ان توجد الاسواق ثم القرآن الكريم فتحل محلها لغة قريش التي ظلت لغة العرب حتى تفرقهم الى طوائف واقاليم يعيش كل منها عيشة خاصة في ظل حكم مستعمر . وانحصرت اللغة الفصحى في الكتب وعاد الشعر الى ما كان عليه قبل الاسواق والقرآن . فاصبحت نرى لكل قبيلة شاعرها الخاص يدافع عنها ويهاجم باسمها ، ينطق بشعر قريب الى النفوس بعيد عن الصنعة . ولا يقل الشعر العامي خصباً وجودة عن الشعر الفصيح ، لان الشعر العامي يدخل الى قلوب العامة بلا استئذان .

وقد انتقل قسم من بني معروف الى جبل حوران فاحتكوا باهل البادية وخالطوهم بالسلم والحرب والعادات العشائرية فحفظوا اشعارهم وسردوا قصصهم فنظموا الشعر على طريقتهم فكان ان اوجدوا شعراً جميلاً يعبر عن آماهم وآلامهم ، ويؤرخ جهادهم وحروبهم وغزواتهم .

قدم الدروز الى الجبل واستوطنوا فيه بعد صراع دام مري مع البدو
من جهة ومع جيرانهم الاقوياء من جهة ثانية فكان ان تغلبوا عليهم واستقروا
فيه . وجردت عليهم السلطات العثمانية الحاكمة جيوشاً ضخمة ، فقضوا على هذه
الجيوش الجرارة فدفنوا من جيوشها الآلاف وقتلوا من قوادها . ومرت عليهم
ايام مشهورة كانوا فيها على جانب عظيم من اليقظة لا ينام الرجل منهم الا وسيفه
تحت وسادته خوفاً من مفاجأة العدو كما جاء على لسان شبلي الاطرش :

عالمين سيفك لا يفارق وسادتك

خليك فرز من الرجال حريض

وكانت لهم ايضاً ايام مشهورة مع الفرنسيين . فكان ان ارتوت ارض
هذا الجبل بدمائهم ودماء اعدائهم . وكان الشعر الحماسي يعبر عن عواطفهم
ويقودهم الى حيث المعارك . وعندما تنتهي هذه المعارك ويؤسر احدهم تفيض
قريحته بشعر الحنين والفرق . وعندما تبدأ العاصفة يعودون الى ذكرى حروبهم
فيمدحون ابطالهم الذين قتلوا او ابلوا البلاء الحسن في المعركة ويتغزلون ويرثون
قتلامهم بشعر رثائي ممزوج بالفخر والحكمة .

وعندما جاء بنو معروف الى الجبل وجدوا فيه قبائل بدوية شتى لها
شعرها واصطلاحاتها ووجدوا أهل السهل الحوراني ولهم شعر كشعر الاعراب
ينظمونه بالأوزان ذاتها واللغة ذاتها وكان اهل شعر نطقوا به على طريقة البدو
وأهل حوران يعني على الرباب . وكان الشعر في بادئ الأمر لا تكلف فيه ولا
صنعة . ثم دخل عليه التكلف فيما بعد وتعقد كلامهم واستعملوا الجناس . والكلمة
العامية لاتأتي متحركة بل هي مبدئياً ساكنة الا فيما ندر لتقليد الشعر الفصيح
أحياناً وهذا التقليد أضر كثيراً بشعرنا العامي لأنه أبعدنا عن العامي وعن
الفصيح في نفس الوقت . وأوزان الشعر العامي تعادل أوزان الشعر الفصيح
او تزيد وتشبهها . منها الشروقي ويدل اسمه على انه لعرب الشرق وهو أول
وزن من أوزان القصيد يتغنى به في المضافات يرافقه الرباب . وهو هاديء
طويل عميق المعاني .

والمهجيني الذي يطلق عليه اسم « الحداء » يتغنى به الفرسان اما راكبو
الحيل أو الابل .

والفن ويطلق عليه هذا الاسم لشدة اعتناء قائله بالصناعة الشعرية والتفنن
بالمعاني . أو لأن الذين ينشدونه بدورون بشكل صف اربعة او خمسة يعني
أحدهم والباقون يرددون اللازمة فقط .

والجوفي وهو لحن مأخوذ من أهل الجوف « دومة الجندل » وهو لحن
حماسي حربي يثير النفوس ويحمس الأفراد . ويكثر من هذا النشيد عند الحاجة
اليه أثناء الغزوات أو الحروب . ولا تصل الجموع الى ساحة المعركة الا وهي
نشوى لايها كثرة الجيوش المعادية وقتلها ولا تقف قبل ان تتوسط صفوف
الأعداء وتهزمهم أو تبعد . وهذا البيت من الشعر يدل على الايمان الذي يدفعهم
الى القتال :

ان قتلتم بالنشامة الموت سنة وان سلمتمو سالمين من الشماتة
وتفسير هذا البيت الذي ينص على انكم أيها الأبطال ان قتلتم فالموت
سنة الله في خلقه ، واذا سلمتم من الموت فقد سلمتم شماتة الحساد ولا لوم عليكم
لأنكم أبليتكم البلاء الحسن في المعركة .

أقدم شعراء الجبل

من أقدم شعراء الجبل المعروفين اليوم الشاعران أسعد نصار والشيخ أبو علي
هاني الحناوي . وهذان الشاعران شهدا فتوحات ابراهيم باشا المصري وأسعد
نصار اقدمهما تاريخاً وله قصائد قوية يرد بها على شيوخ القبائل المعادية لبني معروف
الى جانب الغزل الرقيق .

أما أبو علي الحناوي فله قصيدة رائعة يصف بها حرب اللجاء التي دارت
بين جيش ابراهيم باشا المصري وبني معروف . وجاء بعدهم شبلي الأطرش واحمد
بخصاص وعبد الله كمال واسماعيل العبد الله ، وهزاع الحلبي ومنصور عزام
وهزاع شرف وحمد الخطيب ... وعلي عبيد ونجم العباس وصالح عمار ابو

الحسن ... وقد طبع ديوان شبلي وديوان منصور عزام وديوان علي عبيد
(ربابة الثورة) .

كان أبو علي الخناري وأسد نصار لا يعرفان مذلة النفس والانكسار
فكانا في شعرهما يفتخران أو يهددان أو يصفان ولا يشكيان ولا يبكيان بل
يفتخران بالشجاعة والايان بالله وذكرى المعارك .

فمن قول أبو علي الخناري يصف الحرب بين بني معروف والجيش

المصري :

أول فتوح الحرب دبح البصلي أخذنا خمسمائة حصان فرد نهار
يعني بذلك ان الحرب بدأت اول مابدأت بدبح البصلي قائد حملة
ابراهيم باشا وربجوا خمسمائة حصان في يوم واحد .

وقال اسعد نصار يفتخر على زعيم قبيلة ولد علي الشيخ فندي التيار :

حنا بني معروف نحمي الجار لو جار نقني المزند فتيلك مانداريه
وسيوفنا الحدب تغري كل زنار وحرابنا لو صدت بالدم نجليه
ماتدكر يوم مردك والذي صار ويوم الجنينة يافندي انت ناسيه

يفتخر بأن بني معروف يحمون جارهم ولو جار عليهم ويقنون السيوف
الحدباء والحراب التي لا يجلوها سوى الدم من الصدا . أتدكر يوم مردك يافندي
وهل نسيت يوم الجنينة (بالطبع التي كسر فيها فندي) .

ومن غزل أسعد نصار وقد نزع من راشيا الى جبل حوران تاركاً فيها

حبيبة له حال بينه وبين رؤياها جبل الشيخ .

فوق الجبل ياربع سافر بالعجل قرب عليك بعيد خطوات المجال
نجمي غطس في برج عالي واختفى وطل ونفذ من خلف ظهرك يا جبل

شعراء العهد العثماني

كان لبني معروف على ابراهيم باشا سلسلة من الانتصارات جعلت الدولة
العثمانية تهتم بالجبل فصارت ترسل اليه الحملات بقصد اخضاعه فكان له معها ايضاً

سلسلة من الحروب ينتصر عليها ثم تنتصر عليه فتنقم من قادة العصيان فيه بالقتل والشنق والنفي الى طرابلس الغرب وكريت وروودس والروملي فتقوم بين المنفيين وذويهم في الجبل سلسلة من المراسلات يضمنونها كل ما في قلوبهم من نقمة او بأس او حنين او تحذير من الاتراك وكانت هذه المراسلات شعرية على الغالب وكان هناك شعراء كثيرون أشهرهم شبلي الاطرش واسماعيل العبد الله وهما من الدرجة الاولى وهزاع الحلبي وحمد الخطيب ومحمد الجر مقاني وسواهم من الدرجة الثانية . ومن صفات هذا الشعر العامي انه عبارة عن رسائل شعرية ينتخب الشاعر له رسولا شجاعاً عالماً باخلاق أهل البلاد التي يجتازها جلوداً على السفر في الليالي وان تعد عليه عدة نامة . وبعد ان يصف الشاعر كل هذا ويدل رسوله على الدرب ويوصله الى المكان المقصود يقول للمرسل اليهم ما يريد ان يقوله بسرعة ويجاز او بتطويل حسب الغرض المقصود . وينهي الشاعر القصيدة بالصلاة او بالتأس شيء من الله وقد تكون المطية ذلولاً او فرساً او سفينة او الريح كقول اسعد نصار :

فوق الجبل ياربح سافر بالعجل قرب عليك بعيد خطواب المجال

وقد لا يكتفي الشاعر بمطية واحدة بل يشد عدة مطايا او ركاب ثم يصف كل واحدة منها . فكان لدينا قصيدة العشر ركاب لشبلي الاطرش وقصيدة العشر ركاب لاسماعيل العبد الله وسواهما .

شبلي الاطرش

كان شبلي الاطرش متفاناً في اكثر شعره . اما اسماعيل العبد الله فمتشائم دائماً ولعل هذا التشاؤم هو الذي منحه صفة العمق التي يمتاز بها . فشبلي اذا تألم نسب كل ما يصيبه الى الاتراك . اما اسماعيل فينسب ألمه الى قلة الاصحاب وعدم اعتناء أهل الجبل بخلاصه من سجنه وهو مولود لبشقي ويتعذب رغم أنه كان كشبلي سجيناً من قبل الاتراك ويظهر ذلك بقوله :

من مبتدأ عمري حياتي ردية والموت عيوا لا يبيعوه بأثمان

ان مكانة شبلي كزعيم كانت تمنحه الغلبة على الضعف والتفوق على كل

الألام ويعزي نفسه كما يفعل العظاء بعكس اسماعيل الذي يتألم ألم الضعيف الذي يشعر بضعفه ويمتاز شبلي ايضاً بالحنين الى بلاه وداره حتى صار شعره في الجبل ك شعر المتنبي بين شعراء العرب ينشد في كل ليلة وفي كل قرية من قرى الجبل . ان حكمة على كل لسان لأنه لم يترك موضوعاً الا طرقة واجاد في المواضيع واشتهر شبلي الاطرش بالغزل وله عدة قصائد في هذا الباب .

كان شبلي مؤسساً لمدرسة أدبية فكان من اتباعه وتلاميذه بعد اسماعيل العبد الله هزاع عز الدين الحلبي وهزاع شرف ومحمد الجر مقاني وحمد الحطيب ومنصور عزام .

فمن قصائد هزاع الحلبي الذي شنقته الدولة العثمانية على اثر حملة سامي باشا الغادر في ١٩١٠ قصيدته اللامية التي يصف بها حرب اهل الجبل مع عرب الضير ومطلعها :

اول كلامي محمد الرب العلي القادر المعبود مولانا الازل

واما منصور عزام الذي توفي عام ١٩٣٨ كان خصب الخيال ومختلف شعره عن شعر شبلي واسماعيل بانه لم يكن شعر مراسلة بل يميل الى التأديب ويظهر ذلك من تقديم نصائحه الى ابنه فريد . نوتع أوزان الشعر اكثر من شبلي وبما يؤخذ عليه ان يتصنع في شعره وذلك بمزجه باللغة الفصحى باللغة العامية . هو شاعر عامي غير انه يستعمل اللغة الفصحى المنصوب مرفوعاً والمرفوع مجروراً . وهو من الشعراء الجليلين المحضرين الذين شهدوا العهد التركي والحرب العالمية الاولى وعهد الاحتلال الفرنسي . وبذلك يعتبر شاعر صلة بين القديم والحديث . اهتم كثيراً بالنصائح والحكم والتعاليم الموجهة الى ابنه فريد ، وله ديوان مطبوع يمكن الرجوع اليه . كان يشك كثيراً بالناس وبشكل خاص باقربائه ويظهر ذلك في قوله :

لا تراقق الشدين أهل القرية حذراك منهم رفقة الضان للذيب

كان يبتدىء اكثر قصائده بذكر اسمه كقوله :

قال ناشيها بقرطاس نُميق
ميم نون صاد واو راء تلاه
اي قال منصور . . .

ومن اشهر قصائده تلك التي يصف فيها البشر من العابد الضعيف الى عابد
المال المتواضع والمتكبر فالذكي فلطيف المعشر فالذي طبعه كلايي ويحذر من
النساء . هو شاعر يصف قريته يصف المجتمع الذي يعيش فيه وكأنه غريب عنه
خلق لا يعيش فيه . انما كانت امنيته هي تأديب ابنه وتعليمه ليتخلص من هذا الجو
وهذا النوع من الحياة الذي يعيشه فهو يصف سهرات مجتمعه واحاديث الساهرين
التي تتصل بواقع حياتهم .

الشعر الجبلي الحديث

كانت مؤامرة سايكس بيكو واحتلال سوريا والجليل بعد الحرب
العالمية الاولى وايجاد الدولة الدرزية دولة جبل الدروز المستقلة . . . كل ذلك
اثر القرائح لدى شعراء الجبل بعد ما كادت تخمد جذوة الشعر فيه . وكان
هذا الشعر تمهيداً لثورة ١٩٢٥ . ومن شعراء هذه الفترة علي عبيد . هو ربابة
الثورة هو الذي أرخ اسبابها وحوادثها ونتائجها لابل كان هو من ابطال الثورة
الذين بعثوها شهد معاركها وذاق مرارة نتائجها . فمن قصائده في التحريض على
الثورة ضد الفرنسيين :

يا حيف يا دروز الجبل يا شواهين
والعز مطلوب الاباة الشهيدين
ما زال حنا عن المطامع عفيفين
يا فلان لا تهوجس ربوعك نشيطين
كيف ترضخو وتسلموا للاهانا
والموت اهون من شماعة عدانا
النصر من عليه ربك عطانا
ترمي عشا للطير جيشاً غزانا

ولما شعر الفرنسيون بالخطر يتزايد عليهم اخذوا يضطهدون كل وطني
بتكسير الحجارة على الطرقات ويراقبون الرسائل ويشددون المراقبة، ويعطون
السلطة الواسعة الى المعلمين وتأتي اخبار ثورة عبدالكريم الخطابي فيقول علي عبيد:

يسمى هذا اليوم حامى التوالي عبد الكريم الزايد اليوم بفاس
الى ان تتقرر الثورة فيشترك الشاعر فيها لابل يصبح من زعمائها
ويؤرخها شعراً صالح عمار ابو الحسن .

عاش هذا الشاعر زمن الثورة السورية الكبرى ايضاً سجل معاركها
وحس رجالها . نظم في كل فنون الشعر المديح والثناء والغزل ووصف المعارك
واجاد في هذه الناحية كل الاجادة . ولم يشع في الجبل شعر بعد شعر شبلي
كشعر عمار حتى ان عمار يعد من يصمد في الحرب حتى آخرها بانه يربح من
شعره وهي اكبر مكافأة يطمع فيها شجاع . فقال :

واللي بيصمد للتوالي يربح من قصيد عمار

اي ان عمار سوف لا يمدح الا اولئك الابطال الذين يصمدون في الحرب
حتى النهاية . اجاد في جميع انواع الشعر من الشروقي الى القصيد الى الفن الى
المطلوع الى المعنى . اما غزله فيتجلى في قصائده الفنية . وهو لا يخرج عن
مصطلحات بقية الشعراء في الوصف لحسن القوام وبيض الحدود وسود العيون
وطيب الاصل والرائحة ولكنه يحب الغلو فلا يرى شيئاً يوازي محبوبته . ويكثر
من الاسف وتعداد محاسن الفقيده في رثائه يصفه بالكرم والوفاء وله قصائد
بارعة يرسل فيها عروس شعره تجول في البلاد فيصف لها كل زعيم وهي لاترضى
ووصفه قاس فمن الجبان الى الخائن الى الذليل الى البخيل ثم يعيدها الى سلطان
باشا الاطرش بقوله :

قلت لها يا مستورة يا غندورة انعي عقيد الثورة الباشا سلطان

قالت هذا مطلوبي عرفت النوبي وهذا القصى مرغوبي شيخ الشيخان

فتحظ العروس رجالها وتستريح .

ومن الذين حذوا حذوه في هذه الناحية محمد ناصر الدين .

وما يعاب على صالح عمار هو انه سلك في شعره مسلك المدح والتكسب ،
ومن الشعراء ايضاً سعيد عز الدين الحلبي الذي اشتهر بالملاحم وشعره

جيد وصادق العاطفة صريح اللجة طويل النفس والقوة . ولملاحمه قيمة تاريخية
اذ انه يصف فيها المعارك والحروب ويتغنى بايجاد الابطال ومن ملاحمه تلك
التي مطلعها :

البارحة عيني عن النوم عيت من هاجس اللي يسهر الجفن مابات

الشعر السياسي

ويأتي في مقدمة الشعراء السياسيين علي عبيد صاحب ربابة الثورة الذي
جئنا على ذكره . وقد عاش السياسة منذ الحرب العالمية الاولى حتى قبيل يومنا
هذا بقليل وقد توفي في ايلول ١٩٥٩ . وهو زعيم شاعر هو حاكم صلح السويداء
قبل الثورة واحد ابطال الثورة هاجر مع من هاجر بعد الثورة الى الازرق في
شرق الاردن ثم الى النبك في الحجاز . كان يشجع الثوار كلما احس منهم بعض
اليأس وهو يؤرخ الاعياد فينظم قصيدة بمناسبة عيد الاضحى يذكر فيها
كل ما يجيش بخاطره من الذكريات والافكار والآمال .

استنكر طرد العرب من فلسطين وتمنى لو يأتي خالد بن الوليد مرة

ثانية بقوله :

ترسل لنا من مثل خالد بالوغى يلفي بجيشه عن طريق الجوف

هو الذي يرسل المهاجرين العرب الذين كانوا يمدون الثوار بالاعانات
وهو الشاعر القومي الذي لم يترك مناسبة تخدم القومية العربية الا نظم بها .
وهو الذي سجل سجل جميع الاحداث التي تمت حتى عام ١٩٣٦ العام التي عقدت
فيها المعاهدة وحصلت بموجبها سوريا على استقلالها ويعودون على اثرها الى الجبل
ويصف كم وجدوا من ضروب الاحتفاء بعودتهم .

شعراء الغزل الغنائيون :

يأتي في مقدمة الشعراء الغنائيين سليمان عبيدي الاطروش . وهو شاعر
موسيقي لابل أشهر موسيقي في الجبل يتغنى بشعره الخاص . يحسن العزف على
الرباب والكمان حسن الرواية والقصة . يشعرك بالجو الذي نظم فيه قصيدته

فتحس بكل ما أحس به . له مطاليع كثيرة ومقطوعات يندر وجودها عند
سواه من شعراء الجبل . وشعره سريع الانتشار بين أبناء الجبل فهو يشبه رشيد
نخله في لبنان وله قصائد كثيرة تشبه قصائد رشيد نخله .

وله قصائد في التدخين . وصف مضاره ثم حن اليه فحدثت بينه وبين
هلال عز الدين مناظرة شعرية تدور حول الدخان رائعة جداً ولا يتسع المجال
لذكرها كاملة . بل يمكن الرجوع اليها في كتاب (بني معروف بين السيف
والقلم ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ للاستاذ سعيد ابي الحسن . وقد اشترك سلامه
كرباج في هذه المناظرة ايضاً . فمن حنينه الى التدخين :

قلبي اتمنى اشترى اليوم باكيت توكي اهالي والسكاير مذهب
واليا فتحته وريحته العطر شميت يطرب دليك قبل ماتصير تشرب
والما شرب دخان عده كجا الميت والي شرب لو كان شايب رجعت شرب
قل للذي بطل يدخن سكاريت ضيعت لذاتك بها العور تضرب

وهناك عدد كبير من الشعراء يستحقون الدراسة ويضيق المجال هنا
لدراستهم فهناك زيد الاطرش وجاد الله سلام وهو شاعر رصين وعميق الفكير
ومحمد عز الدين الحلبي . درس في الاستانة . لم ينشر شعره وهو مجاهد كبير
سالم في ثورة ١٩٢٥ وهجر الجبل مع الثوار المجاهدين الى الاردن والحجاز مدة
١٢ سنة واشهر قصائده تلك التي تبتدىء بقوله :

عيني عداها النوم عيت تنامي طبه قلتي وتنود من غير النعاس
وهناك نجم العباس وسليم الديبسي وفندي عزام . ومن شعراء البدو
« سودي ابو سماحة » وسالم الحضير من قبيلة المساعيد وابو حرب السردى من
قبيلة السردية . وعكيب العمار من قبيلة الحسن . وصبيح السراح من قبيلة
السرعان .

واما نجم العباس ابو اسماعيل فهو مازال حياً حتى كتابة هذا الكتاب
أصله ومسكنه ملح نظم الشعر وهو صغير وما زال ينظمه وهو كبير . لا تخلو

مناسبة الا ونظم فيها . وديوانه : « عنوان البيان عن شرح الزمان في سوريا
ولبنان وما حدث مع الباشا سلطان في عهد الاتراك والافرنسيين حتى الآن... »
وهذا الكتاب عبارة عن تأريخاً لحياة سلطان باشا الاطرش . يتكلف الجناس
تكلفاً . ويعاب عليه المرع المتكلف طلباً للرزق . ومن اشهر قصائده تلك التي
يصف فيها حرب بتي معروف مع بدو السلوط عام ١٩١٥ ومن هذه القصيدة :

البارحة اشفيت انا راس ناي وكظ عالشفين براس ناي
مرسال علم عن ربوعي وناي علم الثبات ولا تخل التحارير
حضور من الهيت عاراً وبهتان

سلطان ينده يارفاقي كفتنا والبذر في كبد الاعادي كفتنا
نحن المراجل والحرايب كفتنا حريبتنا مانام ليله على خير
نسقيه كأس السم بالسيف والمزان

هذا لون من الشعر متشابه تقريباً في جميع نواحيه لا يتعدى الوصف
والحزين والحكم . واما النواح والثناء فقد تركه شعراء الجبل للنساء . غير انهم
أجادوا بالعتاب ولا سيما شبلي الاطرش .

ومن أشهر الذين أحسنوا العزف على الرباب .

سلمان عبدي الاطرش كما مر معنا . والمرحوم احمد مكنار مزيد الدعبيل
ونواف ابو شهدا وغيرهم كثيرون .

الشعر الفصيح

وكما نبغ من أبناء الجبل شعراء اهتموا بالشعر العامي كذلك نبغ وجد
شعراء فصحاء أمثال سلامه عبيد ابن الشاعر الشعبي علي عبيد . تنقل في وظائف
التربية والتعليم من معلم ابتدائي الى معلم ثانوي الى مدير للتأهوية الى مدير للتربية
والتعليم . وهب نفسه لواجبه . ثم أصبح نائباً في مجلس الامة عام ١٩٦٠ . هو
كثير النشاط والعمل . مبتكر في اعماله . واضح في تفكيره . درس في معاهد
دمشق ثم انتقل الى لبنان فدرس في الجامعة الوطنية في عاليه ثم أم دراساته

العالية في التاريخ في الجامعة الامريكية . وهناك أشرف على تحرير مجلة العروة الوثقى .

ورفته تنعكس في شعره الرقيق وصفاً كان أم غزلاً ، وله في الوطنية جولات عملية وشعرية في نفس الوقت رافق النضال ضد الفرنسيين المستعمرين منذ طفولته . وعمل في مدرسته وفي بيته وكان في طليعة الشباب في النضال . وانعكست حياته العملية على شعره فمن قصائده الوطنية عندما طرد الفرنسيون من سوريا تلك التي مطلعها :

اليوم تفتح الطريق فلا هجوم ولا رجوع
وله قصائد رائعة منها تلك التي نظمها عندما ضرب الفرنسيون دمشق
٢٩ ايار سنة ١٩٤٥ ومطلعها :

من دمانا ايها السفاح من دمع اليتامى والأيامى ...

وتؤثر الوظيفة عليه فيقل انتاجه . إلا أن نشاطه لا يفتقر ...

ومن شعراء الجبل يمكننا ان نذكر علي سيف الدين القنطار . فهو شاعر وأديب . شاعر عامي وشاعر فصيح في نفس الوقت عرّكه الدهر فانعكست حياته بشعره فمال الى الشعر الحكيم . له قصيدة زجلية يصف فيها أنواع الرجال وينعي عليهم عدم وفائهم وتسابقهم الى المنافع الخاصة . وفي شعره الفصيح ينظم على طريقة الاقدمين حيث جودة اللغة وعدم التجديد في الالوزان وطرق التعبير . فمن شعره الفصيح :

وليس وقوفي عن زهوق وانما وقفت وقوف الناقد المتألم

فمراعي الا تخنث فتية وأزياه مموها سبيل التقدم

ومن الشعراء في الجبل كثيرون منهم الشيخ حسين ابي فخر وصابر ملحوظ وله قصائد سياسية تؤرخ الاحداث . ويحاول ان يأتي بجديد دائماً في شعره . وهناك كثير من الشعراء المغفورين الذين سوف تتيح لهم الايام الفرصة لنشر شعرهم .

وأما من ناحية النشر فاننا نرى كثيراً ايضاً من أبناء الجبل من تخصصوا باللغة العربية غير ان انتاجهم قليل لا بل بعضهم عديم الانتاج اطلاقاً وبعضهم قام بعدة محاضرات وندوات كلفتهم بالقيام بها شعبة الثقافة والارشاد القومي في السويداء . غير اننا نرى الذين تخصصوا بالتاريخ اكثر انتاجاً سواء من ناحية المحاضرات أو الندوات أو التأليف . ويلاقي أبناء الجبل كثيراً من التعب لابل الصعوبة الشديدة في نشر كتبهم ، لان حالتهم المادية لم تساعدهم على ذلك .

وقد حاول المثقفون من أبناء الجبل ان يجدوا بينهم رابطة مساهمة لنشر الانتاج الادبي في الجبل غير ان هذه الجهود كانت تصطدم في كل مرة بالصعوبات المادية . والامل قريب في ان هذه الصعوبة ستذلل .

آثار الجبل

عرف جبل العرب الانسان منذ أقدم العصور . فقد سكنه منذ ما قبل التاريخ وتدل على ذلك الآثار الحجرية التي خلفها هذا الانسان في بعض البقاع . ولا نعتز على أي أثر من آثار الشعوب القديمة التي تعرضت البلاد لغزواتها كالكاديين والبابليين والاشوريين والفراعنة والفرس . وأهم الامم الفاتحة التي خلدت آثارها فيه هم اليونان والرومان . مع العلم بان سكان البلاد الاصليين هم عرب منذ أقدم الموجات السامية التي توطنت في هذه البلاد .

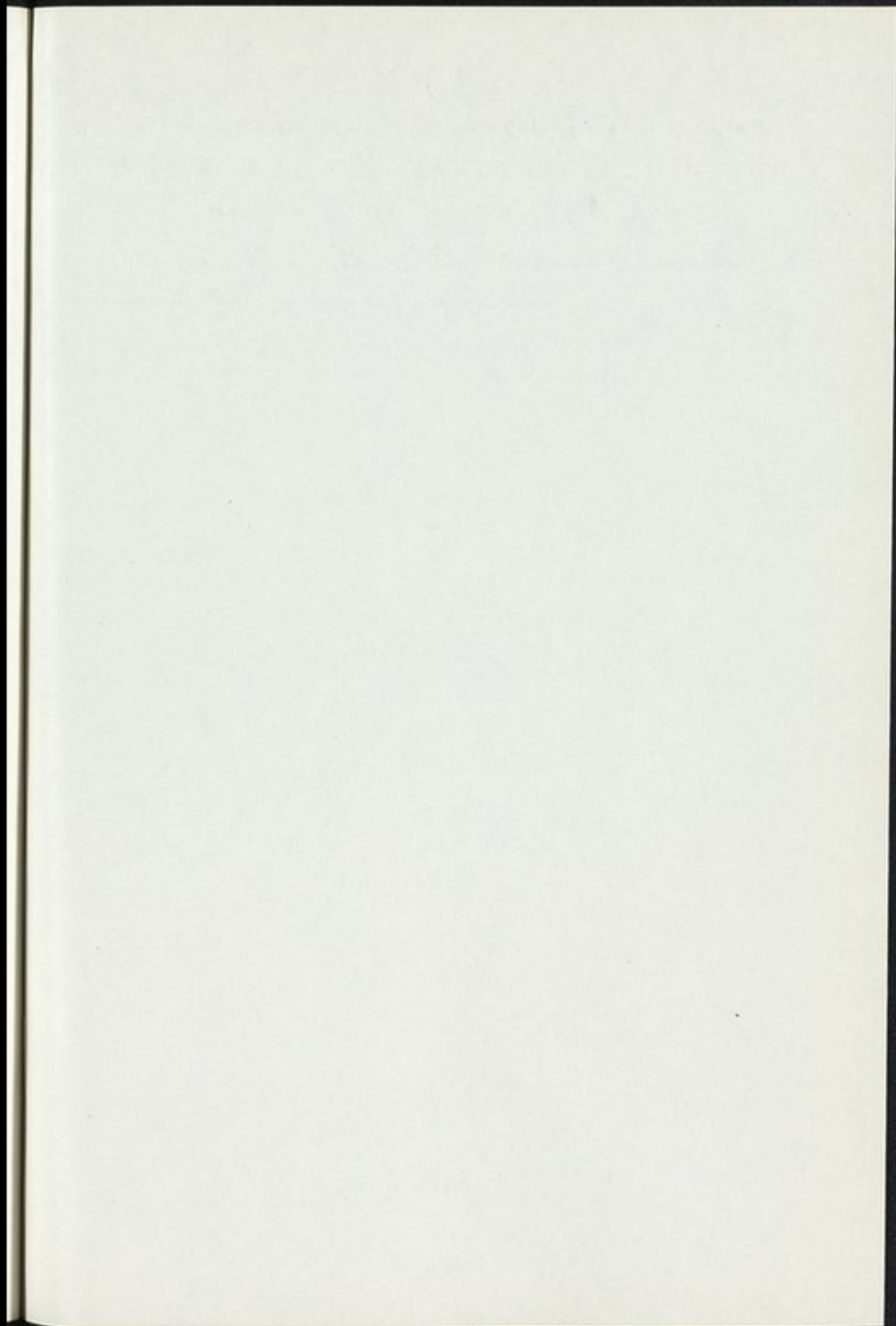
وجدت الادوات الصوانية في اكثر البقاع عند عين بدر وتل الحديد وطريق قنوات تل اخضر امتان وتل القليب .

ترك الصفويون العرب الذين استقروا على المنحدر الشرقي من الجبل وفي الصحراء التي تمتد جنوباً الى شرق الاردن كتابة في تل النار وصور جمال ومجاريين وماحهم بأيديهم .

وترك الانباط الذين ورثوا الحضارة اليونانية السلوقية آثارهم العمرانية في السويداء وقنوات وصلخد وكثيراً من الكتابات والابراج . أهمها في قنوات الى عين وادي الغار . وكذلك في سبيع وهو معبد الاله « بعل شميقي » والاعمدة الباقية في السويداء هي بقايا معبد الاله ذي الشراة . وبركة السويداء (السورية) هي بركة نبطية وقلعتها قلعة نبطية . وهناك كثير من التلال التي بنى فيها الانباط قلاعهم مثل قل قنوات وقل أبي قاسم وقل المليحة وقل الجنية . وترك اليونان السلوقيون كثيراً من الكتابات وكذلك الرومان تركوا كثيراً من الآثار منها المعابد كمعبد حيران وميماس وقنوات (معبد اله الشمس ومعبد الاله تروس) ومعابد عتيل وسليم وبريكه والمشف وشها التي بناها الامبراطور فيليب العربي بين عامي ٢٤٤ - ٢٤٩ م ومعابد في ام الزيتون والهيات وشقا وشها ويطلق عليها اسم كلية .

ومسارح في قنوات وشها والسويداء . وحمامات في كل من شها وقنوات ومساكن كثيرة تتميز بكثرة الأقواس والاعمدة والنوافذ الضيقة والابواب الحجرية . وبنوا الفنادق (الخانات) والقصور كما في شقا وتركو مقابر كثيرة كما في شها (مقبرة الامبراطور فيليب العربي) وفي ريمة اللحف وقنوات وذيين وحما الوردان وبكا . وحفروا خزانات للمياه لتخزينها لوقت الحاجة اليها كما في قنوات . وجروا المياه الى كل القرى وحصنوا المدن وبنوا الابراج كما في قنوات وشقا وملح وعرمان . ومدوا الطرق وأهمها تلك التي تؤدي من السويداء الى سبيع ومن بصرى الى صلخد ومن بصرى الى شهابامارة بالسويداء وسليم . وطريق صلخد - امتان . وبوسان - السويداء واعظم هذه الطرق هي طريق اللجاه ، والطريق التي تؤدي من أقصى الشمال الى البحر الأحمر جنوباً مدها الامبراطور تراجانوس خلدت العجلات آثارها فيها . وتركوا أبواباً في مفترق الطرق كما في شها وكذلك أقواس النصر كما في شها وبصرى . وترك الرومان المسيحيون (البيزنطيون) كثيراً من الكنائس كما في

السويداء وقنوات وحما البردان وعوس وغره وطفحة وعمره وشقا وكثيراً من
الاديرة كدير شقا ودير النصراني شرقي ملح ودير ملح . وكانت الابراج تقام
الى جانب هذه الاديرة . وتركوا كثيراً من المقابر كما في قنوات والمجدل .
وترك الايوبيون كثيراً من الآثار . أهمها في صلخد ، اذ جعلوها حصناً
منيعاً لشن الهجمات على الصليبيين ابان الحروب الصليبية .



فرساجتماع الجبل

ملفوظات

ظل الجبل بعد خروج الاتراك من البلاد يدار عشائرياً مدة طويلة ،
ولما احتل الفرنسيون دمشق في ١٥/٧/١٩٢٠ اخذوا يبسطون سلطانهم على
المناطق السورية ولم يدخلوا الجبل الا في اواخر ذلك العام . وكانت سياستهم أن
يجزئوا البلاد الى دويلات متفرقة تخضع للسيطرة الفرنسية لكي يمنعوا توحيد
نضال الشعب ضدهم ويكثروا من طبقة المنتفعين بوجودهم ، ولذا فقد اعلنوا
استقلال الجبل في ٥/٤/١٩٢١ وأصدر غورو أمراً الى الامير سليم الاطرش
بتأليف أول حكومة فيه واستطاع هذا ان يجعل بعض أنصاره يؤيدون
الاستقلال ويساهمون في ادارة « حكومته » ولكن توطيد الغزو الفرنسي
لم يسر الا ببطء شديد فقد ظل نصف الجبل على وضعه السابق مع وجود
الفرنسيين في النصف الآخر الى ان فقد الوطنيون الأمل القريب بطرد فرنسا
خاصة والبلاد السورية كلها اصيبت بر كود وطني على اثر دخول الاستعمار
وحل الحكومة الفيصلية . وقدرت السلطة الفرنسية ان الثورة عليها ستنشأ من
الجبل فاستدعت احد ضباط أركان حرب الجيش العراقي سامي باشا الفاروقي
الذي قاد الحملة التركية على الجبل في ١٠/٨/١٩١٠ ووقفت منه على اسرار الحطوط
الحربية التي اتبعها بمهاجمة الجبل ورسمه لها خريطة بمواقعه الحربية (١) وألحت
باغرائها على المتنفذين وجندت فصائل من الشباب في جيشها وكانت دعايتها
تتركز على اذكاء التعصب الطائفي وبث الخلافات المحلية لتبقى لها اليد الطولى
على الدوام .

وأرادت فرنسا ان تعطي للصورة المزيفة التي خلقتها كل الحطوط التي
توهم بصدقها ، فجعلت يوم الخامس من نيسان عيداً وطنياً اسمته عيد الاستقلال
واحتفلت به لأول مرة في ٥/٤/١٩٢٢ وكان الكومندان (ترانسكا) مستشاراً

(١) تاريخ الثورات السورية . ادم آل جندي ص ١٨٥

للأمير سليم منذ توليه رئاسة « الحكومة » فلما توفي الأمير سليم في ١٩٢٣/٩/٥ وكان ترانكا قد غادر الجبل منذ شهور قليلة عين السكايتن كاربيه حاكماً للجبل^(١) .

الادارة الفرنسية في الجبل :

قسم الجبل الى ثلاثة عشر ناحية وشكلت ادارات للمالية والمعارف والاشغال والداخلية يرأس كلا منها موظف فرنسي وترتبط بالحكم العام ومع أنه وظف بعض المواطنين في هذه الادارات الا ان السلطة الفعلية كانت بيد الفرنسيين ومارس كاربيه وأعوانه مختلف ضروب الضغط والسيطرة فكانت شديدة الوطأة على السكان منذ قدومه حتى خرج قبيل الثورة الكبرى^(٢) في ١٩٢٥ . واصبح ابناء معروف على تصرفاته وذكروا نائب المفوض السامي في دمشق بأن الوعود التي قطعت تجعل للجبل حاكماً من ابنائه فجاء الرد من من المفوض السامي في بيروت الجنرال فيجان بذار اصدره بتاريخ ١٩٢٤/١٢/٣ يثبت فيه كاربيه كحاكم للجبل^(٣) .

واحتج واضحاً ان الاستعمار كان ينظر الى تثبيت البلاد كأمر يجب دوامه فالجبل لا يرتبط لا يرتبط بدمشق تكون صلته مع المفوض السامي في بيروت مباشرة .

ومن الطبيعي ان يستغل الموظفون الفرنسيون ما كزهم للاتراء السريع والبطش والتعدي وهم يتحكمون دون رقيب على أعمالهم وسنورد في الفصل الخامس بأسباب الثورة نماذج متنوعة لتصرفاتهم الخزية .

الثورة الاولى في الجبل :

صدق حدس الفرنسيين وتقديرهم لأن الهدوء الذي قوبلوا به لم يدم

(١) عبد الله النجار - بنو معروف في جبل حوران ص ١٤٧

(٢) المصدر السابق نفسه - ص ١٤٨

(٣) امين سعيد - الثورة السورية الكبرى ص ٢٩٤

ونشب الثورة ضدّهم بعد أول عيد للاستقلال أقاموه بقليل، ويتلخص سببها المباشر بلجوء الشهيد أدهم خنجر الذي كان قد أطلق النار على غورو وهو في طريقه من دمشق إلى القنيطرة بتاريخ ١٩٢١/٦/٢٣ فحوكم غيابياً وتقرر اعدامه .
وفكر بعد فترة من الاختفاء ان يلجأ لسلطان الاطرش . بالقرب لما عرف عنه من عداة للفرنسيين ولأنه كان أول قائد عربي يدخل دمشق في طليعة الجيش العربي الفيصلي . ووصل الى القريا مساء ١٩٢٢/٧/٢١ (١) ومعه بضعة فرسان ملثمين وقبل ان يلتقي بسلطان قبضت عليه القوة الموجودة في مديرية الناحية وطلب من المدير ان يرى سلطانا ولكن هذا رفض وساقه في نفس الليلة الى السويداء .

وعلم سلطان الاطرش في اليوم الثاني بقضية لجوء ادهم خنجر وحجزه من قبل السلطة لان ادهم أرسل له كتاباً من السويداء مع قائد سجونها يخبره فيه بلجوئه واعتقاله وبأن المشنقة تنتظره ويؤكد فيه استعداده للمثول أمام اية محكمة تعقد للنظر في قضيته .

فأرسل سلطان أخاه علياً للسويداء حتى يتوسط مع ترانكا لتسليم ادهم ويتعهد بالمحافظة عليه حتى يقدم الى المحاكمة ولكن ترانكا رفض ذلك وتهدد (سلطان) ووجد في موقف بعض الوجهاء تأييداً له .

ولما علم سلطان الاطرش بالخبر ارسل (مفرزاً) (٢) الى القضاء الجنوبي وطلب ممن يريد خصام الفرنسيين ان يأتي للسويداء .

وهكذا لم يمر يومان حتى كانت السويداء محاصرة من الثوار ، ولم يبق أمام السلطة الا محاولة التقاهم فأصر الثوار على اخذ ادهم معهم وابتعدوا الى سليم

(١) عبد الله التيجار - بنو معروف في جبل حوران ص ١٣٣

(٢) المفرز : هو الشخص الذي يخبر القرى بالحادث الهام ويطلب اليهم النجدة وينقل فارساً من قرية لأخرى .

الاطرش حاكم الجبل الايمن الذي كان يومها في دمشق وأرادوا انتظاره على الطريق وبدلاً من وصوله فقد اصطدموا برتل من الدبابات قادمًا للسويداء بطريق (تل الحديد) (١) واتضح لهم ان مفاوضة السلطة لم تكن الا محاولة منها لكسب الوقت وان مهمة الدبابات ليست الا تفريق المحاصرين وسوق ادم خنجر الى بيروت فصدموها صدمة قوية ودارت مع الرتل معركة خاطفة سميت فيما بعد بمعركة تل الحديد وكانت نتيجتها تحطيم اربع دبابات وفرار الخامسة واستسلام اربعة جنود بينهم ضابط وقتل الآخرين ولم يستشهد من الثوار أحد. وقبل ان يغادروا مكان المعركة وصل سليم الاطرش من دمشق ورأى القتلى والاسرى فطلب من الثوار الهدوء وتعهد بحل القضية ودياً مع الافرنسيين فتسلم الاسرى وذهب بهم للسويداء .

وشعر سلطان بخط تسلیم أسراه لانهم كانوا خير فداء لأدم خنجر ولكن وعود الامير سليم لم تفلح فاقناع الافرنسيين لم يكن سهلاً وهكذا فقد تأزم الموقف وتداول الثوار بأمر الهجوم على السويداء .

وبعد اربعة ايام من الحصار وبعد ان توسطت في حل المشكلة وفود كثيرة وعد الفرنسيون بتسليم أدم خنجر، واشترطوا ان يتفرق الثوار، ويظل سلطان مع عدد قليل لاستلامه، وقبل المحاصرون الوعد، فتفرقوا لأن التهيئة لم تكن موجودة ولا يصح ان ينفرد الجبل بتقريرها قبل التشاور مع المناطق السورية الاخرى .

تفرق الثوار وبقي سلطان مع عدد قليل منهم وذهب الى قرية قريبة جنوب السويداء تدعى (العفينة) بانتظار وصول ادمهم ولكن الفرنسيين أرسلوا طائرة استكشافية فأكدت من فك الحصار ثم ضربوا القرية بالطائرات فهدموا دار سلطان وأوقعوا الرعب في نفوس اهل البلدة فتفرقوا منها وكانت هذه هي المرة الأولى التي يضرب بها الجبل بالطائرات .

(١) تل الحديد : هضبة تقع غرب السويداء وكان الطريق القديم يمر منها .

وأدرك أهل الجبل ان اياما مريرة تنتظرهم مع دولة لانتحرم وعودها ولا تأبه
لكث العهد والغدر بالآمنين ولا تفرق بين امرأة وطفل وشيخ حين تصب
قنابلها ونيرانها .

ولدى عودة سلطان الى القريا جهز مايلزمه في سفر طويل ، وخرج
بأهله والمقربين منه الى بادية بني الحسن في جنوب غرب الجبل وقرر مناقشة
الفرنسيين من هناك . ومن الطبيعي ان يصبح جمع مثل العدد الاول صعباً
لأن السرعة لا تجدي في قتال دولة كفرنسا ان لم تقترن بتهيئة طويلة .

في ديار بني الحسن ضربت بيوت الشعر واتخذت مقراً للثوار القليلي
العدد وجرى اتصال مع رجال الحكومة السورية الفيصلية الذين كانوا يومها في
عمان فقدم منهم رشيد طليع ووعدهم بان الاحرار لن يسكتوا على غدرفرنسا
واتفقوا واياهم على الاستمرار في العصيان .

وأرادت السلطة مضايقتهم فأخذت ترسل قوة من الجيش الى القرى التي
التحق بعض افرادها بسلطان لكي تحصد غلالهم وخاصة «بيادر» (١) القريا
وبرد ولم يكن امام الثوار الا الرد عليها فتصدوا لقوة من الجيش الفرنسي قرب
برد يوم ١٩٢٢/٨/٧ فأوقعوا بها خسائر فادحة ولا يزال قبر احد ضباطهم مكان
المعركة حتى اليوم .

وبعد مدة بعثوا رسولا الى سلطان يحمل كتابا من يوسف الشويري
صديقه ، وفيه ان السلطة الفرنسية في بصرى قررت ايفاد احد الضباط ليتفاهم مع
الثوار ويحقق مطالبهم على ان يتم الاجتماع في قرية (سمج) ولم يكن هناك مجال
للسك في اخلاص الشويري فأتى عدد من الثوار على رأسهم سلطان في اليوم
المحدد الى (سمج) وقرروا عدم المبيت فيها فناموا قريبا منها ورأوا مع الفجر
ان الجيش الفرنسي وقد طوق القرية ثم دخلها ونكل بأهلها وكاد يقتل يوسف
الشويري من الضرب المبرح وحاول عبثا ايجاد الثوار فيها .

(١) البيادر ج بدر هو المكان الذي تجمع عليه الغلال في الصيف لاستخراج حبوبها .

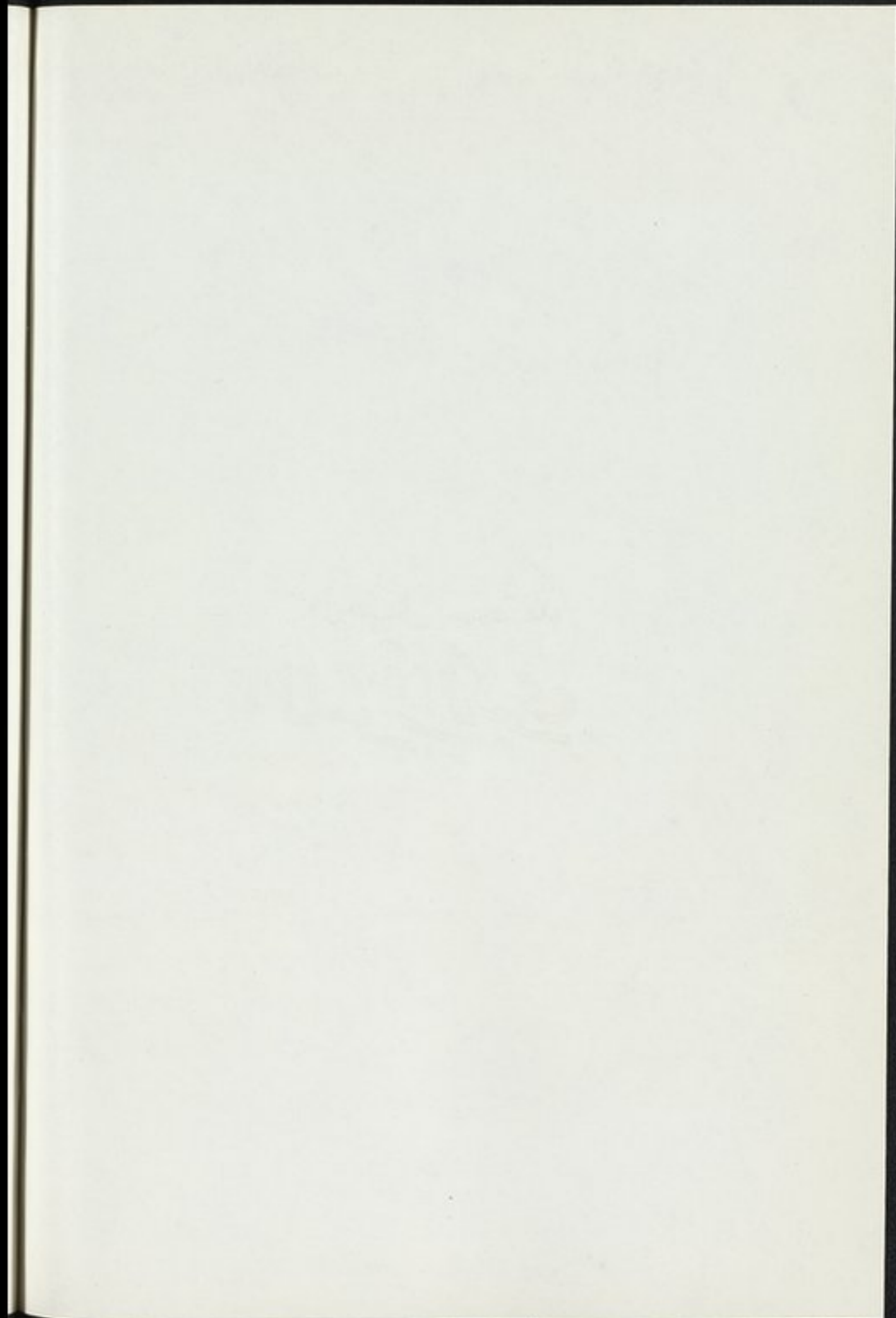
وبعد أن خلت القرية رابط الثوار في واد لا بد من اجتياز الجيش له،
وفاجأوه بنار حامية فبوغت وأخذ يطلق الرصاص على غير هدى وظلت المعركة
مستمرة أكثر من خمس ساعات حتى حلول الظلام وكسب الثوار فيها كثيراً
من الاسلحة والذخائر ولم يسقط منهم في ميدان الشهادة أحد .

ولم تجر بعدها معارك ما، إلا ان الفرنسيين ضربوا قرية ام الرمان
بطائراتهم في ٢٧/٨/١٩٢٢ وظل الثوار يعيشون في خيامهم سنة كاملة .

وكانت الوفود الوسيطة لا تنقطع وكلها تطلب منهم العودة لأنه لا يصح
بقاؤهم بعيدين وحدهم ويجب الانتظار والتهيئة لفرصة أخرى وعلما من آخر
وفد زارهم في نهاية آذار ١٩٢٣ ان ترانكا قد اعفاهم من كل مسؤولية وسيعلن
العفو العام في عيد الاستقلال القريب .

وكانت الآراء قد اتفقت بينهم وبين الاحرار المبعدين في عمان على العودة
والانتظار فرجعوا الى السويداء في ٥/٤/١٩٢٣ ولم يبق في احتفال العيد أحد لأن
الناس استقبلتهم بغاية الحماس والحنين ، وغازت ترانكا تركه وحيداً مع جنوده
محتفلاً بالاستقلال الذي فرضوه فحاول الغدر بالثوار مرة أخرى، ولكن حماس
الجمهير وغضبها جعله يعدل عن رأيه الذي ابداه، ويعلن العفو العام عنهم واحلالهم
من مسؤولية . وكان ادم خنجر لا يزال في السويداء فنقلوه بالطائرة الى بيروت
واعدموه .

الجبيل سيتعد
للشؤون الكبرى



ماهي الاهداف الفرنسية في الجبل ؟

لم تكن اهدافهم فيه تختلف عنها في المناطق السورية الاخرى فلقـد اقنعوا عصبة الامم ومجلس الحلفاء الاعلى بالموافقة على انتدابهم وجاء في المادة ٢٢ من عهد عصبة الامم « ان الانتداب وقتي ، وان مهمة الدولة المنتدبة مقتصرة على بذل الارشاد والنصائح للبلاد التي تنتدب عليها ريثما تتمكن من الوقوف على رجلها » ولكن فرنسا اعتبرت سوريا غنيمة حرب وعاملتها كما يعامل العبيد وكانت امكانيات الاستغلال الاقتصادي لسوريا ولبنان وفسح مجال واسع امام الفرنسيين للعمل والاسترزاق اهم غايتين لها .

وخطب مسيو جيوار في الجمعية الوطنية الفرنسية بباريس بتاريخ ١٩٢٢/٦/٢٣ مصرحاً ان الغرفتين التجاريتين في ليون ومرسيليا كان لهما التأثير الكبير في حمل الحكومة على ركوب هذا المركب وارسلت غرفة ليون لجنة لدرس الحالة الاقتصادية قبل ان تباشر مع زميلتها المارسييلية الضغط على الحكومة التي استجابت لهما وضحت بالآلاف من ابناء فرنسا في سبيل غايتها ، وكان امام جيوار وهو يخطب تقرير مفتش جيش الشرق الافرنسي الذي ذكر هذه الحقائق (١) .

ولكن الآلاف المؤلفة لم يكونوا الا من ابناء المستعمرات المجندين في جيش فرنسا ، ونقبات جريدة المارتان بتاريخ ١١/١٢/١٩٢٠ خلاصة مناقشة بين مسيو (لايج) رئيس الوزارة الافرنسية آنذ وبين مسيو بيار سفيرها في استامبول وأوضح السفير فيها ان الامر الصادر عن الحكومة بتاريخ ١٠/١٢/١٩٢٠ يجعل الحكم الفرنسي على سوريا مباشراً ودائماً خلاف تعهدها امام لجنة

(١) حنا خباز س ١٢٤

الانتدابات بعصبة الامم فأفحم لايبج ولما سأله بمبار اية سوريا تحتلون ؟ والى متى ؟ اجاب بوقاحة : كل سوريا والى الابد (١) .

وخطب غورو الجنرال الذي احتل سوريا أمام مسيو بوانسكاره وزير المعارف ورئيس الجمهورية الفرنسية فيما بعد ، خطب بتاريخ ١٨/٢/١٩٢٢ قائلاً : ان لفرنسا حقوقاً في البلاد التي احتلتها ترجع الى ايام الحروب الصليبية (٢) .

ونشر (المقطم) بتاريخ ٢٩/٣/١٩٢١ تصريحاً للكولونيل (لايبج) رئيس الحامية الفرنسية في اللاذقية يقول فيه : نحن هنا في سوريا وسنبقى الى الابد ، لا نحذف من حصتنا الاحتلالية شبراً .

وهكذا نرى ان فرنسا نظرت الى انتدابها على سوريا كاحتلال فعلي . وسخرت من نصوص عهد عصبة الامم فاعتبرت حكمها ابدياً ، وكذبت على التاريخ ، فادعت ان لها حقوقاً ترجع الى ايام الصليبيين وكان اول عمل صنعه غورو في دمشق ان داس على قبر صلاح الدين الايوبي وقال : ها نحن عدنا يا صلاح الدين .

وكان الدافع الاجرامي لها الطمع الاقتصادي الذي غلفته باحلام العظمة الفارغة فانعكست اهدافها على سياستها في الجبل وعجلت بنقمة الناس واندفاعهم للثورة عليها .

المساوية الفرنسية التي عجلت بقيام الثورة :

كان هناك وعد من الفرنسيين ان يكون على رأس حكومة الجبل جاكم وطني ، واستلم الامبر سليم الاطرش هذا المنصب وعين ترانكا مستشاراً له ولكن المستشار لم يتروك للحاكم اية صلاحية فاعتزل المسؤولية في اوائل سنة

(١) المصدر السابق ص ١٣٦

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧

١٩٢٣ وأخذ ترانكا يدير البلاد بحكم مباشر . واستجابة للاح الأهلين على السلطة لتتقيد بوعدها قدم مسيو شوفلر المندوب المفوض السامي لدي (حكومتي) دمشق والجبل الى عري وأقنع الامير سليم بالعودة الى (الحكم) فعاد بتاريخ ١٩٢٣/٧/٢٤ وعين كاربيه مستشاراً له^(١) وأخذ كاربيه يعطي صورة رهيبية للضغط والارهاب والتدخل في كل الشؤون ولما توفي الامير سليم في ١٩٢٣/٩/٥ نصب نفسه حاكماً للجبل ولم تنفع جميع المحاولات التي بذلت لتغييره بحاكم وطني كما تقدم . وعاش الجبل في عهده فترة سوداء لقي فيها كل انواع الظلم والمهانة والسلب والاستبداد على يديه ويد موظفيه وجواسيسه ولا يزال المعمرون في الجبل يتذكرون ذلك العهد وفي اجسام الكثيرين منهم آثار للضرب أو لتكسير الحجارة وفي روحهم جراحات عميقة لا تندمل .

ومن الصعب ان نلم بكل التفاصيل المخزية التي ارتكبتها السلطة واذا كنا سنذكر بعض الحوادث بأسماء أصحابها فهاهي الا عينات لوضع استمر سنتين . وقد تعددت المظالم وشاع خبرها في الجبل وخارجه وكانت قاسية لا يمكن ان يقدم على ارتكابها سوى فرنسا وهذه بعضها :

١ - التجسس على المواطنين : اعتمدت السلطة على جواسيسها وأطلقت يدهم في الوشاية الكاذبة حتى تحول جهاز التعليم الى جهاز لمراقبة المواطنين ، وكانت السلطة تأخذ بأقوال جواسيسها دون تحقيق ولا يهمها صدقهم كثيراً وانما غايتها ان تلقي في السجون عدداً أكبر وتعذب من الناس أفواجاً جديدة .

فلقد سجن جامد فرقوط من ذيبين خمسة أشهر وتمزق جلده وكسرت أضلاعه من الضرب ثم تبين ان الوشاية كانت كاذبة أصلاً ولم ينل مقتر فيها عقاب . وسجن الشيخ سعيد طربين وأخوه سليمان وغيرهما مدة شهر ونصف مع تكسير الحجارة دون أن يسأل عن شيء .

(١) عبد الله النجار - بنو معروف ص ١٤٧

ونال الاعتداء الموظفين كما نال غيرهم فقد أوقف قائمقام صلخد وضرب
وأهين أمام الناس دون تحقيق ما وهو السيد فهد الاطرش والد الفنان العربي
الكبير فريد الاطرش .

وأوقف سليمان نصار مدير ناحية سالمة مدة شهر ونصف قضاها في
كسبر الحجارة دونما سبب .

وكان حظ المسيحيين كحظ الدروز فأوقف ثلاثة منهم من خربا
وضربوا وأهينوا وكسروا الحجارة .

وكانت هذه الحوادث تتكرر كل يوم فأبى وشاية تكفي لتزج أي
شخص بالسجن حيث يلقي الضرب الشديد والاهانة وتكسبر الحجارة دون
سؤاله عن صحة ما نسب اليه أو السماح له بالدفاع عن نفسه .

٢ - اهانة الاهلين تعمداً : أراد الفرنسيون ان يفرضوا على الناس
احترامهم بالقوة فكان لزاماً على كل شخص يرى أحدهم ان يجيبه ولو كانت
الاعراف تقضي بالعكس فالمار يجيب الجالس مثلاً والواحد يجيب الاثنين اذا
كانوا سائرين وأما تحية الافرنسي فللزامة سواء كان هناك وطني واحد او جمع
غفير او كان الاجنبي جالساً او سائراً .

ونكل ممثلو فرنسا بكل من تخلف عن اداء هذا (الواجب) ولو كان
تخلفه غير مقصود .

فقد تمزق جلد السيد حسن كبول من (ريمة اللحف) ضرباً بالسياط
لانه لم يلق السلام على (الكابورال دي بوشيل) .

وسجن السيد محمد رضوان من السويداء خمسة عشر يوماً وضرب ضرباً
مبرحاً وطرده من وظيفته لأنه لم يقب له مرور احد الضباط الفرنسيين فيجيبه .

٣ - الاستقبالات الحافلة لموظفيهم : تمت هذه الاستقبالات بالضغط
الشديد وحدث ان تغيب السيد حسين حديفه من قرية الكفر عن استقبال

(كاربييه) فسجن خمسة عشر يوماً وضرب وأهين ثم غرمت قرية الكفر كلها
عشرين ليرة عثمانية ذهبية .

ولم يرض كاربييه عن استقبال اهل عرمان له فغرمهم مبلغ عشرين
ليرة ذهبية كذلك .

٤ - تغريم الاهلين : كثير تغريم الناس لمختلف الاسباب فقد غرم أحد
أحياء السويداء ثلاثة عشر ليرة ذهبية لان أحد مصاييح البلدية قد سرق ثم
تبين ان السارق احد جواسيسهم .

وضاعت هرة لزوجة الليوتنان موريل فغرم أهل السويداء كلهم عشر
ليرات ذهبية ثمناً لها .

٥ - ادخل احد الجواسيس في روعهم ان كل من يسعل يلعن الفرنسيين ،
وسجن العشرات من الاشخاص لان السعال فاجأهم بحضور الافرنسيين وبقي
السيد خزاعي الحلبي شهرين كاملين في السجن بجريمة (سعاله) أمام افرنسي .

٦ - الرشوة : لم يكن موظفهم يقضون أية مصلحة للمواطن ان لم
يدفع رشوة كبيرة حتى فاقوا بها الاتراك وأثاروا الاشمزاز العميق من الجميع .

٧ - كان من حق اي دركي (شرطي) ان يضرب من يشاء او ساعة
يشاء وكانت العصا لا تفارق يده اينما سار .

٨ - اتخذ كاربييه زي المتدينين فأطال لحيته ولبس العمامة وكان مصابا
بشدوذ جنسي فاتخذ له عدداً من الفتيان يعاملونه كما تعامل النساء وكان ينتقهم
علناً وبزبه المتدين بما اعتبره الناس تحدياً لهم .

ولم تكن هذه الاعمال مقتصرة على بعضهم دون الآخر وانما كان كل
افرنسي صورة للظلم والارهاب والقسوة والباحث عن تاريخهم في سوريا يرى
أفعالهم في كل مناطقها صورة لافعالهم في الجبل .

تنبه الروح الوطنية وانتشار الوعي والاستعداد للمقاومة :

استطاع الفرنسيون ان يجدوا بعض المناصرين لسياستهم في الجبل

فتجنبوا مقاومته عند دخولهم وتم لهم ما أرادوا من عزله عن المناطق السورية الأخرى، ولم تظهر حركة ايجابية اول الامر تتصل بالوطنيين فيه من دمشق أو غيرها لان زوال الحكم الفيصلي بتلك السرعة أفقد الوطنية روح المبادرة زمنياً ليس قصيراً . واعتقدت السلطة الفرنسية ان الاكاذيب التي كانت تنشرها على الدوام مثل استقلال الجبل وتخويف سكانه من اعتداءات الحوارة والدمشقيين يمكن ان تعيش طويلاً وبلغ التخريف بأحد كتبهم (بورو) ان نشر كتابا باللغة الفرنسية يربط فيه بين أصل الدروز وبين فرنسا بل لقد نسبهم الى مقاطعة (دروا) الفرنسية .

ولكن هذه الاكاذيب التي شقت لها طريقاً الى قلوب بعض المخدوعين والانتهازيين والمتدينين وجدت في طريقها سداً وطنياً منيعاً وقلوباً لم تأبه لها لأنها قررت محاربتها . فمنذ اليوم الاول لدخول الفرنسيين أرض الجبل برز تيار وطني لم يرض عنهم ولم يمالئهم وعرف عن سلطان الاطرش منذ البداية أنه أحد أقطاب التيار الوطني .

ومع كل خطأ يقع فيه الفرنسيون وما اكثر الأخطاء والجرائم التي اقترفوها - يزداد الوطنيون أنصاراً فلما نشبت الثورة الأولى لبي نداءها ابناء الجبل بالآلاف .

وتردد صداها في المناطق السورية فدخلت حلبة الصراع عناصر شعبية كثيرة (١) وحاول أهل الجبل في كل مناسبة يأتي فيها أحد المسؤولين الفرنسيين لزيارتهم ان يشكو ظلم السلطة ولكن شكواهم لم تقبل ، بل كانوا ينهبون سلفاً بضرورة الصمت ويهددون بالعقاب الصارم اذا رفعوا اصواتهم .

وحدث اثناء حكم كاربيه ان عقدوا اجتماعاً سرياً في عري ، ووقعوا فيه عريضة تطالب بتعيين حاكم وطني مكان كاربييه ، ثم حملت العريضة سرا الى دمشق

(١) الثورة العربية الكبرى ص ٣٠ ص ٢٤٤

فلم يصغ لها وأجبر السكان بعدها على توقيع عرائض جديدة تطالب بإبقاء كاربييه وتثني على جهوده (١) .

وأنت الاخبار ان المفوض السامي الجديد الجنرال ساراي سيوزر الجبل في عيد الاستقلال الرابع ١٩٢٥/٤/٥ فأجمع رأي الاهلين على مطالبته برفع المظالم عنهم وهياؤاله مطالبهم مكتوبة ولما سلموها له طواها ولم يقرأها وأبدى رغبته بان يقابله وفد منهم في دمشق ، وسافر الوفد كما رغب المفوض السامي وكانت نتيجة المقابلة ان طرد اعضاءه وأمرهم بمغادرة دمشق خلال ساعتين واعتقل العضو المسيحي فيه السيد عقلة القطامي ونفاه الى تدمر لانه كبير عليه ان يتحد المسيحيون والمسلمون في مقارمة فرنسا (٢) .

وكان الوطنيون في هذه الاثناء ينتظرون المناسبة لاستئناف النضال كما تعودوه نضالا حريباً يجابه القوة بالقوة فترك سلطان الاطرش داره مهـدمـة ، وسكن في بيت من الشعر كان المتحمسون يقدون اليه باستمرار .

وانتعشت الحركة الوطنية في داخل سوريا عندما استبدل المفوض السامي فيجان بالجنرال ساراي في ١٩٢٤/١١/٢٤ وأخذ اقطابها في دمشق والمدن السورية الاخرى يتصلون ببعضهم وتآلف حزب الشعب برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر فوجه الحزب انظاره الى الجبل واتصل بزعمائه المعروفين بوطنيتهم فعقدت الموائيق الجازمة بأن يتحد الجميع في العمل على اخراج الفرنسيين وضم الأجزاء السورية الى بعضها .

وأصبح الجبل مقترنا بمعنى جديد لم يتضح ايام مقاومة الاتراك وهو ان مقاومة الاستعمار ترتبط بالعمل القومي الشامل في خطوة واحدة لجمع اجزاء سوريا الشقيقة واستقلالها .

غياب كاربييه : نال كاربييه اجازة شهرين بتاريخ ١٩٢٥/٥/١٨ يقضيها

(١) امين سعيد : الثورة العربية الكبرى : ٢٩٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦

في فرنسا وعين وكيلا له في غيابه الكاتبين رينو وأحس أهل الجبل مباشرة بأن الكابوس قد تخلى عن صدورهم فكثرت الاتصالات والزيارات وبرز الوطنيون للعمل الحاسم فشكوا لجائناً تهيباً للثورة وتصل بمناطق الجبل المختلفة وأختير سلطان الاطرش ليرأسها (١) وتقرر ان يكون العمل الظاهري طلب نقل كاربييه وإبداله برينو ليخرج الفرنسيون من جهة ولتغاصى هذا عن نشاطهم من جهة ثانية وهم واثقون ان المفوض السامي لن يلبي مطالبهم فوقع ابناء الجبل عرائض كثيرة تطالب بنقل كاربييه وأبرق الموظفون الوطنيون الى سراي قائلين: نرجو من الجنرال ان يقبل استقالتنا اذا رفض ابدال كاربييه لاننا لانستطيع العمل معه .

وأبرقت اللجنة العليا الى برونته مندوب المفوض السامي في دمشق طالبة ان يقابل وفدها الذي تكون من ثلاثين شخصاً معروفاً، وحمل عريضة قدمها للمندوب في ١٦/٦/١٩٢٥ وقد جاء فيها: ان جبل الدروز جزء لا يتجزأ من سوريا تجتمع بها جامعة اللغة والجنس وتربطه بها روابط اقتصادية مستحكمة الحلقات . وتطالب من فرنسا ان يسود القانون في الجبل وان تسمع شكواه واخيراً ترجو ابدال كاربييه بحاكم فرنسي هو رينو فوعدهم ان يتوسط لتحقيق مطالبهم عند الجنرال سراي فتوجه الوفد الى بيروت لمقابلته ولكنه رفض استقبالهم وهددهم بالاعتقال والنفي ان لم يعودوا في الحال على اعقابهم . وكانت خيبة الوفد في مسعاه نجاحاً تاماً لحطة الوطنيين في الجبل وآخر خيطة تمسك به المترددون والمتخوفون من الثورة والمؤيدون للانتداب .

فلم يكفد يصل السويداء حتى عمت النقمة كل النفوس واجتمع زهرة الشباب في السويداء برئاسة سلطان الاطرش وطلبوا الى المجلس الوطني في الجبل ان يوافق على تنحية كاربييه فاجتمع المجلس وكان يمثل بالاسم السلطة التشريعية واتخذ قراراً اجماعياً بتنحية كاربييه في ٣/٧/١٩٢٥ وارادت السلطة ان تتدخل

(١) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ص ٢٩٦

فذهب الملازم (موريل) الى مكان الاجتماع وانهاض ضرباً بسوطه النحاسي على وجوه الاعضاء (ممثلي الشعب) فرد عليه حسين مرشد بضربة عصا على وجهه ، وثارت ثائرة الافرنسيين فلم يعاقبوا موريل الذي اقتحم اجتماع المجلس وضرب اعضاءه ولكنهم وضعوا اربعة شروط لحل القضية صلحاً :

١ - يعتذر الشيوخ والزعماء للملازم عن الاهانة التي لحقت به ،

٢ - يدفع أهل السويداء مائتي ليرة ذهبية غرامة .

٣ - ينفي عشرة رجال مع حسين مرشد من السويداء ،

٤ - تهدم داره .

وكان سلطان مع كثير من الوطنيين في السويداء يومها ، فأرسل إلى حسين مرشد انه سيزوره وينبغي ان يظهر وا قواهم ليتراجع الفرنسيون فاستقبل عند زيارته بمظاهرة حماسية رائعة أخافت الفرنسيين وتنازلوا عن شرطهم الرابع فنفذ الاهلون الشروط الثلاثة الاولى وخرج عشرة رجال الى القرية منفين . وواضح ان عدم الرد العنيف على السلطة كان يقصده منه فصح المجال للتهيئة الشاملة والاستعداد الكبير للثورة .

واحس ساراي بعد ان وصلته الانباء بغليان الجبل ورأى في موقف رينو ضعفاً فطلب الى مندوبه في دمشق ان يعزله فعين تومي مارتن مكانه ووصل السويداء بتاريخ ١٩٢٥/٧/٦ وهو يحمل اوامر تقضي بالتمهيد مع المؤيدين لفرنسا لكي يعود كاربييه واعلن ساراي في مذكراته فيما بعد انه لا بأس على شيء ، اسفه على ابقاء كاربييه في الجبل وانه اراد مباحثته بالامر واستبداله بغيره بعد عودته ، ولكنه صمم على عدم خضوعه للضغط الوطني ورضوخه لمطالب الاهلين لانه تعود الا يخضع للمشاغبيين (١) واشتهى ان يلقتهم درساً فابلغ مندوب في دمشق ليستدعي كل المحرضين ثم يعتقلهم وينفيهم الى مكان يقرره المندوب . وهكذا فقد اعلن تومي مارتن انه قادم للتحقيق وانه يرجو وجهاء

(١) تاريخ الثورات السورية - ادم آل جندي ص ١٨٥

الجبل بالنزول الى دمشق ومقابلة مندوب المفوض وتقديم شكواهم اليه فتشكل وفد كبير على الرغم من معارضة سلطان الاطرش وتحذيره من غدر الفرنسيين وذهب الوفد لدمشق فاعتقله الفرنسيون وسدوا طرق الجبل حتى يبقى الاعتقال مكتوما ثم اخذوا يرسلون الاشخاص المعروفين حتى يلتحقوا برفاقهم اعضاء الوفد .

وارادوا بصورة خاصة ان يعتقلوا سلطانا ، وكان قد علم بما جرى مع الوفد لأن احد اعضائه تمكن من الفرار فأرسلوا ضابطاً قابله في القرياء ورجاه ان يذهب لدمشق لان مندوب المفوض معجب به ويريد سماع أقواله .

وأدرك الرجل ان الفرصة قد واتت وان السكوت الآن لن يجز سوى خيبة الأمل المتفتح والقضاء على الحماسة التي التهب في الصدور فبعد ان أخبر الضابط الفرنسي بأنه يعلم ان الوفد معتقل وحذره من مغبة غدر الفرنسيين شكل طليعة ثورية وانتقل من القريا الى قرى القضاء الجنوبي يدعو الناس للثورة ويذكرهم بأن القوة وحدها تريحهم من الاستعمار البغيض .

ولم يلتحق بالثائرين اعداد كبيرة في بداية الأمر وظل شأنهم ضعيفاً حتى وصلوا عرمان فاستقبلتهم بحماسها المعروف وكثر عددهم واستراحوا فيها يومين اتصلوا اثناءهما بالجهة الشرقية من الجبل . وحلقت فوقهم طائرتان فرنسيتان فأسقطوا احدهما .

ثم توجه الثوار الى صلخد وعددهم يزداد في كل لحظة وقرروا ان يتمر كزوا في « العين » القريب من صلخد ومنه يكاتبون انحاء الجبل الشمالية التي لم يصلها العلم الأكيد ببداية الثورة بعد .

وهكذا فقد حدث ما لا بد من حدوثه، وبدأت الثورة الدموية الكبرى على الفرنسيين التي عمّت مناطق سوريا كلها فيما بعد، وسجل ابناء الجبل وابناء سوريا بطولات اسطورية فيها ، وكانت الايام الاولى منها مثلاً فريداً على اندفاع الشعب كله كتلة واحدة في سبيل تحقيق أمانيه فجابته وهو أعزل قليل العدد فرنسا العظيمة صاحبة الجيوش المسلحة بأفتك الاسلحة واحداثها يومذاك .

المعارك الأولى الكبيرة

معركة الكفو : علمت السلطة بتجركات الثوار فسيرت حملة وراءهم بقيادة نور من تتبع خط السير الذي اتبعوه وقبل ان تصل الى القريا أرسلت بعض الحيلة لارهاب أهلها فتصدى لهم علي الاطرش أخو سلطان وأفهمهم انه سيقاوم الحملة اذا مرت في القريا فغير نور من طريقه واتجه نحو الشرق فعسكر على ماء الكفو بانتظار قدوم الثوار لان طريقهم لا بد ان يمر منه في مسيرهم الى الجهة الشمالية من الجبل . وعلم الثوار المرابطون في العين بوصول الحملة الى الكفو واحتلالها النبع فأرسلوا من يندرم بضرورة فتح الطريق امام الاهلين ولكن نور من أهان الرسول وطلب من اسعد مرشد - كما حدث هذا فيما بعد - ان يحرس له الأمتعة حتى يجلب اللصوص الثاثرين بعصاه

وانتشر خبر عناد القائد الفرنسي واحتقاره للثوار فحاولوا عليه من العين والمسافة بينها وبين الكفو تزيد على الخمسة عشر كيلو مترا فسبقهم قيادة الثورة لينظموا هجومهم على القوة . ولكن ايقاف الهجوم لم يكن سهلاً فلم يصل الى الكفو كل الثوار ومع هذا فقد اندفعوا نحو الاستحكامات الفرنسية كما يندفع السيل وقبل ان يتمكن الفرنسيون من الفرار كان الثوار في خنادقهم يبطشون بهم بسلاحهم القليل وشجاعتهم الرائعة فأبيدت الحملة كلها وعددها ٣٣٩ جنديا . ولم ينسج سوى اربعة انفار وغنم الثوار زادها وعتادها فتسلحوا بأسلحتها واصلوا سيرهم نحو الشمال . وسقط في ميدان الشرف خمسون شهيداً .

ومروا بالسويداء فحاصروا قلعتها التي لجأ اليها نور من ومن معه من موظفين فرنسيين ونسائهم فأبقوا حامية تحاصرها وانجسوا نحو قنوات ومنها أرسلوا المفزعين (طالبي النجدة) الى قرى الجبل كافة فلبى الجميع دعوة الثورة ولم تتأخر قرية عن الاشتراك بها وتقاطرت الوفود الى (قراصة) المكان الذي اتفق ان يكون مركز حشودهم لقربه من ازرع حيث يعي الفرنسيون قواهم .

وشاع ان الفرنسيين يستعدون للقيام بحملة كبيرة فأخذ أهل الجبل يتهيأون لها بسرعة فائقة ورحلوا النساء والأطفال من القرى الامامية التي ستجري المعارك فيها ولم يبق في الجبل قادر على حمل السلاح إلا انضم للثوار وكانت الايام القليلة التي تلت معركة الكفر أروع مثال للوحدة والتضامن أمام الخطر الاستعماري المقبل .

معركة المزرعة : وأرادت فرنسا خديعة الثوار من جديد فأفرجت عن عبد الغفار الاطرش الذي كان معتقلاً مع الوفد وأرسلته بسيارة خاصة الى الجبل بعد ان شاهد في ازرع القوى الكبيرة التي يحشدونها واقنع بضرورة العدول عن الثورة . ولما وصل الى الجبل بتاريخ ٢٩ آب ١٩٢٥ حاول ان يقنع سلطان وباقي الثوار براهيه ولكن الحماسة ازدادت عندما سمعوا ان القوة اصبحت في ازرع وانتشروا على طول الطريق الذي ستسلكه استعداداً لملاقاتها بعد ان اقنعوا عبد الغفار بالانضمام اليهم وعدم العودة لرد الجواب كما كان مفروضاً . واجتمعت اعداد ضخمة من ابناء معروف ومن بدو السردية والمساعد في (قراصة) لكي تصد الجيش الزاحف الذي تقدم من ازرع بخطوة حربية ، فمهدت المدافع والطائرات بنيانها له ووصل قراصة في ٣٠/٧/١٩٢٥

وكان على رأس الحملة الفرنسية الجنرال ميشو الذي اشتهر أمره خلال الحرب العالمية الاولى ولا يقل عدد جنودها عن ثلاثة عشر الفاً وهي مجهزة بكل مايلزمها من ذخائر وأعتدة حربية بما فيها المدافع والدبابات .

ولما صدمها الثوار في قراصة استطاعت ان تتغلب عليهم وتشق لها طريقاً نحو الشرق وكاد اليأس يقضي على الثوار فتفرقت مجموعهم وأراد كل رجل ان يدبر أمر عياله وتهجيرهم الى المناطق الآمنة فتقدمت الحملة طالبة ماء المزرعة وعسكرت بموقع يدعى قل الحاروف . وفي اليوم الثاني ٣١/٧/١٩٢٥ هاجم قل الحاروف عدد من الثوار فلم يتمكنوا من الوصول اليه وفقدوا معظم خيولهم .

وكان إطلاق الرصاص مستمراً منذ وصل الفرنسيون قرصة وأستمر
ثلاثة أياماً حتى مساء السبت ١٩٢٥/٨/١ فاجتمع رؤساء الثوار في قرصة وقرروا
التراجع نحو الشرق وملافاة الفرنسيين بين الدور والمزرعة . وفي يوم الاحد
استطاع الفرنسيون ان يتغلبوا عليهم ويكسروهم ويصلوا المزرعة ويتخذوا
فيها استحكاماتهم مما جعل أعداداً اخرى من الثوار تتفرق والباقيين يقررون
التراجع نحو الشرق وملافاة الجيش غرب السويداء في مكان يدعى «الشقراوية»
ولكن حدث مساء الاحد ان هاجم بعض الثوار المرابطين على جانبي الطريق
قرب قرصة مؤخرة الجيش فانصروا عليها وغنموا الذخيرة والسلاح فشاع الخبر
اثناء الليل ودارت المراسلات بين القرى القريبة من المزرعة وكان الملتقى في فجر
اليوم التالي .

وما أصبح الجيش الذي علم نباء فقد ذخيره حتى وجد الثوار يهاجمونه
من جميع الجهات هجوماً صاعقاً فتروك استحكاماته لينتشر على مساحة واسعة
واكن الثوار ردوه من جميع الجهات وحاصروه على الطريق وفي شريط ضيق
حواله فدارت معركة رهيبه لم تستمر اكثر من ساعتين وكانت من معجزات
الثورة وروائع انتصاراتها .

لم يكن عدد الثوار الذين هاجموا مع الفجر يزيد على المائتين وتحقق
النصر الكبير قبل ان يكثر عددهم لأن كل قرية تصلها الانباء تقصد الميدان ولم
يتح لاعداد كبيرة ان تشترك في المعركة إلا في نهايتها .

مائتا نثر لا يملكون سوى قلة من البنادق يهاجمون جيشاً قوياً لا يقل
عن ثلاثة عشر الفا فينكسر امامهم شر كسرة ويفر نحو الغرب فتلاحقه طلائعهم
ولا ينتهي القتال الا بعد خروجه من أرض الجبل وقد خلف وراءه تسعة آلاف
قتيل وكل اسلحتهم وأحرق الثوار دباباته وغنموا مدفعاً من عيار ١٠٥ وآخر
من عيار ٧٥ ومدفعين عيار ٦٥ .

وزاد عدد الشهداء على المائة وسقطت كثيرتهم في الهجوم الاول الذي بلغوا به المتاريس فزاحوا عنها حمايتها وكانت بداية الهزيمة (١).

فترة المفاوضات وفشلها :

قوي بأس الثورة بعد الانتصار الكبير الذي حققته وعقدت العزم على مواصلة القتال . ووصل الى الثوار في وقت واحد وفد من قبل الفرنسيين وآخر من الوطنيين في دمشق فأما الوفد الممثل لفرنسا فطلب عقد الصلح وخوف الناس من الاستمرار في الثورة قائلاً ان فرنسا دولة كبيرة ولا يستطيع الجبل ان يصمد لها خاصة وانه يجارها وحده ولا يمكن له ان يعتمد على حوران او دمشق او أية منطقة اخرى وكان يتخذ موقف الناصح للثوار إلا ان تسخيره لفرنسا لم يخف على الثوار ومع هذا فلم يغلقوا معه الباب لكي يكسبوا الوقت ويتفقوا مع الوفد الآخر . ثم طلب الفرنسيون هدنة لدفن موتاهم فنالوها وأرسلت معهم فرقة لكي تحميم ودلت الثورة بذلك على روح انسانية عالية .

وكانت الاتصالات سابقة للثورة كما قدمنا واتصل عدد من الوطنيين برجالها كمحمد الأشمر وبدر الدين الحسيني ورؤساء حزب الشعب مثل الدكتور شهبندر ونسيب البكري . ولما وصل الوفد الذي يمثلهم بعد المزرعة أوضح له قادة الثورة انهم مصممون على مساعدة أية منطقة ثور على فرنسا واتفقوا على ان يشعلوا الثورة في جميع انحاء سورية مبتدئين بدمشق وتواعدوا على يوم معين لتسير فيه قوة من الثوار الى دمشق فتجتمع بالمجاهدين في مكان معروف ثم يحتلون النقاط المهمة وبالفعل فقد اتجهت من الجبل القوة المتفق عليها ولكن الوطنيين في دمشق لم يستطيعوا تجميع قواهم لملاقاتها فلاحقهم الطائرات وأصلتهم نيرانها الحامية قرب العاداية ورجعت الى الجبل فالتحق

(١) كان كلاربي حاضراً معركة المزرعة وكان يني فائده بالاستقبال الحافل لشخصه واكله نجا مع الفارين واستشهد من ابطال بني معروف سليمان العقباني الذي لعب دوراً عظيماً في القتال وسلاحه السيف وحده .

عبد الرحمن شهبندر ونسيب البكري وكثيرون غيرهم بالثوار . ومن المزرعة التي أصبحت مركزاً لقيادة الثورة ومكاناً لحشد قواتها ، أخذت الحملات تتجه الى الغوطة والقلمون واقليم البلان (جبل الشيخ) ولبنان .

واحتتم قادة الثورة من الجبل ودمشق في داما بتاريخ ١٩٢٥/٨/٢٥ وانتخبوا سلطان باشا الاطرش قائداً عاماً للثورة السورية الكبرى .

وتوزعوا الاعمال بينهم بقدر ماتسمح لهم الظروف بالتنظيم فكانوا يردون على المناشير التي تلقيها طائرات العدو وتهدد الجبل بانتقامها الرهيب ويراسلون مختلف المناطق السورية لتشد أزرهم ويرسلون الحملات لتزعج الافرنسيين وتستولي على ذخيرتهم وإقتنت الثورة في هذه الاثناء سيارة وحيدة سلمتها للسيد يوسف العيسوي لكي يكون انتقاله ميسوراً بين الجبل والاردن حيث يلتجئ الوطنيون المبعدون من سوريا والذين أصبحت مهمتهم ايصال صوت الثورة للرأي العام العالمي عن طريق الصحف اليومية والمجلات والعرائن التي تقدم للمؤتمرات الدولية وأسهم حزب المؤتمر الذي كان قد اتخذ في القاهرة مركزه أسهم بالدعوة السياسية للثورة وكان على صلة تامة بها .

ومن البديهي ان التفاوض مع فرنسا لم يؤد الى نتيجة ما وأتضح ان نيتها المماثلة لتجميع قواها ، وأدرك قادة الثورة ذلك فانصرفوا بدورهم لتمتين قواهم وتوفير الذخيرة والمؤونة لها وأراد الموظفون المدنيون المحاصرون في قلعة السويداء الخروج منها فسمح لهم الثوار بذلك وأخذ سلطان باشا كشافاً من مدير المال بموجودات الصندوق فكانت ٣٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، ثم أوصلتهم قوة من الثوار الى قرب دمشق .

معركة المسيفرة : عزل الجنرال ميشو في ٣ | ٩ | ١٩٢٥ وعين غاملان مكانه فوصل بيروت في ١٣ / ٩ / ١٩٢٥ وبعد ثلاثة أيام كان في ازرع على رأس حملة أخرى متجهة للجبل وقسم قواه الى قسمين عسكر أحدهما في المسيفرة وظل الآخر في ازرع واتى خبر للثوار ان القوة الموجودة في المسيفرة قليلة ومعها كل

الذخيرة فقرروا مفاجأتها في الظلام ليلة ١٦ / ١٧ ايلول وسارت جموعهم بهدوء تام حتى اقتربت من القرية التي يمتد حولها سهل مترامي الاطراف وانطلقت في جوف الليل رصاصة من يد خائن لم يعرف تماماً . فانتهى الجيش النائم وأطلق اسهمه النارية فانكشف الثوار على الارض السهلية وليس أمامهم واق يتسمر كزبون حوله فاندفعوا نحو استحكامات الجيش والرصاص الغزير يحصد دم حصداً واستطاع بعضهم ان يجتاز الحطوط ويصل القرية ولكن كثرتهم تراجعت امام غزارة النيران والأضواء الكاشفة تضعهم في متناول الرصاص وتجبب عنهم العدو ومع هذا فقد انبطحوا على الارض واستمرت المعركة طيلة الليل وأشرق النهار التالي ١٧ / ٩ / ١٩٢٥ والمركة دائره فالجيش في استحكاماته والثوار يجربون الوصول اليه فيتساقطون . ثم أتاهم من يستنجد بهم لتخليص رفاقهم الذين دخلوا القرية وأرادوا تخليصهم تحت جناح الظلام ولكن حدث قبل المغيب بقليل ان خرج المحاصرون في القرية ووصلوا رفاقهم تحت الرصاص . ورجع الجميع نحو الشرق بعد ان صدوا نجدة قوية للجيش آتية من ازرع .

تراجع الثوار نحو الثعلة وقد خسروا أكثر من مائتي قتيل وعدد كبير من الجرحى . وفي اليوم التالي جمع الفرنسيون القتلى والجرحى فأجهزوا على الأحياء ، ثم أحرقوا الجميع . وقدم القسم الآخر من الجيش الى المسيفرة ثم اتجهوا للسويداء . ولم يستطع الثوار ردهم ففكوا الحصار عن القلعة ولكن الهجمات التي شنت عليهم أرجعتهم من السويداء الى المسيفرة ، فعادت القلعة للثوار . بعد ان أخذ الفرنسيون معهم صندوق المسال والذخيرة المتبقية خلال الحصار الطويل . وقد حضر الدكتور شهنندر ونسيب البكري ورفاقهما معركة المسيفرة والمعارك التي تلتها .

معارك السويداء وعري والمجيمر والمزرعة الثانية :

انتظر غاملان قدوم النجدات اليه في المسيفرة يومين ثم اتجه نحو السويداء منتشراً على مساحة واسعة من المجيمر الى عري الى رساس وقابله الثوار على الخط

الفاصل بين الارض السهلية والارض الجبلية ، ولم يستطع التقدم نحو الشرق لاشتداد الضغط عليه في المجير وعري فاتجه نحو الشمال ولازمه الثوار حتى وصل المزرعة وفكر ان يدخل السويداء منها ولكنه لم يستطع لأن بسالة الثوار وشجاعتهم لم تعرف حداً تقف عنده . واستمرت المعركة عشرة ايام كاملة والرصاص لم ينقطع فيها وباب الشهادة يستقبل أفواجاً من الابطال المجهولين وغاملان مصر على زحفه ووصل رسول من حماه بطريق شرق الاردن والمعركة قائمة ومعه كتاب الى قائد الثورة موقع من وجهاء حماه وفيه انهم سيستحرون سوريا . وبالفعل فقد خف ضغط غاملان على الجبل بعد قيام الثورة في حماه وارسل نصف جيشه لانقاذها وتراجعت حملته نهائياً فنجرت فشلها الخجل في ١٩٢٥/١٠/٩ وكان نشوب الثورة في حماه من اسباب هزيمة غاملان ونجدة موفقة للجبل .

الجبل يوجه ضرباته لقوى الفرنسيين في خارجه :

لم يعد الفرنسيون للجبل خلال شتاء ٩٢٥-٩١٦ ولكن طائراتهم كانت تنطلق من بصرى وازرع تقصف تجمعات الثوار والقرى الآمنة باستمرار وتلقي المنشورات التي تنذر بالنقمة في الربيع وأخذ جواسيسهم يسعون بالوقعة بين الوجهاء مستغلين الخلافات القديمة وباذلين الذهب الكثير . ولا ريب ان كثيراً من النفوس قد تغيرت خلال فترة الانتظار . ولا سيما ان المحل عم الجبل سنة ١٩٢٥ فأصبح للمال مفعوله السحري الذي لا يقل أثراً عن مفعول الخلافات العائلية التافهة .

وطوال فصل الشتاء كان ثوار الجبل يشتركون مع اخوانهم في دمشق واقليم البلان والقلمون ولبنان ، يشتركون معهم في المعارك الكثيرة التي خاضوها والتي يخرج تفصيلها عن نطاق بحثنا مع ان البطولات التي رافقتها أدخلت كثيراً من الاسماء في سجل الخالدين ودلت على وعي المواطنين واندفاعهم للبدل والتضحية والتصدي لفرنسا في قمة طغيانها .

وهكذا فقد مر الشتاء دون معارك في الجبل ولما أقبل الربيع كانت ساراي قد أبدل بمفوض سام مدني هو المسيو دي جوفنيل عضو مجلس الشيوخ الفرنسي وعين لاختراع الجبل الجنرال اندريا الذي جهز حملة كبيرة ورابط في ازرع والمسيفرة وبصرى ، ثم أخذ يبذل الوعود المغربية لمن يسلم من الدروز وينخرط في الجيش .

وعمل دي جوفنيل على تهيئة الجو السياسي الملائم له فاتصل بالانكايين واعضاء حزب المؤتمر وكل من له علاقة بالثورة وظهر كأنه يريد حل الامور سلمياً وانتشرت عبارته المشهورة : الحرب لمن يريد الحرب ، والسلام لمن يريد السلام .

ولا شك ان جهود المؤتمر السوري كانت عظيمة ولكن مفاوضاته مع دي جوفنيل فشلت أخيراً لان هذا لم يكن يريد إلا الحداع فلم يوافق على الوحدة السورية او اجراء انتخابات حرة وأتى الى بيروت في ١٢/١/١٩٢٥ وهو ينوي القضاء على الثورة مهما كلفته من اموال ورجال . فأوعز الى الجنرال اندريا بالقاء منشورات على الثوار فتم له ذلك ، وطلب الى الدروز ان يضعوا السلاح لتفاوضهم فرنسا بمستقبل بلادهم وكانت الدسائس تتخلل هذه المنشورات فلم يأبه لها الثوار ولم تؤد الى نتيجة عملية .

وجاوب دي جوفنيل من جهة ثانية ان يوطد الأمن في المناطق السورية فقرر اجراء انتخابات نيابية في حمص وحماة وحلب قاطعها الشعب ولم تقم . واضطربت البلاد في حلب وبعليك وبيروت وصيدا وأصبح الثوار يسيطرون على كل هذه المناطق ولم يبق بيد الفرنسيين سوى اماكن حشودهم العسكرية . ورمى دي جوفنيل آخر حجر في سلة وعوده فاتصل بالشريف عبد المجيد الذي كان يقيم في بيروت ووعده بإنشاء عرش له بسوريا اذا استطاع تهدئة الامور وزار هذا دمشق ورجع خائباً .

وهكذا فقد مضى الشتاء بطوله والحركات الثورية متوقفة ولكن القوات

الفرنسية كانت تنهياً للمعركة الفاصلة حتى لقد بلغ عدد القوات الفرنسية في سوريا مائة الف جندي مجهزين أحسن تجهيز وأحدثه .

وبدأت العمليات الحربية بتطهير اقليم البلان والقلمون ودمشق من الثوار . ولما تم لهم ذلك قرروا الزحف على السويداء من ازرع والمسيفرة وبصرى في وقت واحد . فبدأ الهجوم على السويداء في ٢٣/٤/١٩٥٦

احتلال السويداء :

تحركت القوات الفرنسية نحو الجبل واحتلت القرى الغربية دون مقاومة تذكر لان الثوار قرروا ان يجاهوها في الارض الوعرة غرب السويداء وفي صباح الاحد ٢٥/٤/١٩٢٦ نشبت معركة كبيرة مهد لها الفرنسيون بنيان الطائرات والمدفعية الثقيلة التي استمرت تضرب الثوار أمامهم وكانت اعدادهم ضخمة ، ولكن الثوار قاتلوهم ببسالة نادرة ، وتقدم الجيش على جثث الشهداء فدخل السويداء ظهر ذلك اليوم ، ولم يكن بها احد على الاطلاق لان الثوار أخلوها وزحفوا نحو الشرق ليقبضوا لهم تحصينات جديدة .

سياسة اندريا بعد احتلال السويداء :

أخذ اندريا يحصن المدينة وما حولها ويتصل بالزعماء ويغريهم بالاستسلام ويبدل لهم الذهب الكثير ، وكان اخطر نجاح حققه هو إقبال كثير من الوجهاء واتباعهم على الخضوع له فالمواطن يدفع بندقيته او خمس ليرات ذهبية ليؤمن عياله وممتلكاته ويحق له ان ينخرط في الجيش الذي الفه من ابناء بني معروف . وكان هذا الاستسلام . ثم تطوع الكثيرين مع فرنسا اكبر ضربة وجهت للثورة منذ قيامها . فالمعارك منذ الآن ستدور بين ابناء الوطن الواحد ولن يهزم فرنسا عدد الضحايا فالجميع أعداؤها .

وحدث بالمقابل ان التحق كثير من الجنود المغاربة (التونسيين والمراكشيين والجزائريين) بالثوار وأبلوا في الحرب أحسن بلاء بما لهم من خبرة ودراية (١) .

(١) امين سعيد - الثورة العربية الكبرى ص ٤٧١

وبعد ان استقر الثوار في الجهات الشرقية من الجبل وفي منطقة اللجاء عقدوا اجتماعات عديدة للبحث في مستقبل الثورة فقرروا ان يرسلوا نساءهم واطفالهم الى الزرقاء شمال عمان ليكونوا في مأمن من بطش الافرنسيين بينما يستمر الرجال في الدفاع عن الجبل حتى آخر قطرة من دماهم .

وعقدوا في اول ايار سنة ١٩٢٦ مؤتمراً في مفعله قرروا فيه المناهضة على الجهاد حتى تنال البلاد امانها وإباحة اموال المتطوعين في الجيش الفرنسي وهدر دماهم ، وجمع المجاهدين وتنظيمهم . ثم عقدوا مؤتمراً ثانياً في مفعله بتاريخ ١٩٢٦/٥/٢٩ قرروا فيه مواصلة الحرب حتى تنال سوريا استقلالها والتمسك بالوحدة السورية ، وايصال صوت الثورة الى الامم المتعددة ومناشدتها العمل على ايقاف الاعمال الاجرامية التي ترتكبها السلطات الفرنسية .

ولقد استمر المجاهدون على آرائهم وتمسكوا بها ولم يهادنوا فرنسا يوماً واحداً الى ان تحققت مطالبهم سنة ١٩٣٦ كما سيأتي :

حروب المقارن : (١)

أخذ الجنرال اندريا بعد استقراره في السويداء بوجه الحملات الاستطلاعية من الفرق التي شكلها لاختبار مقاومة الثوار . ثم قرر ان يبدأ باحتلال المقرن الشمالي فقاد بنفسه حملة نحو شها اصطدمت في طريقها بقوة من الثوار قريباً من (سليم) فكسروها وتفرقوا . ثم تابعت طريقها نحو شها فدخلتها في ١٥/٥/١٩٢٦ ولم تستقر بها مدة طويلة لضغط الثوار عليها فعادت للسويداء بعد ان أعلن قسم كبير من القرى المجاورة لشها الاستسلام .

وزار في تلك الاثناء رشيد طليع الوزير السابق في حكومة فيصل ، وسلطان باشا الاطرش القرى الواقعة شرق شها فتأججت الحماسة في صدورهم

(١) المقارن : ج مقرن وهو الناحية او الجهة ففي الجبل أربعة مقارن : الغربي ويشمل جزءاً من قضاء السويداء وجزءاً من قضاء شها والشهالي وهو بقية قضاء شها والشرقي بقية قضاء السويداء والجنوبي وهو قضاء صاخذ .

وقويت روحهم الثورية . فعاد اندريا ثانية الى شها سالكا طريق المزرعة فقاتله الثوار في كل خطوة خطاها و كبدوه اكثر من سبعمائة قتيل (١) قبل ان يحتل شها نهائياً للمرة الثانية . واقام فيها استحكامات فنية وشخها بالمدافع والدبابات بما جعل افواجاً جديدة تستسلم له .

وأراد الزحف على القضاء الجنوبي وفيه أهم عناصر الثورة واكثر رجالها فسلك نحو صلخد طريقين ، فقسم من القوة انطلق من بصرى مارأبديين وام الرمان والغارية ، ثم صلخد . وقسم آخر اتجه من السويداء الى الكفر ومنها الى صلخد .

والتحمت قوة الجيش الآتية من الجنوب في ٢٦/٦/٩٢٦ مع الثوار قرب ذيبين واستمرت المعركة يومين كاملين وفي ٣/٦/٩٢٦ دخل الجيش الفرنسي صلخد فكان احتلالها ضربة قاضية على الثورة لأن اكثر القرى المجاورة لها أعلنت استسلامها على الأثر . (٢)

ولم يكن اندريا يوالي زحفه لأنه يريد تقوية مركزه بانسزاع احتياط الثورة منها والاكثر من المتطوعين في صفوفه فبينما تصد فرقة غارات الثوار على مراكزه يستمر أعوانه وجواسيسه في الدعاية الى الاستسلام . ومع هذا فلم يحدث ان دخل قرية دون قتال لان الثوار اشتبكوا معه في كل شهر من الجبل .

وأصبحت قوى الثورة تتمر كز في جهتين : المقرن الشرقي حيث الارض جبلية والمسالك وعرة وارض اللجاء المشهورة بمعاصيها والقريبة من الخط الحديدي للواصل بين دمشق وحوران .

ووجه اندريا قواه نحو المقرن الغربي للوصول الى اللجاء فاستطاع احتلال

(١) امين سعيد - الثورة العربية الكبرى ص ٧٦ ؛ ويؤكد ان احتلال شها كلف الافرنسيين اكثر من الفقتيل .

(٢) ادم آل الجندي - تاريخ الثورات السورية ص ٢٢١

نجران وعريقة في ١٩٢٦/٨/٦ ودأبت طائراته على ضرب قرى وادي اللواء ونحيات الثوار في اللجاء وأرسل ضدهم حملات كثيرة لم تستطع التقدم إلا ببطء شديد فاستمرت الحرب قائمة في تلك الجهة حتى الثالث من نيسان ١٩٢٧ بعد أن قاوم الثوار أكثر من ستة شهور وأبدوا من البطولات النادرة صنوفاً عجيباً واشتهر أمر كثير من المعارك في تل صميد ومجادل وداما والصورة وغيرها .
وانسحب المجاهدون من اللجاء نحو الصفا الواقع شرق الجبل في قلب الصحراء .

وفي هذه الاثناء نفسها كانت قوى الفرنسيين تحتل المقرن الشرقي الذي دافع عنه سلطان باشا نفسه ودارت معها جملة معارك كان أكثرها خطراً معركة الشبكة والشريحي والرشيدات التي بدأت في ١٩٢٦/٩/١١ واستمرت اربعة ايام كاملة واضطر الفرنسيون لشق طريق امام الدبابات والأعتدة الثقيلة وصد هجمات الثوار العنيفة وأبدى كثير من أبطال الثوار فيها ألوانا مجيدة من الشجاعة واشتهر أمر محمود ابو يحيى الذي استشهد فيما بعد في ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ وكانت نكبة المجاهدين بالفرق التي شكلها اندريا من ابناء الجبل لأنها خبيرة بالمسالك ومتعودة على حرب الجبال كالثوار انفسهم (١) .
واشترك عدد من القادة الوطنيين فيها مثل شكوي القوتلي وعادل ارسلان وشاكو العاص وكثيرون غيرهم .

وتغلبت اخيراً قوى الشر بكثرتها على بطولة المجاهدين التي كانت ذخيرتها في تناقص مستمر فاحتل الجيش المقرن الشرقي بكامله خلال شهر ايلول ١٩٢٦ فالتحق قسم من الثوار باللجاء وانسحب قسم آخر الى الصفا وفي نيسان ١٩٢٧ وجه اندريا حملة كبيرة جداً الى الصفا تعززها الطائرات والدبابات والمدفعية فاستطاعت ارغام الثوار على الانسحاب .

وخلال شتاء ١٩٢٦-١٩٢٧ كان عدد من الثوار قد استقر في الازرق

(١) المصدر السابق ص ٢٢١

وأخذ يقوم بتشكيل عصابات كثيرة تهاجم مراكز الافرنسيين وتقتل هدمهم ولم يمر اسبوع دون معركة حامية مع قواهم المتفرقة واشهر هذه المعارك تلك التي وقعت في تبصا وطليلين وابوزريق . ولكن نتائجها العسكرية لم تكن هامة لانها لم تحقق سوى انتصارات جزئية غير كافية لاسترجاع الاراضي المحتلة .

وفي اوائل حزيران ١٩٢٧ كان المجاهدون كلهم خارج الجبل بعدد يزيد على ألفي نسمة بما فيهم النساء والاطفال .

الانكلاز والثورة السورية :

حاولت فرنسا ان توهم الرأي العام في بلادها بان الانكلاز هم الذين حرروا الثورة في سوريا ولكن الوقائع كانت تكذبها باستمرار واعترفت على لسان رجالها الرسميين اكثر من مرة بفضل الانكلاز في قمع الثورة وحفظ صداقة الفرنسيين .

فقد اتخذ الانكلاز تدابير مشددة باغلاق الحدود بين الاردن وسوريا واعتقلوا كل وطني كان يأتي من الجبل النائر الى الاردن وقد دعا الامير عبد الله - المنفذ المخلص لسياستهم - وجهاء الاردن وحشهم على التمسك بالهدوء وقال لهم ان الحكومة لا تتأخر عن معاقبة الذين يخالفون اوامرهم . ثم أخذ عليهم العهود والمواثيق بان يكفوا عن مساعدة الثورة (١) وذهب الجنرال الانكليزي بيك باشا قائد الجيش العربي في شرق الاردن الى اربد وقال لهم : ان الحكومة البريطانية تحتقر كل من يترك بلاده ويذهب الى سوريا للاشتراك في الثورة وانها وسمو الامير عبد الله يرغبان في منع أي انسان كان من السفر الى سوريا ولذلك فهو يطلب منهم ان لا يصدقوا ما يقال لهم من ان بريطانيا وسمو الامير يرغبان سرآ في مساعدة الثورة فالأمر غير ذلك وهما يقفان على الحياد (٢) .

(١) امين سعيد - الثورة العربية الكبرى ص ٤٨٢

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٣

وفي ١٩٢٥/٩/٢٠ اذيع في عمان بلاغ رسمي بقفل الحدود السورية - الاردنية طيلة الليل ولا يسمح في عبورها بالنهار إلا لمن يسجل اسمه في المخافر الكثيرة التي انشئت على طول الحدود .

وقد شكر المسيو باتلفه رئيس الوزارة الفرنسية يومئذ الانكليز موقفهم في شرق الاردن وقال انه موقف منطوق على الوفاء والاخلاص ، وتجلى التعاون الانكليزي الفرنسي بعد ان تم كزت عائلات الثوار في الاردن .

المجاهدون في الازرق : بعد احتلال اللجاء والصفاء انحدر المجاهدون نحو الازرق وكان عددهم يزيد على ثلاثة آلاف نسمة ومن هناك أخذوا يشنون حرب عصابات على مراكز الفرنسيين في الجبل وقاسوا شظف المعيشة لأنهم اعتمدوا على ما يكسبونه من الفرنسيين من جهة وعلى تبرعات المؤتمر السوري والشخصيات الوطنية ، هذه التبرعات التي لم تكن بحال من الاحوال كافية لاطعامهم ويعجب الانسان عندما يعرف ان عشرة سنين قضاها أولئك الابطال يسترزقون الصحراء كما يفعل البدو ولا ينالون الطمانينة والهدوء لان قوى التي كانت تطاردتهم في كل مكان .

وابتداً الضغط الانكليزي عليهم في خريف سنة ١٩٢٦ حملهم على الاستسلام لفرنسا طبقاً للولاء والاخلاص بين الدولتين المستعمرتين وفي ١٠/٤/١٩٢٧ اذاع الانكليز من عمان بلاغاً اعلنوا فيه ان الزرقاء والمنطقة الممتدة حولها حتى حدود العراق من الشرق وحدود الجبل الجنوبية من الشمال ومسافة لا تقل عنها من الغرب والجنوب ، اعلنوا ان هذه المنطقة تحكم عريفاً ولا يجوز فيها لأي رجل مسلح ان يتجول ويتعرض المخالفون لاقسى العقوبات العسكرية فعزلوا بذلك الثوار عن عيالهم والجأؤهم الى الصحراء حيث تنعدم المياه ويندر الطعام . وأقاموا معسكراً كبيراً بالقرب من الزرقاء لتنفيذ هذا الأمر وأخذوا يسجنون كل رجل مسلح يشاهدونه ويجرقون بندقيته امام عينيه .

وواصل الفرنسيون مساعيهم مع الانكليز لتشديد الحناق على المجاهدين
بعد أن أعلنوا العفو عن كل من يستسلم فأصدر الكابتن كروب قائد منطقة
الازرق يوم ١٧/٦/١٩٢٧ بلاغاً أعطى فيه مهلة للرجال مقدارها ١٤ يوماً حتى
يعودوا للجبل وهدد كل من يشهد بعد هذه المدة بالقتل او السجن .

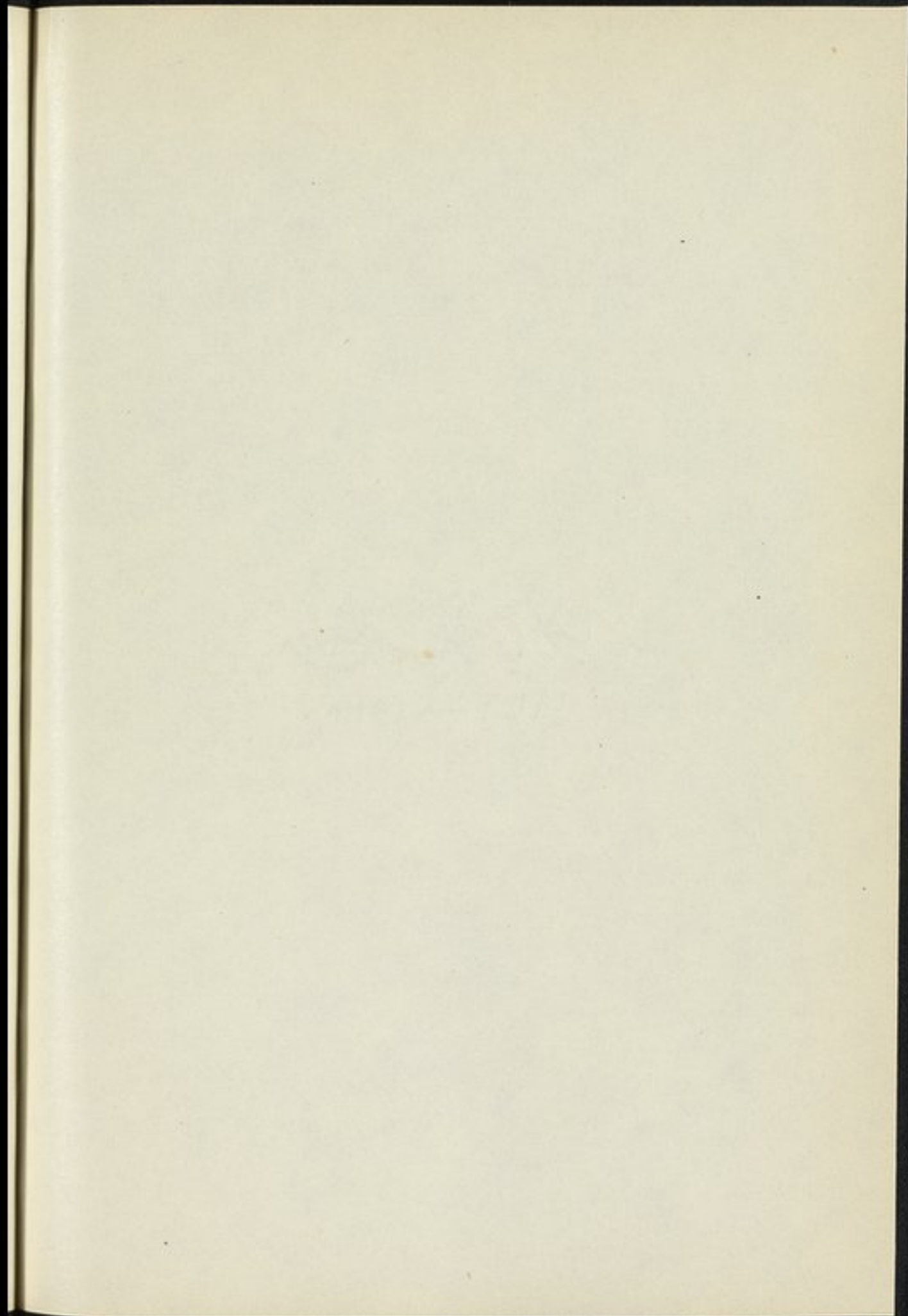
ثم قدمت الى المجاهدين على الاثر بعثة مكونة من الكولونيل ارنو مدير
الاستخبارات الفرنسية في سوريا ومستشار درعا الفرنسي والشيخ محمود ابو
فخر من الدروز المسلمين والكولونيل كوكس المعتمد البريطاني في عمان
والكولونيل ستراقتفورد قائد الجيش العربي بالوكالة، وحاولت اقناع المجاهدين بالعودة
الى الجبل على أساس العفو عنهم واستطاعت ان تقنع عبد الغفار الاطرش برأيها
فرجع معه اكثر من النصف وظل الباقيون وعلى رأسهم سلطان الاطرش وعادل
ارسلان وكثيرون غيرهم من مشاهير الثوار مثل علي عبيدو وعلي وزيد الاطرش
وعقله القطامي الزعيم المسيحي وبوسف العيسبي وقاسم ابو خير وحسين مرشد
وعلي الملحم وغيرهم عددهم ١٥٠٠ نسمة وتعاهدوا على الاستمرار في النضال الى
ان تعلن الوحدة السورية والاستقلال الكامل .

وطبقاً للامر الانكليزي نزع المجاهدون بعياهم الى مكان يدعى المعيري
بوادي السرحان من أراضي الاردن الجنوبي ومكثوا هناك اسبوعاً فلاحقتهم
القوات الانكليزية واضطرتهم للجلاء عنه فنزلوا الحصيدات على الحدود الاردنية
السعودية ولم تمهلهم القوى الانكليزية سوى ثلاثة عشر يوماً حتى أجلتهم نحو
الجنوب فحلوا في النبك التابعة للعربية السعودية وعاشوا فيها خمس سنين ولما
صعبت المعيشة عليهم مجتمعين لاعتمادهم على الصيد والرعي ولضالة التبرعات التي
كانت تصلهم تفرقوا في جهات متعددة فبقي قسم منهم في النبك وعاد قسم آخر
الى الحديثة في السعودية وتوجه قسم ثالث الى الكرك في شرق الاردن بعد أن
أخذت الحكومة عليهم تعهدات بعدم القيام بأية حركة واستمرت هجرتهم حتى
وقعت المعاهدة السورية الفرنسية في ١٩٣٦ فعادوا الى البلاد في العام التالي

واستقبلوا في دمشق وحمص وحوران والجبل استقبالا شعبياً ليس له نظير .
وهكذا فقد برهن المجاهدون بأن العقيدة الوطنية والايمن القومي
يخلقان البطولة فيجعلان منطقة فقيرة كالجبل تتحدى فرنسا أيام عزها ويدفعان
الطليعة الثورية الى مجاهل الصحراء مفضلة التمسك ببادئها والاصرار الوطني
الذي لا يلين على رغد العيش في ظل الاستعمار .

الثورة التي انطلقت في صيف ١٩٢٥ وهي تحمل شعارات الاستقلال
والوحدة السورية لم تتراجع مع كل ما قدمته من أضياع عن طريقها فظلت
تجارب فرنسا الى ان رضخت أخيراً لمطالب الشعب فوقعت المعاهدة في باريس
وقالت البلاد وحدثها المنشودة واستقلالها الذي تعزز فيما بعد وعلى جثث المزيد
من الشهداء .

الرجل تحت الحشم الفرنسي والمباشر
١٩٢٧ — ١٩٣٦



الحكم الفرنسي المباشر في الجبل

بعد انتهاء الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٧ م سعى الفرنسيون لتطهير الجبل من السلاح ، والتوودد الى ابنائه ، فاستطاعوا ان يستميلوا بعض ذوي النفوس المريضة وان يجهلهم على التعاون معهم ، وجعلوا من الجبل دولة مستقلة مرتبطة مباشرة بالمفوض السامي في بيروت ، واصبح الحاكم الفرنسي هو المتصرف بشؤون الجبل ، يساعده مدراء المعارف والاشغال والمالية الفرنسيون ايضاً ، وكان ديدن هؤلاء إثارة النعرات الدينية والاقليمية وإذكاء الخلافات العنصرية وتكريس الانفصال ومحاربة رجال الثورة السورية وتسفيه أهدافهم في التحرر والاستقلال ، وتقنين التعليم وتوجيهه بالشكل الذي يعزز اللغة والتاريخ والحضارة الفرنسية ، ويطمس في الوقت نفسه اللغة والتاريخ والمآثر العربية . وشكلوا في السويداء مجلساً استشارياً أسماه مجلس « المندوبين » وعضاؤه يمثلون العائلات القوية ، ومن الذين قدر الفرنسيون انهم يسيرون بركاب السياسة الفرنسية ، ولكن عدداً غير قليل من هؤلاء المندوبين كان يتجاوب مع المواطنين في الشكوى والتذمر من ظلم الفرنسيين ومساويء حكمهم ، وكان بعضهم يذهب أبعد من ذلك فيقيم الصلة مع رجال الثورة خارج الجبل .

الوضع السياسي بعد عام ١٩٣٦ :

كان من شروط معاهدة عام ١٩٣٦ عودة الثوار المجاهدين الى الوطن وانضمام الجبل الى سورية الأم واجراء انتخابات فيه أسوة بالمحافظات الاخرى . وعندما عاد المجاهدون عام ١٩٣٧ جرت لهم استقبالات ضخمة واحتفالات رائعة تليق بما قدموه من تضحيات وصبر ونضال في سبيل التحرر والاستقلال .

وعندما تشكلت اول حكومة وطنية في دمشق ، أرسلت السيدنسيب البكري محافظاً الى الجبل ، وقد واجه كثيراً من المصاعب والمتاعب بسبب بقاء ادارة الجبل وماليته مستقلتين عن الحكومة المركزية بدمشق ، وبسبب من عرقلة الفرنسيين وتآمرهم مع الانتهازيين والوصوليين على وحدة البلاد ، ثم اتضحت المؤامرة الاستعمارية بان جمع المستشار الفرنسي اكبر عدد قدر على جمعه في السويداء ، وقدم لهم حسن الاطرش على انه محافظ الجبل الممتاز الذي يتمتع بالصلاحيات المطلقة في تصريف اموره وفصله عن الحكومة المركزية . اما العناصر الوطنية المطالبة بالوحدة فقد تكثرت بدورها واتفقت مع الكتلة الوطنية في سورية ، وشكلت فرقة نظامية تتدرب على حمل السلاح وعرفت حينذاك باسم « الفرق الحديدية » . وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كانت كفة العناصر الوطنية قد رجحت على كفة العناصر الانفصالية التي أسمت نفسها يومذاك باسم « حزب الدفاع » .

وفي صباح ٢٩ - ٥ - ١٩٤٥ دبر الوطنيون في الجبل انقلاباً ناجحاً ضد الفرنسيين واعتقلوهم في السويداء وصلخد وشها ورفعوا العلم السوري على دور الحكومة ، واصلوا استقلال سورية . وخرجت تظاهرات شعبية ضخمة مؤيدة لهذه الخطوة الوطنية الجريئة . ولم يخرج الفرنسيون من الاعتقال إلا بواسطة الجيش التاسع الانكليزي الذي دخل البلاد بعد ضرب دمشق من جانب الفرنسيين .

وفي عهد الحكم الوطني بدأ أبناء الجبل يسبغون بخططا حثيثة في طريق التطور والاستقرار . وقد بدا ذلك واضحاً في مجالات كثيرة . ففي مجال التعليم ارتفع عدد الطلاب الى نسبة كبيرة ملحوظة لم تشهدها البلاد من قبل ، واصبح الطلاب عصب الحركات الوطنية وارضاً خصبة للنشاط القومي . ولئن حال الفقر دون وصول العدد الأكبر منهم الى الجامعة ، فان الحكومات الوطنية المتعاقبة وخاصة في الفترة الاخيرة ، قد خصصت لطلبة الجبل النصيب الوافر من البعثات الدراسية ولم تقصر في الانفاق على التعليم .

وفي مجال العمل القومي لم يكتب النجاح في الجبل للحركات الاقليمية والشعبوية ، في حين لقيت عصبه العمل القومي ذات الأهداف العربية رواجاً بين أبنائه ولكنها سرعان ما تراجعت وانحسرت عندما ارتطمت بصخرة العقلية العشائرية وعجزت عن التجارب العميقة مع رغبات الشعب وحاجاته الاجتماعية والاقتصادية ، ، هذا ويمكن القول بصورة عامة ان حماس ابناء الجبل للقومية العربية بلغ حداً من القوة والشمول بحيث لم يبق فيه مجال لبروز الحركات الاقليمية والشعبوية .

الحركة الشعبية : العصبية العائلية ما تزال أترأ شاهداً على تفكك المجتمع القبلي وسيلا ميسوراً لاستغلال الشعب والمتاجرة بأهدافه من قبل الرؤساء المحليين الذين تضعهم الظروف في مركز الصدارة ولا تتوفر لديهم الجدارة دائماً . وحفاظ بني معروف على هذه العصبية في الماضي البعيد أوجب قيام تسلسل في أهمية العائلات ونفوذها وأوجد في القمة عائلة في كل منطقة يختار منها زعماء القرى (مشايخها) ويفترض فيهم ان يكونوا الحكم بين العائلات الاخرى وصمام الامن لخلافاتهم المحلية ومدافعاً عنهم ومعبراً عن كرمهم ووجاهتهم أمام الآخرين . واستأثر آل الحمدان بزعامه الجبل فترة طويلة ثم أتى آل الاطرش ، واستطاعوا ان يصبحوا مشايخ قضائي السويداء وصلخد .

و كما قبل الجبل دعوة الطرشان للثورة على استئثار آل حمدان والتخلص منهم فقد وقع المستجدون بأخطاء القدماء وساروا على أساليب تحكيمية جعلت اتباع الامس ورفاق المطالبة بالعدالة ثواراً عليهم .

فكانت ثورة العامية التي حدثت من نفوذ الطرشان واقتطعت منهم نصف أراضيهم وثبتت الملكية للسكان . ولكن ثورة العامية تركت الزعامه الاولى في الجبل لآل الاطرش وظلوا في اكثر قرىهم أصحاب النفوذ والمكانة الاولين . ومن الطبيعي في وضع كهذا ان يحاول افراد العائلة المتنفذة او بعضهم ان يخدموا مصالحهم الخاصة بقدر إمكانهم .

وهذا ما حدث مع الاطرشة .

وظل القائد العام للثورة السورية الكبرى بعيداً عن اعداء البلاد
مكتفياً بأعمال الزراعة في أرضه ، وعلى صلة وثيقة بالعناصر المخلصة في الداخل
ولكن دعم الفرنسيين لبعض آل الاطرش لم يقف عند حد ، وتسليمهم مرافق
البلاد استمر طوال عهد المعاهدة . حتى أصبح محافظ الجبل وقائد الدرك فيه
وممثله في المجلس الاقتصادي الاعلى بدمشق ونوابه الاربعة في المجلس وقائد
منطقة صلخد وأهم الموظفين المدنيين من آل الاطرش سنة ١٩٤٤ .

وبعد أن تحملت البلاد فوق طاقتها لتعيد الوحدة للوطن الممزق وتعمل
على رجوع الثوار المناضلين ، تم لها ما ارادت سنة ١٩٣٧ فأرسل محافظ وطني
للجبل باعتباره احدي محافظات سورية ، بعد كل ذلك عمل حسن الاطرش
وبعض المنتفعين بالتجزئة على عودتها وزوروا لإرادة الجبل ببرقيات وعرائض
مزرية فعاد الانفصال باسم الاستقلال المالي الاداري ولم ينته الا في ١٩٤٦ .

وكان الوطنيون يعملون في هذه الاثناء على الحد من نفوذ آل الاطرش
مع سعيهم للوحدة لان النفوذ الحرام وليد التجزئة .
وقام في البلاد تكتل يحمل اسم هيئة الشعب الوطنية ليقود النضال
ويطالب بالوحدة وزوال الاستئثار .

وقد تمت الوحدة بجلاء الاجنبي ولكن الاستئثار بقي .
ولما تخلص الجبل من الاستعمار الفرنسي وجه انظاره نحو المشروعات
العمرانية واقامة المرافق العامة التي تفي باحتياجاته ولكن المستأثرين بالأمور
تغاضوا عنها ولم يهتموا الا بمصالحهم الخاصة . مما دفع عدداً كبيراً من أبناء الشعب
الى التكتل من جديد وأجيت هيئة الشعب الوطنية باسم « الهيئة الشعبية » .

وحل موعد الانتخابات النيابية في ١٩٤٧/٧/٧ فكانت النقطة التي تازم
الموقف عندها وسيبت اللجوء الى العنف في السويداء وسقط فيها قتيل وجريح
ولم تظهر نتائج الانتخابات لان بعض صناديق الاقتراع قد حطمت في قضائي

صلخد وشهبا فأجلت الحكومة مواعدها الى ١٧/٧/٩٤٧ لم يمهلها تطور الحوادث التي ساهمت فيها كثيراً فلم تحدث الانتخابات في مواعدها الجديد واستبعدت الى أجل غير مسمى .

ووجد بين أنصار الحركة الشعبية من صاغ اهدافاً لها في مناشير وبيانات وكانت اهدافها تقدمية تطالب بمنع الاستئثار العائلي وتلح على تطبيق القانون في الجبل كما في غيره من المناطق السورية وتطالب بمعاقبة الذين استغلوا مناصبهم للثراء والفساد وتجعل من الحركة الشعبية قفزة تاريخية بخطوها الجبل فيدل على تأصل حب الحرية والمساواة فيه .

هذه الأهداف النبيلة التي آمن بها الكثيرون لم تكن عند بعض زعماء الحركة سوى وسائل للدعاية للحكومة المركزية تساعدهم بالمال والسلاح وتحرس خطاهم مع انها تمثل الاقطاع البشع في البلاد وتشكل بؤرة الفساد الكبير والاستغلال الطائل فدعمها لمثل هذه الحركة يشوهها ويجعل التساؤلات ترتسم حولها ولقد اثبتت الايام فيما بعد ان ممثلي الحركة الشعبية في البرلمان أصبحوا كمن دعمهم في البدء أعضاء في المنظمات التي تحمس الاقطاع وتمد أجل الرجعية ومهما يكن من أمر فلقد شهد صيف ١٩٤٧ غلياناً في جميع المناطق وخاصة القضاء الجنوبي فنزح آل الاطرش من قرام وخرج بعضهم أثر التهديد بالقتل كما حدث لابراهيم الاطرش في قلعة صلخد وشككت الحركة الشعبية حرساً خاصاً بحرس القرى الموالية لها ويمنع المعادين من دخولها .

وفي ٢/١١/٢٤٧ اجتمعت وفود قرى القضاء الجنوبي في صلخد وسارت نحو ذيبين وام الرمان فخرج آل الاطرش منها وناموا في بكا وفي الصباح التالي هاجمهم أنصار آل الاطرش الذين كانوا مجتمعين في القرية فدارت بين الفريقين معركة خاطفة كان حصادها تسعة عشر قتيلاً من الفريقين وغالبيتهم من الشعبين . ولم تحدث بعدها معركة ما واستمر الخلاف العلني زمناً قصيراً ثم عقد الصلح في صلخد في نهاية عام ٩٤٨ .

ومع ان الحركة الشعبية اعتمدت على بعض الحصومات العائلية واستندت الى تأييد جهات مستغلة تكره الشعب ومصالحه ومع ان بعض قادتها لم يكونوا مخلصين لها ، مع كل هذا فقد كان لها بعض الفوائد العملية التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - خففت من استئثار العائلة الواحدة وشدت أزر الاتجاه الشعبي وشعر الفرد العادي فيها أنه يدافع عن حريته وكرامته فمهدت بذلك لظهور تيار عربي شعبي جديد في الجبل .

٢ - حققت مبدأ تبادل الموظفين من مختلف المستويات .

٣ - تعاضم ارتباط الجبل بسورية وتلاشت الافكار الانفصالية .

المذهب الدرزي

1850

١ - نشأته : عندما دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) قابلهم اهلها مرحبين وسارت مختلف الفئات في موكب المعز بعد ان قدمهم اليه القائد جوهر الصقلي وكلهم يخالفون مذهب الدولة الرسمي فالشعب سني والحكومة علوية .

ولم يكن نظر الفاطميين قاصراً على مصر وإنما اعتبروها نقطة انطلاق لهم لتحرير البلاد العربية والاسلامية وضمها الى ممتلكاتهم .

وكان خلفاؤهم الأولون من كبار المثقفين واعيان الازكياء فأرادوا الوصول الى أهدافهم عن طريق الحجة والقناعة قبل استعمال القوة والبطش فتميزت سياستهم في مصر بتترك الحرية الدينية للناس فلم يجبروا أحداً على التشيع وتركوا القضاة يحكمون على مذاهبهم السنية الاربعة ولكنهم عملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم فحول العزيز بالله ثاني خلفائهم الجامع الازهر الى دار للعلوم في ٩٧٨ م . واختاروا دعائهم واساتذة الازهر من خاصة مريديهم الذين تميزوا بفهم المنطق والفلسفة والكلام وتسلحوا بمختلف ضروب السلوك والنشاط الفكري لاقتناع تلاميذهم . وأضافوا الى التعليم الديني نشر الفلسفة وعلم المنطق والنجوم وغيرها .

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله مدرسة عالية أسماها دار الحكمة سنة ١٠٠٥ م لتعليم المذهب الشيعي المتطرف .

وقدم اليها بعض الغلاة من الفرس الاسماعيليين فأخذوا يدرسون آراء جديدة يضعون فيها الحاكم بمرتبة مقدسة فوق مراتب البشر وأبدى بعضهم نشاطاً زائداً لفت الانظار وخاصة حمزة بن علي بن أحمد الداعية الفارسي المشهور فاحتج الناس عليهم وطلبوا الى الحاكم توقيفهم فلم يفعل واشتد الأمر إحتجاجاً فتآمر على الحاكم بعض اقربائه واغتالوه ففرق الدعاة المتطرفون في أنحاء البلاد

العربية وحملوا معهم الافكار التي دعوا اليها في القاهرة. وينسب مذهبهم الى أحد دعائهم الشاميين نشكين الدرزي المتوفي في ١٠١٩ م والذي خرج عليهم فيما بعد وأصبح ممثلاً للشر والعدو في نظر اتباع المذهب إلا أن اسمه استمر يطلق عليهم مع انهم يتسمون بالموحدين ويبرأون من نشكين .
وليس هناك كتاب يحدد اصول المذهب ولكن الكتب الستة المخطوطة المتداولة بين المتدينين والتي تنسب الى مدرسة الحكمة ، تعبر عن وجهة نظرهم العامة كفرقة من فرق الاسلام المتعددة .

٢ - **تعالم المذهب** : نشأ المذهب الدرزي في احضان دولة تحترم العلم وتجعل الثقافة سلاحها للسيطرة على العالم الاسلامي . ولذلك نجد الآثار الفلسفية واضحة فيه فهو يأخذ شيئاً من حكمة الفرس ومعتقدات الهند ومنطق اليونان ويحاول التوفيق بينها وبين معتقدات الاسلام ويمكن إيجاز اصوله إيجازاً شديداً فيما يلي :

١ - **النبوة** : يضع المذهب الدرزي كبار المفكرين والفلاسفة موضع التبجيل والاحترام فافلاطون وأرسطو وجالينوس وغيرهم اشخاص بحثوا عن الحقيقة ومثلوها بسلو كههم الاخلاقي فمن الواجب تخليد اسمائهم ان لم يكن تقديسها .
٢ - **التقمص** : أخذ الدعوة فكرة التقمص أو التناسخ عن البوذية بطريق العلوم الفارسية واليونانية ثم طوروها بما يتفق مع نظرة الاسلام للانسان التي تجعله سيد هذا الكون فالبوذية ترى ان الانسان الشرير يعاقب عند انتهاء حياته بانتقال روحه الى حشرة دنيئة ويجازى الصالح بأن يولد من جديد انساناً أو حيواناً مقدساً ، ولكن التقمص التوحيدي يقتصر على الانسان ويمنع انتقال الروح البشرية الى حيوان أو نبات .

ومن الطبيعي ان تربط هذه الفكرة بين الأجزاء التي قد تبدو متناقضة في الظاهر وان تفسر الآراء الغيبية الغربية التي اعتنقتها فرق الشيعة المتعددة فالأئمة موجودون دائماً والمهدي المنتظر حي في كل لحظة وظهوره انما يعني الافصح عن نفسه فحسب لان الأئمة والمهدي وجميع الناس انما يبدلون أجسادهم في الاجيال المتعاقبة وأما الروح فهي خالدة .

٣ - التعاليم التبعية والاجتماعية : تختلف تعاليم المذهب الأخرى عن المذاهب السنية الأربعة اختلافات طفيفة فالزواج مثلاً يحدد بزوجة واحدة اخذاً بالآية الكريمة « وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة» والآية «ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» . ويفسر الصوم والصلاة والزكاة والحج تفسيرات تخالف ظاهر السنة فالصوم يعني الاقلاع عن القول الفاحش كما ورد في الآية الكريمة (فكلني واشربي وقرني عينا فاما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم إنسيا) والزكاة تعني التقوى كما في الآية الكريمة: (وآتينا الحكم صبياً ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقياً) . الى غير ذلك من التفسيرات الخاصة ولا تختلف باقي أحكامه عن السنة في شيء فالاعياد واحتفالاتها واحدة وطقوس الجنائز والصلاة عليها والعقد والزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالمعاملات ما هي الا نماذج لوصايا مختارة من المذاهب السنية الأربعة

٣ - انتقاله من مصر الى الشام : لم يطول عهد الدعوة في مصر ولم يقدر لها النجاح الكبير هناك لتوقفها بموت الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢١ م . ولأنها حوربت من قبل الفئة الحاكمة باعتبارها تميل الى التشدد والمغالاة في تطبيق الأخلاق المثالية على الحكومة والشعب فغار نبعها في وادي النيل ليتفجر في فلسطين وبنان وحلب وتم ذلك بدخول قبائل الازد التنوخيين الى لبنان واعتناقهم لها في القرن الثاني عشر .

وعاشت الدعوة حتى الآن في نطاق مغلق لأنها أفلتت بموت دعائها وأخذ معتنقوها انفسهم بالعنف والشدة مما أجأهم الى المناطق الجبلية فلما ضاق لبنان بهم على أثر منازعاتهم الداخلية . انتقل بعضهم الى جبل حوران وعرف باسمهم منذ أوائل القرن الثامن عشر .

ولم تستطع الدعوة على صرامة تعاليمها ان تقضي على خلافاتهم القبلية المشهورة فسالت الدماء الغزيرة مراراً بين القيسيين واليمنيين منهم وكانت أعنف معركة سنة ١٧١١ م وسميت بموقعة (عين دارة) التي نزع على أثرها أوائل الدروز من لبنان الى الجبل . فاذا انتهت لاستمرار الحروب القبلية بين ابناء

معروف في الوقت الذي تنوسيت فيه إلا من البادية . وقرنا هذه الملاحظة الى سكنى الجبال والتمسك بالعادات العربية الاصلية كالكرم والشجاعة والعفة وغيرها ، لأدر كنا ان العرب كانوا مادة الدعوة التي تمثل المعارضة باعتبار السلطة السياسية يومها كانت بيد الاترك والصليبيين والفرس وغيرهم من الموالي . ولا تزال نسمع حتى اليوم بوثائق كتبت منذ عهد طويل ترجع نسب بعض الاشخاص الى قبائل عربية مشهورة في القدم .

٤ - سرية المذهب : نشأ المذهب الدرزي التوحيدي علنياً في بداية أمره وبرعاية السلطة الفاطمية نفسها ولكن مقتل الحاكم وفشل الدعوة في مصر وتعقب خلفاء الحاكم لأتباعها . جعل دعاة الشام يستتروا وينشطون في السر لدعوتهم وكما قلنا سابقاً فباب المذهب قد أقفل بانتهاء أمر أصحابه الأولين . ويعيش الآن في الخفاء لا شيء إلا لأن الضغط قد نال كبار رجاله منذ عشرة قرون ولم يجرؤ فقهاؤه على الاتيان بجديد فيه .

وحاول رجل من أفاضل المتدينين وأعلام الفقهاء وهو الامير السيد التنوخي حاول في القرن السابع عشر ان يشهر المذهب فكتب له شروحاً وافية وأذاعها بين الناس وأقام في دمشق يناظر أئمتها ويفقه طلابها ويملا منابرها وأزال بعمله كثيراً من الظنون التي كانت تحوم حول الدرزي .

وأتى بعده بعض المشايخ الذين أرادوا اقتفاء سيرته كالشيخ الفاضل ولكن التيار المحافظ انتصر على التجديد فأعاد الكتابان بعد المجتهدين كسابق عهده وجعل الكتب التي ألفها الامير السيد نفسها سرية ومكتومة .

ويعيش الآن مذهب التوحيد في صدور المتدينين وفي كتب مخطوطة موزعة بين أصحابه ولا يحق لأحد من الدرزي أنفسهم ان يطلع عليه إلا بعد موافقة رجال الدين على سلوكه واقتناعهم بصدق نيته . لذلك نجد القلة القليلة وحدها تطلع عليه وتحرض على كتابان مافيه .

ولا شك ان انتشار الوعي الثقافي والقومي وصدق الاحساس الوطني في الجبل يجعله بعيداً كل البعد عن الطائفية البغيضة والتعصب الديني الذميمة .

المصادر

- خباز حنا : بين سوريا وفرنسا ج ٢
النجار عبد الله : بنو معروف في جبل حوران
سعيد امين : الثورة العربية الكبرى ج ٣ ط مصر
حتى فيليب : تاريخ العرب (مطول)
أبو عساف حمد : مقابلة شخصية بتاريخ ١٣ / ٤ / ٩٦٠
جانبيه حمود : مقابلة شخصية بتاريخ ١٩ / ٤ / ٩٦٠
أطرش علي ذوقان : مقابلة شخصية بتاريخ ٢٠ / ٤ / ٩٦٠
أطرش سلطان : مقابلة شخصية بتاريخ ١٠ / ٤ / ٩٦٠
جندي ادم : تاريخ القرارات السورية في عهد الانتداب الفرنسي
دمشق ٩٦٠
- الغيسمي يوسف : مقابلة شخصية بتاريخ ١٨ / ٤ / ٩٦٠
قباي فارس : مقابلة شخصية بتاريخ ٢ / ٤ / ٩٦٠
أبو راشد حنا : حوران الدائمة
كتب الحكمة المخطوطة
مجموعة الطقوس الدرزية في الزواج والموت والوصية
الجامعة الاسلامية وموقف الدروز منها محاضرة مطبوعة لرفيق وهبة
مصر ١٩٣٩
- أبو يحيى متروك : مقابلة شخصية بتاريخ ٩ / ٥ / ٩٦٠

تصويب

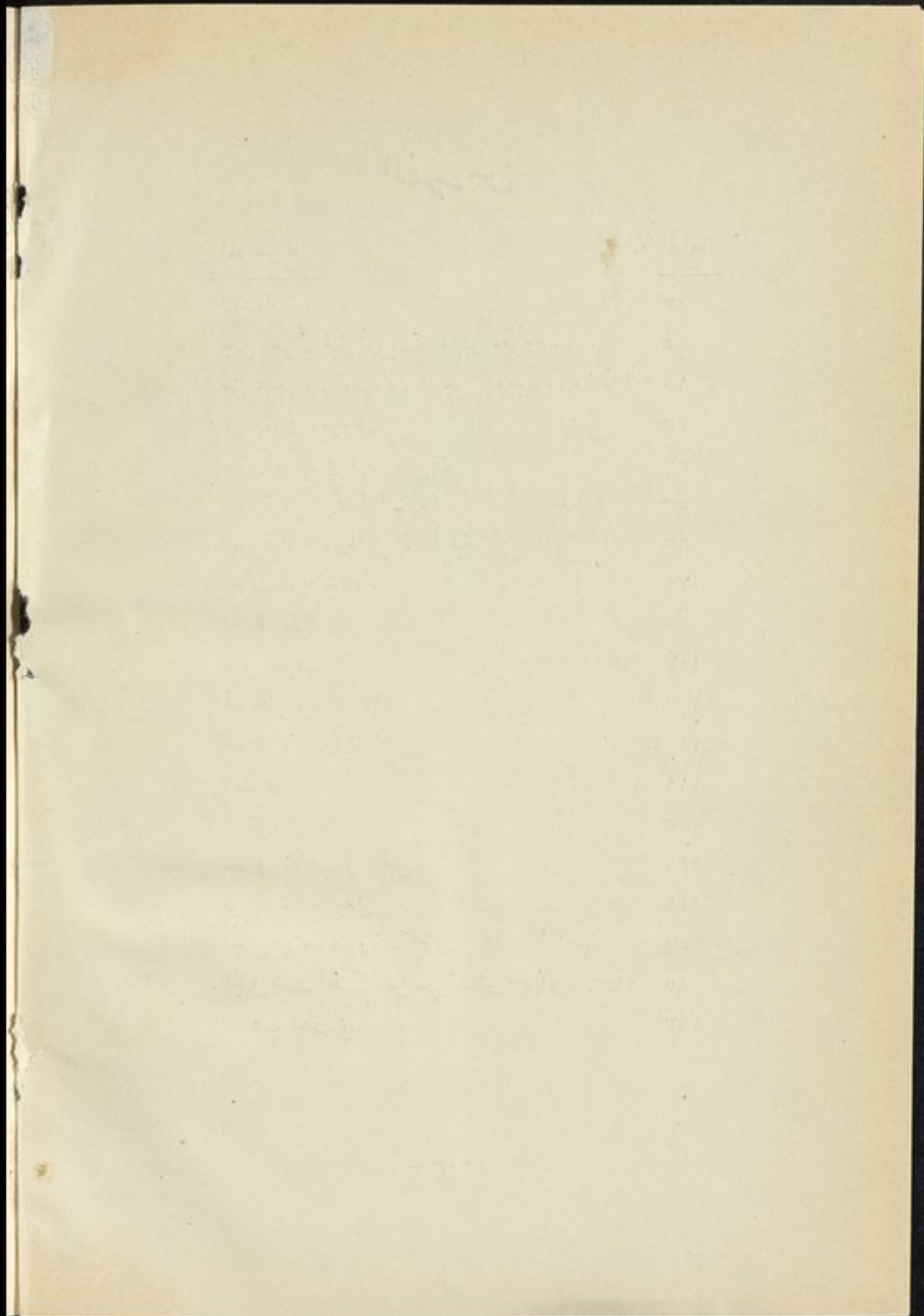
الصواب	الخطأ	الصفحة
عتيل	عتيل	٩
المدنية	المدنية	٩
والسهل	السهل	١١
أقرباءه	أقرباء	١٢
منه	فيه	٢٨
بنو	بني	٣٠
من النفوذ	النفوذ	٣١
مطالبه	مطالبهم	٣٥
منيكلي	فيللي	٣٦
امسيكي	امسكي	٣٨
وهون	ومن هون	٤٣
التلال	الثلال	٤٣
المغوش	المقوش	٤٤، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠
ابن سمير لهم	ابن سمير	٤٥
نجن	نجن	٤٧
مزايا	فرايا	٤٧
البكري	البكرية	٤٩
الغارية	القارية	٤٩
ام الرمان	الرمان	٤٩
يفني	يعني	٥٠
افراد القبيلة	افرادها	٥٥
غصم	عصم	٥٥

الصواب	الخطا	الصفحة
المحمدانيون	الخورانيون	٥٦
قطيش	قطيس	٥٩
عتيل	عقيل	٦٦
عزي	عربي	٦٦
مفعلة	معقلة	٦٦
زين الدين الرطل	زين الرطل	٦٦
السلامة	السلام	٦٦
يوم	يوم	٧٢
ومصاد	وحصاء	٧٢
الشقراوية	الشفراوية	٧٤
العراضي	العراض	٧٤
الفرننجي	القرنجي	٧٤
الملحم	الملجم	٧٧
تعدد	تعدد	٨١
يسجلوا لها	يسجلونها	٨٤
خير	غير	٨٥
رفع	ربط	٨٥
سمر	شمر	٨٥
صميد	حميد	٨٧
الأخرى	الآخر	٨٨
الخطاة	الحظلة	٨٩
الفارط	الفارط	٩٤
ويقف	وثم يقف	٩٤
وأم الزيتون	ويهام الزيتون	١٠٧

الصفحة	الخطاب	الصواب
١١٥	الفجفجيات	الفجفجيات
١٢٦	بعد ان سمم	بعد ان حاول ان يسهم
١٢٩	الشفون	المشقوق
١٢٩	القردية	القرية
١٣٣	لقتها	لهجتها
١٤١	اللجة	اللهجة
١٤٢	السرعان	السرطان
١٤٤	ملحوظ	فلحوظ
١٥٢	شديدة	شديد
١٥٢	امتج	اصبح
١٥٢	بذار	بقرار
١٧٤	عدد كبير	عدداً كبيراً
		٧٧
		٧٨
		٧٩
		٨٠
		٨١
		٨٢
		٨٣
		٨٤
		٨٥
		٨٦
		٨٧
		٨٨
		٨٩
		٩٠
		٩١
		٩٢
		٩٣
		٩٤
		٩٥
		٩٦
		٩٧
		٩٨
		٩٩
		١٠٠

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	جبل العرب قبل أن يسكنه بنو معروف
١٥	متى هاجر بنو معروف الى جبل العرب .. ولماذا ؟
٢٣	عربة بني معروف
٣٣	جبل العرب في عهد العثمانيين
٥٣	الثورة على الزعامة المتبدة
٦٣	العامية ار الثورة على الاقطاعية
٧٩	الحياة الاجتماعية
٩٧	الحياة العلمية
١٠٥	جبل العرب
١٠٧	لمحة جغرافية
١١٣	الحياة الاقتصادية
١١٩	الصناعة
١٢٣	السكان
١٣١	مظاهر الادب في الجبل
١٤٩	فرنسا تجتاح الجبل
١٥٧	الجبل يستعد للثورة الكبرى
١٨٥	الجبل تحت الحكم الفرنسي المباشر ١٩٢٧ - ١٩٣٦
١٩٣	المذهب الدرزي



1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

1871

وزارة الثقافة والدراسات القومية

بدمشق

المكتبات التالية بدمشق يطلب من	المؤلف	اسم الكتاب	السعر ق.س.
دار دمشق	كاتب ياسين	الجنة المطوقة	١٢٥
دار دمشق	مولود فرعون	ابن الفقير	١٤٠
دار اليقظة العربية	ريتشارد رايت	السي الاسود	٣٥٠
دار اليقظة العربية	عبد المسيح حداد	انطباعات مغترب	٢٠٠
دار اليقظة العربية	آلان باتون	ابك يا بلدي الحبيب	٣٥٠
صاله الفن الحديث العالمي	منير كيال	فنون وصناعات شرقية	١٦٠
صاله الفن الحديث العالمي	عادل أبو شنب	التوار مروا بيتنا	١١٠
صاله الفن الحديث العالمي	شفيق جبري	أرض البحر	٢٦٥
كبريات المكتبات	سعدى الشيرازي	روضة الورد	٦٠٠
مكتبة أطلس	بانول	توباز	١٨٠
صاله الفن الحديث العالمي	سلمان قطاية	حياة الفنان فتحي محمد	١٠٠
مكتبة أطلس	وجيه الدين	الصوارينغ والاقار الصنعية	٢٧٥
مكتبة أطلس	نعيم قداح	افريقية العربية في ظل الاسلام	١٦٠
مكتبة أطلس	ايلى هاليفي	تاريخ الاشتراكية الاوربية	٤٥٠
كبريات المكتبات	منير الشريف	قصة الارض	٦٠
دار دمشق	ماريفو	الاعترافات الكاذبة	١١٠
كبريات المكتبات	عفيف بهنسي	انجاهات الفنون التشكيلية	٣٠٠
كبريات المكتبات	جبرائيل سعادة	محافظة اللاذقية	٣٠٠

